دائرة معارف عن سير الثقافة خلال القرن الرابع عشر

مُعْجَمُ المطبُوعَات العَرَبِيَّة
في
المملَكة العَربيّة السّعُوديّة

تأليف

علي جواد الطاهر

(١٣٤٠ / ١٤١٧هـ)

الجزء الرابع

الخاتمة ، المرافق ، الفهارس الشاملة

أشرف على الطبع

حمد الجاسر

الخاتمـــــــــة[1]

في هذه الخاتمة خلاصة لنظرة سبقت ١٣٤٤/ ١٩٢٥، ولنظرة بلغت ١٣٩٠/ ١٩٧٠ وليس هذا المهم فيها، فقد كان ذلك في المقدمات الثلاث والتمهيد، وفي طول الكتاب وعرضه، وإنما المهم فيها الإطلالة على ما بعد الحد المحدود للنهاية، وما كان من شأن التطور، وما حسن أن يكون، وقد أبدى المؤلف شيئًا من ذلك لدى إعادته النظر في الحلقات، وهو يحولها إلى كتاب من رأي لم يكن قد أذاعه، ومن خبر لم يكن قد تهيأ له، ومن حدث لم يكن قد حصل، ومن مؤلَّف جديد لمؤلف من الأسماء التي وردت في مكانها من حروف المعجم، أو طبعة ثانية أو ثالثة لمطبوع سابق أو إحياء لمادة كان منتظرًا جدًّا أن تبعث في كتاب..، وقد اقتنع صاحب المعجم بضرورة إثبات ذالك، مما قد يُرى زيادة وما هو بزيادة في غير موضعها، وألزم نفسه بأن يخبر مراجعه بهذا الذي فعل ومهد له سبيل تمييز هذا (المضاف) من المضاف إليه.

حتى إذ أتى الخاتمة وجد أشياء يمكن أن تقال، ووقف على جديد يمد من تيار التأليف ويهيّئ لما بعده، فرأى ذلك شرطًا في وجود هذه الخاتمة، فعمل على ذكره، وإن كان خارج الحدين المقررين بين البداية والنهاية، أو لأنه خارج عن الحدين، وما هو بخارج على وجه الدقة لأنه نتيجة لهما وانبثاق عنهما وإلحاق بهما، فهو إذ ينير المستقبل ينير الماضي كذلك، والخاتمة لديه إطلالة على المستقبل بوجه خاص.

وطبيعي أن تأتي وقفته في حدود الإمكان، وحدود الإمكان تعني ما تفرضه الغاية

---

(١) كانت "العرب" حين نشرت هذه الخاتمة س٢٠ ص١٤٥ وما بعدها وضعت عنوانها (حياتنا الأدبية الحديثة من خلال دراسة مظاهرها نشأً وسيرًا وتطلعًا) وعلقت على ذالك بما يلي: (هاهو أستاذنا الباحث الجليل الدكتور علي جواد الطاهر في مؤلفه الشامل الحافل في موضوعه "معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية" الذي سبر به سير حياتنا الأدبية والفكرية، فاستوفى تسجيل مظاهرها في حقبة من الزمن تقارب نصف قرن (١٣٤٣/١٣٩٠هـ) وصرف فترة من عمره تربو على واحد وعشرين عاما (١٣٨٣/٥/٢١-١٤٠٥/٣/٨) في تأليفه- هاهو في (الخاتمة) يستخلص من آثار ذالك الجهد العظيم ما تسيل به أسلات قلمه طبعًا لا تطبعًا فصلاً ممتعًا حقًا).

التي قامت الخاتمة من أجلها، وما هو متهيئ لصاحب المعجم منه، وهو بعيد عن مواقع الأحداث، مستعينًا بما يجود عليه (الخيرون) من هدايا، ويطّلع عليه مباشرة بوسائل الاطلاع على البعد، وهو لا يني يشكر الخيرين للخير ويذكر الوسائل، حتى ما جاء منها مصادفة ـ بالفضل.

والمؤلف إذ يتقدم بهذا البيان لقارئه الكريم فإنما يكرر رجاءه في التنبيه على التقصير، والإشارة إلى المصدر الذي يملأ الثغرة.. ولعله يضمر تحميله جزءًا من المسؤولية، ويبقى باب المسؤولية مفتوحًا ما بقي باب المعجم كذلك...

ومن أجل أن أقول لك كلَ شيء، تأكيدًا لما قلت وزيادة عليه... أقول: إن الخاتمة ليست خاتمة، لأن كتابًا كمعجم المطبوعات العربية ـ السعودية في ظروفه كلها، وفي كونه استدراكًا لفائت، وتأخرًا عن وقت العمل، وبحثًا عن ضائع، وسعيًا لإعطاء أوسع الصور الموسوعية، وتهيئة إحدى الخدمات للباحث سعوديًا كان أم غير سعودي، وما كان حظ السعودي إزاء مطبوعاته بأحسن من حظ غير السعودي؛ أقول: إن معجمًا كهذا يوجب التفصيل، ولأن المؤلف غير سعودي، ومن شأنه في هذا أن يُعنى بما لا يُعنى به السعودي، وأن يرى زوايا تخفى على السعودي ازدادت التفصيلات ووجدت ضرورتها، وما كان حظ غير السعودي في هذا بأوفر من حظ السعودي.

الموضوع واحد: هو المطبوعات، والغرض واحد: هو خدمة الباحث، والباحث قد يكون سعوديًا مقيمًا في أرجاء المملكة، وقد يكون غير سعودي أقام في المملكة حينًا أو لم يقم، وكلهم في الغاية والموقف سواء.

ثم إن المعجم لا يؤلف لأبناء اليوم وحدهم، وإنما هو للقادمين الذين سينقبون عن أمور ننقب عنها اليوم، وأمور لا ننقب عنها ولا نقدر ثمنها، ولا بد من خدمة القادم والمستقبل على مقدار خدمة المقيم والمعاصر... والحال بهذا الشرط صعبة، يدرك أعباءها من زاول البحث، وألف في موضوع أو أكثر، ونظر إلى أن البحث كل واسع وعالم فسيح متشابك، وأنه الحضارة بجوانبها وأكنافها، وسطوحها وأعماقها، ماظهر

منها وما بطن، وماكان وما سيكون.

وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك ـ ألزم صانع «معجم للمطبوعات» نفسه أشياء كثيرة قد تبدو خارج ما يلزمه، وهي فعلا خارج ما يلزم صانع معجم مكتبي (بيليوكرافي) صرف، والمكتبي الصرف محدود جدًا بقواعد مقررة (جامدة أحيانًا) لا يهمه منها إلا إيفاؤها قوانينها ـ حتى لو كان ذلك شكليًا فقط، وكثيرًا ما كان المكتبيون مكتبيين فقط، وربما لم يخرجوا عن حدود المنضدة التي يجلسون وراءها، وإزاءهم المطبوعات التي أتى بها إليهم التسويق، وفيها من كل فن مما يعرفون كنهه أو لا يعرفون، وأساس ملء البطاقة (الكارت) لديهم نظرة على ظاهر الأشياء بين العنوان والفهرست، وهم في هذا ـ وليس في القول غمط لحقوقهم وتقليل لخدمتهم، ولكنه تشخيص لواقع الأمر ومتطلبات واقع الأمر ـ لا يرون ما وراء حدود عملهم، ولم يعانوا ما عاناه الباحث في موضوع حضاري عموما أو أدبي خصوصًا. وهذه نقطة لهم وعليهم، لهم لأنها تسهل مهمتهم وتجعلهم (منهجيين) جدًا، وعليهم وقد صار الأمر في ذلك واضحًا، وإذا وجد شاذ فهو شاذ، وقد يقع الشيء وعكسه.

ولم يشأ صانع «المعجم» عندما كان باحثًا وأراد أن يكون باحثًا وعامل بيليكرافية مطبوعات معًا... أن يخسر نقطة البيليوكرافي (المكتبي) الصرف، فقد وفاها حقها وزيادة، وفاها بأن تابع قوانينها المقررة المنهجية: اسم المؤلف، اسم الكتاب (المطبوع)، مكان الطبع، اسم المطبعة، تاريخ الطبع، عدد الأجزاء، المحقق إن وجد، الناشر إن وجد، المترجم إن كان... عدد الصفحات...

وماذا يعمل المكتبي المختص أكثر من هذا؟ لا يعمل. بإستثناء ما يلجأ إليه من تبويب ونظام عشري، ومستلزمات ديوي، كما هي أو كما تطورت، ودعت ضرورة إلى تعديلها، وهذه إن كانت عملاً مكتبيًا، فلها مخاطرها في اضطراب التبويب أحيانًا، وتداخل الموضوعات واختلاف المكتبيين أنفسهم في درج هذا المطبوع في هذا الباب أو ذاك، ثم إنهم كثيرًا ما يعتمدون على المظهر: العنوان،

الفهرس، نظرة عابرة على مجموع المطبوع الذي يقع بين أيديهم... وإلا فمحال ـ أو صعب ـ عليهم أن يطيلوا النظر في مادة الكتاب، ومحال أن يختصوا بالعلوم كلها... وقلما سعوا ـ هم أنفسهم ـ بحثًا عن كتب مضى بها الزمن، ولم تجد من يجمعها أو يعرف بها قبلهم فضاع منها الكثير، ومنها ما بقي اسمًا، ومنها ما فقد الاسم مع الجسم.

عمل المكتبيين ـ الموظفين في المكتبات ـ مشكور نافع، وإلا لما كان، وإنما هو محدود بالوظيفة نفسها، وهو على أي حال غير العمل المعجمي، وغير ملزم للمعجمات، ولربما خرج بها قليلا ـ أو كثيرًا ـ عن المعجمية، والأصل في المعجمية (الموسوعية) الترتيب الهجائي المطلق.

لقد جد صانع «المعجم» أن يكون مثل المكتبيين، وكأنه موظف معهم فسجل ما يلزم تسجيله عن المطبوع في اسمه واسم مؤلفه... الخ، من هنا كانت استفادة الآخرين من المكتبيين بعده (كما حدث للأستاذ شكري الذي لم يشر إلى عمل سابق عليه).

وزاد على ذلك أمورًا ليست من مألوف المكتبيين ومن قواعدهم المقررة، وربما لم يكن في مقدور الكثيرين منهم؛ فلم يكتف بعدد الصفحات وإنما ميز فيها ما كان للمقدمة، وما كان للناشر، وما كان للفهارس وجداول الخطإ والصواب، وما كان غير داخل في الأرقام...

وزاد أن توسع في التعريف بفحوى الكتاب، وما توسع به المؤلف نفسه خارج موضوعه لقصد أو لجهل بالمنهج؛ وكثيرًا ما سجل ـ صاحب المعجم ـ الأبواب البارزة والفصول ذات الدلالة، وألزم نفسه نقل سطور ذوات دلالة من المقدمة ـ وهو المنهج الذي لم يسبق إليه ـ فيما يعلم ـ ومن هنا كانت استفادة المكتبيين بعده، كما حدث للأستاذ عناني الذي لم يشر إلى مصدر سابق عليه ـ وذلك مؤسف،

ولا بأس، وحسنًا فعل إذ أفاد وآمل أن يقتدي به مكتبيون آخرون، فليس المفروض بالمكتبي أن يبقى جامدًا عند حدود درسها ذات يوم ضمن مفهوم خاص وفي بلد خاص، نتمنى دائمًا للمكتبيين المرونة وسعة الأفق والقدرة على التصرف... والثقة بالنفس وبالمهمة الجليلة التي يؤدونها مع شرط أن يكونوا مكتبيين عن رغبة واستعداد وطموح...

إن زيادة العلم بالمطبوع، وزيادة الكلام على فروع محتوياته... وعلى منهجه ومصادره إن وجدت، وأمانته أو خيانته، وخلاصة رأيه... كل أولئك أمور مهمة في عالم البحث، يدركها من كانت له أقل مزاولة فيه، فقد يكون الكتاب غير متيسر، فقد مع الزمن، وهذا من الأحوال المتكررة في عملنا، وقد يكون الباحث بعيدًا عن موطن الكتاب على مسافات شاسعة لا تسمح له بسهولة الوصول إلى المطبوع... فإذا استشف من «المعجم» أهمية خاصة لذلك المطبوع في بحثه عمل المستحيل في الوصول إليه، وإلا بقي عمله ناقصًا، وإذا لم يقض مضجعه النقص من أجل الحقيقة فسيقض مضجعه مهاجم لا بد أن يقع على هذا النقص، وله علم بالمطبوع الذي كان على الباحث أن يرجع إليه.

ومن أجل هذه الحقيقة التي يدركها من كانت له أقل مزاولة للبحث، فضلا عن حقيقة السعي إلى استكمال أكبر ما يمكن من جوانب الحديث عن المطبوع، عمل صاحب «المعجم» ـ قدر الإمكان ـ على التعريف بالمؤلف في ميلاده (ووفاته) ومجمل تحصيله وما حصل له وخلاصة اهتمامه، والماح إلى خلقه بين العدالة والجور، والسماحة والتعصب، والموضوعية والانحياز.

لقد بذل صاحب المعجم في ذلك جهدًا خاصًا، وتحمل جهدًا كان في غنى عنه، فرجع إلى المصادر والدراسات المتقدم منها والمتأخر ليفي ـ ما أمكنه ـ من مستلزمات هذا الشرط، الذي رآه لازمًا، ولم يفكر فيه يومًا المكتبيون بالمعنى الرسمي للوظيفة، والتعريف بالمؤلف يبين أهمية كتابه في بحث من البحوث، ويبين قيمة هذا الكتاب، ولا شك في ترابط الكتاب وصاحبه، فهل كان المؤلف مختصًا بما ألف؟ وهل كان شاهدًا؟ وهل كان أصيلا؟ أهو ناقل، جمّاعة، سرّاقة.. فإذا كان ثانويًا أو ثالثيًا قل

شعور الباحثين بتجشم المستحيل من أجله، وإلا شدّوا الرحال وأوغلوا في السعي.

أجل فالكلام في «المعجم» ـ هنا ـ ليس تطويلا جيء به للكلام فقط، أو لتضخيم العمل أو للاسهاب والزيادة التي لا لزوم إليها: إنه جزء لا يتجزأ من العمل نفسه في وسيلته وفي غايته...

وقد سعى صاحب «المعجم» إلى جمع (المعلومات) من هنا وهناك، وعرضها كما هي في مراجعها، حتى لو تناقضت ليكون الباحث الذي يراجع المعجم على علم بالأشياء كما هي، وكان من عوامل أسفه أنه لم يجد التعاون اللازم من المؤلفين السعوديين. ومن العارفين بشؤون المؤلفين، ليوفي هذه الخطوة نصيبها، وليحفظ للأجيال القادمة في الزمان، البعيدة في المكان، ما كان ضائعًا أو شبه ضائع، وما يمكن أن يضيع وأشبه بأن يضيع.

ويصل صاحب المعجم مؤلفيه بكتبهم، ويصلهم هم وكتبهم بالموضوع السائد من أدب أو تاريخ أو فقه... وبالعصر والمعاصرين... وما سبقهم وما لحقهم.

ثم إنه ـ أي صاحب المعجم ـ لم يكن آلة (أو كمبيوتر) يقف عند حال الكتاب المادية، ويسطر ما قاله الآخرون، وإن كان تسجيل ما قالوه حسنًا ومفيدًا... وحاصلا، وإنما هو باحث في بعض من وجوه البحث، ولنتذكر أنه جاء إلى المعجم باحثًا قبل أن يأتيه مكتبيًا، وللباحث رأيه فيما يقرأ وفيما يتجمع لديه عند تواتر الأحداث وتلاقي الأفكار، ومن هنا كان حقه في الحكم، بشرط الاعتدال والتأكد والتأني والاكتفاء بالعبارة المركزة مع إشعار مراجع المعجم بأن هذا هو رأي صانع المعجم يعرضه على صورة تميزه من آراء الآخرين، وله، بعد ذلك، قبوله أو رفضه، وكان صاحب المعجم من الاحتياط بحيث يبدو بخيلا بأحكامه، شحيحًا بكلماته حتى في الحالات التي تقع في الحقائق الثابتة أو التي تدخل في التمني غير ممكن الوقوع..

صانع المعجم باحث... قبل أن يكون مكتبيًا، وباحث أدبي قبل أن يكون باحثًا في شؤون الفقه أو التاريخ... ولكن صنوف العلم مترابطة ولا يأتي الأدب معزولا

عن التاريخ نائيًا عن الفقه... أو معزولا عن المطبعة والطبع (خارج البلاد وداخلها) أو الجريدة والمجلة (داخل البلاد وخارجها)... ما كان رسميًا وما كان أهليًا... أو أن تكون الـ ١٣٤٤/١٩٢٥ مقطوعة قطعًا باتا عما قبلها، وما كان الحجاز وما فيه من العلم في الحرمين ومن عوامل النهضة الحديثة ليشغله عن نجد، وتشغله نجد عن الأحساء، وتشغله الأحساء عن عسير، عن جازان...

البحث متكامل الحلقات مترابط العناصر... وقل مثل ذلك بالعام ١٣٩٠/ ١٩٧٠، فما هو الحد الفاصل القاطع، المقطوع بسكين عما بعده... في كل شيء ولا سيما في المؤلفين الذين مازالوا أحياء، يواصلون التأليف والكتابة، ويعددون الأجزاء أحيانًا أو يعيدون الطبع مع التنقيح أحيانًا، بل إن من مؤلفي ١٣٤٤ - ١٣٩٠/١٩٢٥ - ١٩٧٠ من ألف خلال تلك السنوات وكتب المقالات الكثيرة ما تكوّن لو جمعت - وفيها المتسلسل - كتابًا، أو نظم من الشعر ونشر من القصائد الكثيرة - أيضًا - ما لو ضم إلى بعضه لجاء ديوانًا... ومثل ذلك شأن المواد الأخرى من فقه وتاريخ... وترجمة، ولكنهم، لسبب ولآخر، لم يعملوا هذا الكتاب المطلوب الذي يجعل منهم أصحاب مطبوعات، تدخل على وجه مكتبي في معجم المطبوعات الذي احتوى من هم أقل شأنًا، وأقل - أحيانًا - كثيرًا، وإذا ضحى المكتبي وهو مرتاح الضمير بأولئك المؤلفين الذين كان لهم تأليف ولم يكن كتاب، فلا ولا يمكن أن يرتاح بال الذي جاء إلى مَعْجَمة المطبوعات باحثًا، إنه يذكر المؤلفين الذين لم يطبعوا كتابًا خلال ١٣٤٤ - ١٣٩٠ ولكنهم كانوا في الحركة العلمية أعضاء مهمين بل روادًا وأعمدة نهضة - يذكرهم في تسلسلهم الهجائي، مع الإشارة إلى الأسباب الموجبة لذكرهم، والإهابة بهم إن كانوا أحياء، وبذويهم وذوي المسؤولية عن الطبع والنشر إلى جمع المتناثر وحفظ الضائع وإصدار الكتاب اللازم أو الكتب اللازمة.

ولم يكن صاحب المعجم ليصدر في ذلك عن خيال، وإنما كانت الحقيقة ماثلة إزاء عينيه ناصعة، وحسبك أن يكون من أولئك مثلا: عبد الوهاب آشي، حمزة شحاتة، عزيز ضياء، محمد عمر عرب، عبد العزيز مؤمنة، أحمد إبراهيم الغزاوي،

أحمد العربي، عبيد مدني، محمد علي قطب، سيف الدين عاشور، محمد العامر الرميح، مقبل العيسى، حمد الحجي.. محمد بن عمر الفاخري... محمد بن عبد الله بن حميد....

ولك في الدوائر (●) التي تسبق أسماءهم في المعجم دليلا عليهم، وسترى أن سبق صاحب المعجم للأحداث لم يكن وهمًا، ففيهم من طبع كتابًا أو أكثر، وفيهم من سيطبع له كتاب أو أكثر... وستدلك الدائرة (●) كذلك على كتب أخرى ألفت أو كتبت خلال الطرفين المقررين لمادة المعجم، ودخل أصحابها المعجم، ولكنها لم تدخل لأنها لم تنشر في ذلك المدى وإنما نشرت بعده ـ وهي منه، والأمثلة كثيرة وانظر مثلا: أحمد سباعي، محمد سعيد العامودي، محمد حسين زيدان، وحسين سرحان، أحمد بن محمد المنقور، عبد العزيز الخويطر... ـ ولا تسل عن الجاسر.

وليست هذه المؤلفات بالقليلة الشأن، وما أصحابها بخارجين عن طبيعة الأشياء ـ إن كان إدخالها بعد التاريخ المحدد خروجًا على قواعد جامدة، يقيد بها المكتبيون أنفسهم، فهذه الزيادة من حقوقنا ـ وحقوق أصحابها ولا يصح فيها المثل القائل الزائد كالناقص.

ثم إن الذي تهيأ له أن يطبع كتابه عام ١٩٧١/١٣٩١ لا يعني أنه لا يمت إلى ماقبل ذلك بعام أو نصف عام أو عشر عام، ولا بد من عودة النهاية على بداية جديدة، ثم ما رأيك وقد حفل المعجم بمؤلفين جاءت كتبهم متأخرة، ولكنه لم ير بدًا من الحرص عليها، والوقفة عندها إتمامًا واستكمالا، وضرورة، وحسبك أنها صارت مرجعًا يأخذ منه، ويحيل عليه ولا غنى لباحث بعده عنها، ويأتي في طليعة ذلك كتاب البسام ـ «علماء نجد خلال ستة قرون» (١٣٩٨)، والفوزان ـ «الأدب الحجازي الحديث »(١٩٨١/١٤٠١).

أما الذين دخلوا المعجم ولم يكونوا سعوديين أصلا، وهم غير قليلين عددًا أو شأنًا، فلا نعيد الدفاع عن وجودهم، فأكثرهم حصل على الجنسية السعودية، ويستوي في ذلك

الذين حصلوا والـذين لم يحصلوا تأثرًا أو تأثيـرًا بالحركة الفكرية للبـلاد، ولولا هذا الفعل الواقع لما كانت (الورقـة) وحدها إذنًا لهم فـي الدخول، وقد أوضحـنا ذلك في المقدمة مستشهدين بعدد مهم من الأسماء، وورد اسم الشيخ إبراهيم الشورى، وووروده صحيح، ونزيد هنا خبر وفاته، فقد نعته مجلـة «الفيصل» (عدد ذي الحجة ١٤٠٤/ أيلول (سبتمبر ١٩٨٤) عن عمـر يناهز الثمـانين عامًا، فقد ولد عـام ١٩٠٤ وذكرت أعماله ومؤلـفاته، وكان آخر عمل له: مدير إدارة الثقافة الإسلامية برابطة العالم الإسلامي...

وتأتي ـ هنا ـ فـائدة التعريف بالمؤلف، وبالمطبوع ليعين المعجم لمراجـعه مدى صلة هؤلاء بالمطبـوع السعودي والسعودية ومدى انـفصالهم فيكون فـي ذلك ـ بعد الذي كان من أمـر الحد الزمني ـ عـلى علم بما يأخـذ وما يدع... وليقـف تلك الوقفـة عند مؤلـفين أقامـوا حيـنًا محدودًا فـي السعـودية، منتدبين للتـدريس أو لـغيره، لاجئين للسياسة أو لغيرها، فألموا بشؤون من السعـودية ما لم يتهيأ لهم وهم بعيدون، وما ربما لم يتهيـأ لأبناء السعودية أنفسهم، ووجب ـ حينئذ ـ ذكـرهم في التسلسل الـهجائي مع بيان درجة الاتصال أو الانفصال.

ولم يكن المـدى ـ أي مدى ـ بخاف على أيّ يـراجع المعجم، ويكـفي ما يراه إزاء المؤلـف والكتـاب من تعريف وتاريـخ، ثم مـا سبقـت الإشارة إليـه، وتكررت تـلك العـلامة الفارقـة التي تبـين له كل ما مـن شأنه الخـروج قليلا ـ أو كـثيرًا ـ عن الحـدين المحدودين في الزمـان، أو عن الأقطار التي وحدتهـا كلمة السعودية فـي المكان، تلك العلامة ـ وقد عرفتها وألفتها ـ العلامة (•) التي تتصدر مثل هذه الأسماء من مؤلفين أو من مـطبـوعات... زيـادة علـى تنبيـهات فـي المقـدمات تـسبـقهـا قائـمة الـرموز والمختصرات... وتلحقها الخاتمة.

أجل، ولنتـذكر أن صاحب المعجـم جاء المعجم باحـثًا قبل أن يكون مكـتبيًا، وإذا كان قـد ألقى برأي لـه في هذا الـكتاب أو ذاك، وفـي ذاك المؤلف أو هذا مـن شؤون ليـست أدبيـة فما أولاه بـشأن أدبي، وبـتثبيـت (انطبـاع) اكـتسبه خـلال مطالـعة أو

معايشة أو تـأمل في قيمة البحث الـذي قام عليه المطبوع، ودرجة الإبـداع التي تقدم بها الـشاعر أو المقالي أو الـقاص، وله من اهتمـامه الأساس بالأدب والنقـد الأدبي ما يؤهل لمثل هذا الحكم وهـذا الانطباع بشـرط أن يأتي الرأي متـصلا بالحركة الـعامة، موازنًا بين الخاص والعام، ملاحظًا الظرف والتـطور، وأن يُعرَض بصيغة تدل القارئ ـ أو المراجع ـ على أنه رأي صاحب المعجم ولـيس رأي الآخرين... الذين احتـفل بهم في حدود المتهيئ الممكن كذلك.

إن الرأي يخدم الـقارئ لأنه مخلص، وثـمرة تجربة وفي تجردمـطلق، ثم يخدم الـعمل بوجه من الـوجوه إذ يزيده ـ وخاصة لدى التـقائه مع أخبار أخرى واتصـاله بآراء أخرى ـ طراوة تـخرجه مـن جفاف المـكتبة الـصرف، وربما أغـرت هذه الطـراوة (الناس) بـقراءة المعجم أو قراءة مواد منه أو صفحات منه على أنها صفحات من كتاب مؤلف تأليفًا أدبيًا، فيستـمرون في القراءة.. وإذ يستـمرون يزدادون قربًا من مادة المـعجم وعلمًا بالمـطبوعات وأصحابها، وهذا قصد انبثق لدى صاحب المعـجم على مر الزمن، فاستحلاه ورآه يجمع بين الفائدة والمتعة، مـن هنا لم يعدم في أفاضل الناقدين من استـطاب المنهج أو من وصفه بالأدبي... ومن أيد برأيه ما أراد إليه مؤلف المعجم نفسه.

وتبقى مسألة البحث والتأليف في الأدب السعودي.

واقترح أديب فاضل كريم سعودي ـ هو الأستاذ عبد العزيز الرفاعي، ولم لا نذكر اسمه نصًا ـ على صاحب المعجم ـ وقد رأى في المعجم ما يبعث على حسن الظن ـ، اقترح عـلى صـاحب المـعجـم أن يؤلـف في الأدب الـسعـودي أو في مـوضوع مـن موضـوعاته: الـشعر أو الـقـصة، أو المقـالة... أو ما إلـيها ومـنها، وكان الـباعث عـلى الاقتـراح موضوعيًا مـخلصًا، فقـد رأى الأديب الفـاضل الكريم صـاحب المعجـم في معجـمه فاقتـنع ـ وهو العـالم جيدًا بـشؤون الأدب السعـودي، فضلا عن ريـادته في جيله ـ بقدرة صاحـب المعجم على التأليف في الموضـوع السعودي، والرأي صائب، والنية حسنة، والاقتراح مخلص مسَّ مـن صاحب المعجم قصده الأول في غرضه من المعجم فمس جرحًا ـ وهو لا يدري ـ وقل ضرب على وتر وهو يدري.

أجل، كان في رغبة صاحب المعجم أن يؤلف في الأدب السعودي، وربما بلغت الرغبة مبلغ المُنيَة بعدما اكتسبت دواعي الضرورة والمنهج... ولكنه لم يفعل، لأنه رأى أن يأتي المعجم قبل التأليف، وحين ألف المعجم لم تبق الضرورة كما كانت ـ وربما الرغبة كذلك ـ ومن هنا كان اعتذاره الصادق إلى صديقه الأديب السعودي.

شكرًا عزيزي الكريم... فالذي لديَّ لا يؤهل للتأليف المختص، إن في الشعر، وإن في القصة، وإن في المقالة... وإن... وإن في النقد الأدبي، إن الذي لديَّ آراء تكونت من قراءات متفرقة في هذا الديوان، أو هذه المجموعة، أو هذه المجلة، وقد ثَبَّتُّها ـ راضيًا ـ في ثنايا المعجم لأنها ممكنة التثبيت على تلك الصورة، أما التأليف فشيء آخر ـ كما تعلم.

ولم أزد.... لعلمي بعلم الأستاذ الفاضل الكريم، ولو أردت الزيادة لأشرت إلى التطور الذي جرى بعدي كمًا وكيفًا، ولا بد لمن يتصدى للتأليف من إلمام علمي به، وهو خارج الطاقة... ثم ـ وهذا هو المهم ـ لبينت اختفاء الدواعي القديمة التي بدأ معها التأليف عن الأدب السعودي ضرورة، ولم يكن هذا الاختفاء لأني لم أعد في السعودية، أو لم أعد مدرسًا للأدب الحديث... يشعر شعورًا صادقًا في أن يدرس الأدب السعودي كما يدرس غيره، وأن يدرس في الجامعة السعودية ـ على الأقل ـ كما تدرس آداب الأقطار الأخرى، وكم وجه اللوم مصرحًا وملمحًا لأولئك الأساتذةالعرب، الذين انتدبتهم الجامعة السعودية، مستعينة بخبرتهم منتظرة التنبه والتنبيه إلى ما يجب درسه فما قاموا بالواجب، ولا أدوا الرسالة ـ فضلا عمن كان من شأنه الرديء ما كان.

هكذا كانت الفكرة الباعثة الأولى على «المعجم» ـ وقد تكررت الإشارة إليها بما يمكن أن يؤدي إلى الملل ـ أما الآن، فقد تغيرت الحال، وخفَّت الأزمة، وتولى (العبء) من هو أهل لأن ينهض به، فيسد الثغرة، ويرأب الصدع، ويحل الإشكال، لقد توطد التقليد الجامعي، وعاد الجامعيون السعوديون من الخارج، وتعددت

الجامعات وعملت فيها الماجستير والدكتوراه... وما زال سعوديون يسترفدون الدراسة العالية في الخارج... وهذه حال تؤدي بالضرورة إلى دخول الأدب السعودي في المنهج الجامعي، وتؤدي بالضرورة - قبل ذلك وبعده - إلى أن يكون الأدب السعودي موضوعًا للماجستير والدكتوراه، موضوعًا أو موضوعات... وقد حصل هذا بحكم الضرورة، كما قلت، وحكم طبيعة الأشياء كذلك... وبجدارة الأدب السعودي نفسه للدرس والتدريس، وحلت بذلك عقدة من عقد مؤلف المعجم، فقد تولى المهمة عنه آخرون كرام، علماء كاتبون، وكأن تفكيره السابق كان في ظرفه الحتمي أي أنه لم يأت ابتداعًا، ولم يقم على هواء، وإنما فرع من شجرة غير منظورة، والفروع كانت تدفع إلى ثمرة واحدة، ثمرة البحث والتأليف في الأدب السعودي.

في الوقت الذي كان فيه صاحب المعجم يدير الرأي في (الأدب السعودي) ويداوره وينبه إلى درسه ويستعد... ثم شرع جمع المادة يستغرق وقته ولم يلبث أن أغراه بصنع المعجم... ويذكر بالخير الأستاذ عبد الله عبد الجبار وقد وقع على كتابه «التيارات الأدبية الحديثة في قلب جزيرة العرب» المطبوع سنة ١٩٥٩، ولكن الأستاذ عبد الله وقف عند منتصف الطريق وشغل نفسه - والقارئ - بما هو تمهيد وخارج الموضوع، أكثر من الموضوع نفسه - وربما كان ذلك لغرض في نفسه خارج المنهج -. وإذا كان الكتاب لم يلغ الفكرة، فإنه أغرى بها، ولا سيما باللهجة الدعائية التي تبناها - مخلصًا - لدى حديثه وحكمه وتأليفه.

في ذلك الوقت من النصف الثاني من ثمانينات القرن الهجري وستينات القرن الميلادي... كان سعوديون خارج بلادهم يتلقون الدراسة العالية قد قر قرارهم على دراسة الأدب السعودي، ومنهم من كان في انكلترة ومنهم من كان في مصر...: محمد عبد الرحمن الشامخ، محمد عثمان الصالح، عبد الله آل مبارك، عبد الرحيم أبو بكر... والبقية تأتي كلما تقدم الزمن - والخير في البقية - وفيهم - في علمي - محمد بن سعد بن حسين، وإبراهيم فوزان الفوزان، وعبد الله الحامد... ولا يلبث

آخرون شغلوا أول الأمر بموضوعات عامة من التاريخ الأدبي... أن تقدموا خطوات في الشأن السعودي ومن هؤلاء الدكتور منصور إبراهيم الحازمي جاء من (الرواية التاريخية) إلى صحيفة «أم القرى» والقصة السعودية، أما الدكتور أحمد محمد الضبيب فقد جاء من «أمثال الميداني» إلى مُعْجَمة آثار الشيخ محمد بن عبد الوهاب و«حركة إحياء التراث» في الجزيرة... والقائمة تطول مع الزمن، ومناحي الدراسة تتعدد.... كما بدأت موزعة على نجد أو الحجاز أو الشرقية... على الشعر أو النثر أو الصحافة...

كل هذا جميل ومطلوب وحاصل... ويبقى في نفس صاحب المعجم (شيء من الأدب السعودي، هذا الشيء هو الفكرة والأساس التي انطلقت منها فكرة العموم، عموم الأدب السعودي في مختلف أنواعه، ومختلف مناطقه، ومختلف أعلامه، فمن يحمل ثقلها عنه؟.

لقد حملها ـ على خير مايمكن ـ باحث سوري كريم هو الأستاذ بكري شيخ أمين، الذي هيأت له إقامته مدرسًا في كليتي اللغة العربية والشريعة في الرياض فرصة الاطلاع المباشر على الأدب السعودي، ومصادره عن قرب،وبجهد طبعًا، وكان من حب الحقيقة بما يجعله كالسعوديين في عملهم بأدبهم، وكغير السعوديين فيما يمكن أن يكونوا عليه في النظرة الموضوعية. فإذا لم يكن الموقف موقف اطلاع فقط، وإنما هو موقف الباحث عن موضوع نادر، جديد يهب صاحبه الأصالة، ازداد الأمر خطورة وأهمية، وهكذا كان، وصار بكري شيخ أمين دكتورًا بحق برسالته الضخمة القيمة: «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية» وقد طبعها (١٣٩٢/١٩٧٢) وبإمكان المرء ـ قارئًا كان أم طالبًا أم استاذًا ـ أن يطلع عليها ويفيد منها ويرى سعة عالمها وسعة أفق عالمها.

وماذا كان صاحب «المعجم» يريد أكثر من هذا؟ ولعله ـ أي الأستاذ بكري ـ قد كفَّر بعمله عن سيئات الآخرين.

ونعود إلى الباحثين السعوديين أنفسهم، وهم أولى بحمل العبء، وقد حملوه مجزأ، وربما تطلب الجزء خصوصية أكثر مما يتطلبه الكل... وإذا كان (غريب) مثلي قد أحس بضرورة أن يدرس السعودي أدبه، فما أولى السعودي نفسه أن يحس بتلك الضرورة، خصوصًا عندما يقف على أعتاب دراسة عالية، تلزمه بالبحث والتأليف، وتدفعه إلى التفكير الجدي في الموضوع الذي يمكن أن يبرز فيه، وهكذا كان.

كان محمد عبد الرحمن الشامخ يحضر للدكتوراه في إنكلترة، واختار لنفسه موضوع «النثر الأدبي في الحجاز ١٩٠٨ - ١٩٤١» وحصل به على الدكتوراه في ١٩٦٧/١٣٨٧ وعاد إلى موضوعات من الشؤون الأدبية في الحجاز الحديث، ذات اتصال تام برسالته، فكان من ذلك «الصحافة في الحجاز ١٩٠٨ - ١٩٤١» و«التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني» والكتابان يدلان على عمق في البحث، وإخلاص في التقصي، وقدرة على العرض، ثم عاد إلى صميم رسالته، وكأنه وسع فيها شيئًا فأصدرها كتابا بعنوان «النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ١٩٠٠ - ١٩٤٥».

وكانت محاولة عبد الرحمن أبو بكر في حصوله على الماجستير من مصر (رجب ١٣٩٣/ أغسطس (آب) ١٩٧٣ بـ «الشعر الحديث في الحجاز ١٩١٦ - ١٩٤٨» محاولة فقط، مقبولة، شهدْتُ ولادتها وأنا في السعودية، يوم كان أبو بكر في قسم الدبلوم من طلبة دراسة أصول التدريس بجامعة الرياض.... أجل هي محاولة ومقبولة، وقد طبع الكتاب مرتين (وتوفي المؤلف - قبل أوانه - بعد أن رأى ثمرة فكرته).

كانت محاولة، ولكن الذي في نفس إبراهيم فوزان الفوزان أكثر من ذلك غاية وباعثًا، فخطا الخطوة اللازمة التي حدثنا عنها في مقدمة رسالته للدكتوراه (من القاهرة) عن الأدب الحجازي الحديث: (لقد حظي تراثنا العربي الذي خلفته الجزيرة

العربية بعناية الدارسين والباحثين على مر العصور حتى عصرنا الحاضر (...) أما أدب العصر الحديث في هذه الجزيرة فلم ينل حظه من عناية الدارسين كما حظي أدب الأقاليم العربية الأخرى.

ونظرة واحدة إلى كتب الأدب وتاريخه في عصرنا هذا الحديث تؤكد لنا هذه الحقيقة، التي طالما صدمتنا وصدمت أبناءنا في المدارس والمعاهد العلمية وسائر الجامعات في المملكة العربية السعودية.

ولقد عشت هذه التجربة وعانيتها، حين كنت أدرس لهؤلاء الطلاب وليس في أيديهم إلا كتب الأساتذة من أبناء البلاد العربية الأخرى، وفيها الدراسة الوافية لكل ألوان الأدب في تلك البلاد. ولطالما كان هؤلاء الطلاب يسألونني هذا السؤال:

وأين أدبنا؟ أليس للجزيرة العربية أدب في هذا العصر الحديث؟

وإذا كان كل إنسان يعتز بوطنه الذي ولد في مهده، ودرج على أرضه، وشبَّ تحت سمائه، فإني لا أنكر هذا الدافع الذي لا ينكره عليَّ أحد.. ذلك أنني من أبناء شبه الجزيرة العربية، تلك الأرض التي أعتز بانتسابي إليها، وأعيش في صميم حياتها الأدبية المعاصرة، وأقف على مظاهر نشاطها الأدبي، وأعرف كل ما يمثل النشاط ويسجله من أدباء وشعراء، وكتب، وصحف، وأندية، ونحو ذلك، مما قد لا يتاح لغيري من أبناء البلاد العربية الأخرى.

لهذا كله اخترت هذا الإقليم موضوعًا للدراسة الأدبية، ووقفت جهدي ووقتي وكل ما استطيع على التفرغ للكشف عن جوانبه المختلفة(...).

وكان لعملي في تدريس مادة الأدب لطلاب المرحلة الثانوية في مدينة الطائف أكبر الأثر إلى هذا الاتجاه، الذي نشأ بدافع القيام بالواجب الوطني والقومي، ثم تحول إلى إعجاب وعشق لأدب هذا الإقليم.

وقد بدأت بجهدي المتواضع منذ عام ١٣٨٨هـ حيث قدمت إلى المطبعة رسالتي

للماجستير عن «أدب العواد والقرشي» سنة ١٣٩٠هـ.

ثم توّجت إعجابي بأدب هذا الإقليم ببحثي للدكتوراه الذي سجلته عام ١٣٩٢هـ بعنوان «الأدب الحجازي الحديث بين التقليد والتجديد» وقد شمل على توضيح شامل لسائر فنون الأدب الحديث منذ بداية العصر الحديث حتى تاريخ الانتهاء من إعداد هذا البحث ومناقشته سنة ١٣٩٦هـ) - انتهى.

وهكذا ولد الكتاب الضخم الموسوعي وطبيعي أن يأتي موسوعيًا، لأنه الأول في بابه، فبلغ ١٨٠٠ صفحة، رأى المؤلف لدى طبعه أن يخرجه في كتابين الأول - في جزء واحد - بعنوان «إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة»، والثاني - في ثلاثة أجزاء - بالعنوان الأصلي للكتاب. وصدر الكتابان ١٤٠١/ ١٩٨١.

وإذا كانت لهجة الباعث الأول على التأليف غَيْرة ودفاعًا ودعاوة ملحوظة خلال الكتاب، فإن ذلك لم يحل دون الإخلاص في الجمع والاستقصاء والمناقشة، والقدر الممكن من الموضوعية، وقد ربط المؤلف بين الغيرة وسعة الأفق.

ويبقى أدب الحجاز - مع هذا - مجالا للدراسة وإعادة الدراسة في شعبه وتياراته وأعلامه بعد أن استوفى كتاب الدكتور الفوزان عموم الحال.

وواضح أن الشعر هو النوع الغالب السائد، حتى لتعجب أن ترى في أدباء الرعيل الأول من لم يقله، ومن أولئك أحمد سباعي، وليس في سيادة الشعر ما يدعو إلى الاستغراب فهو النوع السائد في الأدب العربي كله، والسائد لدى العرب في نهضتهم الجديدة، مع مفهوم غير صحيح - فيه متابعة لموروث الفترة السابقة - خلاصته أن الشعر هو كلام موزون مقفى وليس هذا بصعب على من رامه، إذا ملك اللغة وعرف العروض - ولم تبدُ (الموهبة) شرطًا أساسًا.

ويلفت النظر كثرة عجيبة من الأدباء، برزوا في الحجاز طليعة أدبية، ومظهر نهضة حديثة، الأسماء كثيرة، تجد أمثلتها البارزة في كتاب «أدب الحجاز»: عبد الوهاب آشي، محمد صبحي، محمد حسن عواد، محمد عمر عرب، محمد صلاح

خليدي، عبد القادر عثمان، محمد سرور الصبان، محمد جميل حسن، حامد كعكي، محمد سعيد العامودي، عثمان قاضي، محمد البياري، محمد علي رضا، عبد الله فدا، محمد شيخ حمدي.

وتبحث عن أكثرهم بعد زمن قليل من تأليف الكتاب فلا تجدهم ولا تجد لهم أثرًا، وإذا أردت الدقة فإن الذين بقوا أدباء والأدب غالب عليه ـ قليلون في طليعتهم محمد حسن عواد، قلت في طليعتهم مع أنه لم يبق إلا محمد سعيد العامودي:

ـ لماذا؟

ـ ليس المفروض بالكثرة من الأدباء ـ في كل عصر، ولا سيما عصور النهضة، وأزمان الموجات الجديدة ـ أن يبقوا أدباء... في الساحة الأدبية.

ثم إن الأدب ـ كما ورد على لسان الأدباء مرارًا ـ حرفة خاسرة، وجدّ في أمور الحياة في الوظيفة الحكومية والعمل التجاري ما يغري، وإلا أين كان يكون محمد سرور الصبان لو بقي أديبًا، ولم يدخل وظائف الدولة والعمل التجاري؟ وقد يكون لتغير الحال من هاشمي إلى سعودي أثر من الآثار.

وأحسب أن من الذين اجتذبتهم التجارة: حامد كعكي ومحمد علي رضا.... وفي الأسماء من يستحيل عليك أن تعرف مكانهم، وكرر كتاب «وحي الصحراء» أسماء وردت في «أدب الحجاز» وزاد، وما أكثر الذين اختفوا من عالم الأدب بين تلك الأسماء، فأين أمين بن عقيل مثلا؟ وأين عمر صيرفي؟ وعبد السلام عمر؟

وآخرون بقوا على علاقة بالأدب ولكنهم إلى البعد أقرب ومنهم أحمد العربي، وعبد الحميد عنبر وعبد الحق نقشبندي وعمر عرب.

ومنهم من بقي والأدب غالب عليه: أحمد سباعي، أحمد قنديل، محمد سعيد العامودي، حسين سرحان، عزيز ضياء، عبد القدوس الأنصاري، وهذه الصلة درجات، وهنا نذكر محمد حسن كتبي، وحسين سراج، وعلي حافظ، محمد

حسن فقي - وستزداد صلته...

وإذا كان «وحي الصحراء» قد تناسى محمد حسن عواد فقد عوضه بمن تناساه «أدب الحجاز»: أحمد إبراهيم الغزاوي.

ولم يرد حمزة شحاتة في الكتابين وهنا لا بد لاستكمال الصورة من الرجوع إلى كتابي عبد السلام طاهر الساسي: «شعراء الحجاز...» و«الشعراء الثلاثة». وفي الذكر والتناسي صورة لما كان بين الأدباء من (حزازات) - لا بأس بدراستها مع دراسة أسباب الظهور والاختفاء، وقد يعود إليها الدكتور الفوزان على وجه من الوضوح والتوضيح.

ونالت نجد حظًا من الدراسة الأكاديمية، فقد حصل محمد عثمان الصالح على الدكتوراه من انكلترة (كلية فتزوليام - جامعة كمبردج) في سبتمبر ١٩٦٦/ ١٣٨٦ بـ «الشعر الحديث في نجد» - منذ بداية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حتى أواخر الخمسينات من هذا القرن الميلادي، ولكن الدكتور الصالح لم ينقل رسالته إلى اللغة العربية.

وأبدى الشيخ محمد بن سعد بن حسين اهتمامًا خاصًا بالأدب الحديث في نجد، فأصدر فيه كتابا بهذا العنوان لا يفي الموضوع حقه من شرائط المنهج العلمي في الدراسة، ولو عاد إلى الموضوع اليوم بعد أن صار دكتورًا، وشرع يتولى نقد الكتب السعودية الصادرة لأخرجه مخرجًا جديدًا.

وأصدر الدكتور عبد الله الحامد: «الشعر في ظلال دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب ١٣٩٩» لم يلبث أن ظهر أنه جزء من كتاب عاد به الدكتور الحامد إلى الميدان العام من بحث الأدب، ودل على مايسوغ هذه النظرة وأوضح في المقدمة مايقنع بصحتها، فقد صدر الكتاب كاملا سنة ١٤٠٢/ ١٩٨١ بعنوان «الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين ١١٥٠ - ١٣٥٠» وقد سار فيه على المنهج العلمي للدراسات الحديثة متمتعًا بأفق واسع.

أما المنطقة الشرقية فقد تولى القيام بدراسة أدبها (ضمن مجموع شرقي الجزيرة) عبد الله علي آل مبارك ـ وهو من أبنائها ـ فحصل ـ من مصر ـ بدراسة الشعر على الماجستير وبدراسة النثر على الدكتوراه.

وتبقى في دراسة المنطقة الشرقية نقطة كانت واضحة في كتاب عبد الرحمن العبيّد «الأدب في الخليج العربي»: طلائع نهضة ونشاط شباب وتجديد... ولكنها فترت وكادت تخمد ـ لماذا؟.

وتسأل عن الجنوب، وفي علمي كتاب جامع عنوانه: «الحياة الفكرية والأدبية في جنوب البلاد السعودية من سنة ١٢٠٠هـ إلى سنة ١٣٥١هـ» درس فيه صاحبه الأستاذ عبد الله بن محمد بن حسين أبو داهش منطقتي تهامة وعسير، وحصل به على الماجستير من جامعة الرياض وصدر عن دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام ـ الرياض ١٤٠٢/١٩٨٢، ٤٢٠ ص.

ولك مع الماجستير والدكتوراه داخل المملكة العربية السعودية في جامعاتها العديد من البحوث في الأدب السعودي... والإقبال في تزايد وما تزال الموضوعات غزيرة وتعد بكرًا...

وطبيعي ألا يقتصر الباحث الأدبي السعودي على أدبه وحده، وهذا ما حدث ورأيناه بدءًا، بالدكتور منصور إبراهيم الحازمي والدكتور أحمد محمد الضبيب، وليس لهذه البداية نهاية... خارجًا وداخلا...

وطبيعي كذلك ألا يكف غير السعوديين ـ ممن تتهيأ لهم الإقامة العلمية في السعودية ـ عن تناول الأدب السعودي أو جوانب تروقهم منه أو تهمهم، وهذا ما حدث ، ولكنه ـ وللأسف ـ لم يجر كما جرى على يد الدكتور بكري شيخ أمين من الاخلاص والدقة والتأني في الحكم، وإنما جاء أقل عمقًا، وأقل انسجامًا، ولك أن تنظر مثلا في كتاب «شعراء السعودية المعاصرون» للدكتور أحمد زكي كمال ـ الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٣/١٩٨٣، وكتابي: «أدباء من السعودية»

و«قراءة في ديوان الشعر السعودي» للدكتور يوسف حسن نوفل، الأول عن دار العلوم، الرياض ١٤٠٣/١٩٨٣ والثاني عن النادي الأدبي في الرياض ١٤٠٢.

وكان الدكتور علي علي مصطفى صبح في كتابه «المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية» - جدة، تهامة ١٤٠٤/١٩٨٤، أكثر إحاطة ومعايشة، ولكنه لم يبلغ ما بلغه الدكتور بكري شيخ أمين أناة وحذراً ونضجًا، وكثيراً ما جازف بالرأي وبالغ في الاستحسان وتكلف المصطلحات الغربية.

وأقبل على الموضوع سوري آخر هو محمود رداوي (مدرس في المدارس الثانوية) أصدر كتابًا وكتابين وفي عزمه الأكثر، والرجل مشكور، ولكنه إذ ملك ما يدل على الإخلاص، فإنه لم يدل على الدرجة التي للدكتور بكري مؤهلات ووسيلة وغاية.

أول كتاب أصدره الأستاذ رداوي عنوانه: «الأدب السعودي المعاصر في الكتب المدرسية» (الرياض، النادي الأدبي بالرياض ١٤٠٣/ ١٩٨٣) وخلاصة الباعث على التأليف يبينها الأستاذ عبد الله بن إدريس - رئيس نادي الرياض الأدبي - إذ يقول في تقديمه للكتاب: (... سلط فيه أضواء ساطعة على التقصير الذي يلقاه الأدب والأدباء السعوديون من واضعي المناهج التعليمية ومؤلفي الكتب).

وقد نص المؤلف في مقدمته على اقتصاره على (الكتب المدرسية للمرحلة الثانوية فقط). إن هذا التقصير - المشار إليه جملة - كان بارزًا جداً منذ أيام الشيخ السباعي، وبارزًا كذلك عندما لاحظه الفوزان... يوم كانت (السعودية) تستورد الكتب المدرسية كما هي... أما بعد ذلك فقد شرعت تؤلفها هي - مستعينة بأساتذة منتدبين، وتزداد حصة السعودي من وضع المناهج التعليمية وتأليف الكتب الدراسية يومًا بعد يوم، كما هو طبيعي، وبعد أن توافر الأساتذة والمربون السعوديون...

وأذكر جيداً أنه في عام ١٣٨٣/١٩٦٣، أعدت وزارة المعارف للثانوية منهجًا جديدًا وكتبًا جديدة كانت حصة الأديب السعودي منها لا بأس بها - وذلك طبيعي

جدًا وقد اشترك في إعداد ذلك مؤلفون سعوديون وأقل ما يعني هذا أن العتب لا يُلقى على (المنتدبين)، ثم لم الشكوى ووزارة المعارف بيد أبنائها؟ والطبيعي جدًا أن تعيد النظر في مناهجها وكتبها من حين إلى آخر، وأزيد أن النصوص السعودية التي وردت في الكتب التي أشرت إليها لم تكن بالمستوى المطلوب، وإني حين اطلعت على الأدب السعودي بدرجة أكبر رأيت ما هو أحسن وأجدر بالاختيار، وقلت ربما تحكمت العجلة ـ باختيار إخواننا السعوديين.

وأحسب أن الملاحظة التي ترد ـ بهذه المناسبة ـ خلو كتب الأقطار العربية من نصوص سعودية، وهذه حال جديرة بالدراسة وبتنفيذ الصائب من الرأي ـ وهي لا تقف عند النصوص السعودية، ومن واجب (المؤتمرات) التعليمية، ومكتب التربية، والجامعة العربية... رعايتها.

ونعود إلى غير السعودي الذي يؤلف في الأدب السعودي، فنذكر بالخير الدكتور نصر محمد عباس (فلسطيني حاصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة الاسكندرية) في كتابه «البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة ـ الرياض، دار العلوم ١٤٠٣/١٩٨٣» وقد دل على متابعة وتأمل في أحدث ما صدر في موضوعه: وبلغ من الانسجام بحيث تحسبه سعوديًا..

إن المتتبع يسره الاهتمام بالأدب السعودي، وهو ليس منطقة محرمة على غير السعوديين، ولكن الذي يكمل سروره أن يخلص الباحث في عمله، وأن يكون مؤهلا، وأن يبعد عن ذهنه فكرة أن هذا بلد تجوز عليه الأشياء، وليس فيه المختصون الذين ضربوا بسهم وافر من العلم والفكر والمنهج.... والتأليف والنقد!.

حصل إذَن، التأليف في الأدب السعودي، وحصل على درجة جيدة مرة على يد منتدبين في السعودية للتدريس، ومرات على يد سعوديين... وقد حدث ذلك منذ السنوات الأخيرة من المدة المحددة التي يقف المعجم عندها (١٣٩٠/١٩٧٠)... فهو دليل تطور قدر ما هو دليل استمرار الفكرة وطبيعية ظهورها... ثم هي بداية لما

هو أعمق وأحسن وأغزر وأكثر تشعبًا وتنقيبًا في الاتجاهات العامة والخاصة، والظواهر والبواطن... والرؤوس والزوايا... مع متابعة ما يجد، والجديد حاصل في كل نوع وفن: الشعر، المقالة، القصة، المسرحية، النقد الأدبي، الدراسة الجامعية... التحقيق... الصحافة...

[الشعر –الشعراء–الشواعر:]

ورأينا الشعر في الحجاز ونجد وغيرهما في طلائعه وتوطده الحديث، حتى صار فيه حمزة شحاتة ومحمد حسن عواد (ويذكر أن ديوانه الذي ألفه سنة ١٩٢٤ باسم: روح الشعر العربي، بقي مخطوطًا) وأحمد قنديل... وحسين سرحان ومحمد حسن فقي. وبقي الشعر في الصدارة إلا أن الذي دخله من تطور كثير، فإذا كان عموم الرواد يعنون بالفكرة أولاً وإن تهيأت لهم اللغة، وقلما عنوا بالصورة وتشددوا في عنصر الموهبة، والذي امتاز منهم قليل، وإنما امتاز لتوافر هذين العنصرين فيه بنسبة تزيد عنها في الآخرين، وفي الآخرين من زوال الشعر وله موهبة له.

وقد تنبه إلى ذلك ـ مبكرًا ـ شعراء في الصدارة وأعربوا عن ضيقهم به لدى وقفة لهم من هذا الكتاب أو ذاك مما صدر في «أدب الحجاز» و«وحي الصحراء» و«شعراء الحجاز في العصر الحديث»، لا حظ ذلك عبد القدوس الأنصاري في «المنهل»، واتضح جيدًا في المقدمة التي تصدرت «شعراء الحجاز» (بقلم الأديب الحجازي حمزة شحاتة) ـ على شك ورد في أنه كاتبها!

جاء فيها: (ومن شعراء هذه المجموعة (...) مستحق الرثاء، ومنهم مستوجب التعزير، حتى يعلن التوبة من رفع عقيرته بمثل هذا الهراء ظنه شعرًا...، وأفسد به ـ أو كاد ـ جو هذه المجموعة...).

وأوضح ما يبدو ذلك على قلم شاعر كاتب ناقد حجازي، هو إبراهيم هاشم فلالي (ولد عام ١٣٢٤) في كتابه «المرصاد».

وإذا كان هذا رأي المتقدمين في معاصرين، فأولى به أن يكون ـ بعد ذلك ـ رأي

من هـم أصغر سنًا وأحدث نشـأة وأكثر تـطورًا في المـفهوم الـشعري خـارج حدود الوزن والقافية.

ثم شرع جيل جديد يـسعى إلى البعد عن المباشرة ويحاربهـا، وربما غالى بالصورة واللامـنطق وضروب مـن الرمزية والـسرياليـة..، ثم غالى فـي الخروج على الـعروض الخليلي (الشعر العمودي) بالشعر الحر، أولئك تأثروا بما ورد إليهم من الأقطار السابقة في الـنهضة في مـصر والشام والمهـجر والعراق. والعـودة إلى التراث الخـالد، وهؤلاء تأثـروا بما اتـصل بـهم مـن الأقطـار الـسابقـة في الجـديد فـي العـراق ومصـر ولبـنان وسورية..، وما يمـكن أن يكون قد تهيـأ لهم الالمام به من لـغة أجنبية أو بلـد أجنبي ـ وهم قـليلون جـدًا، وشمـل الـتأثر فـي هذه المرحلـة، الشرقـية (ولا سيـما القطـيف)، والوسـطى (نجـدًا)... ولا يـصيـب من يـضع هوة بـين الاثـنين فيـتعامـل مع الآخـرين وكأنهم طفرة ومفـاجأة، لأنه يجانب في ذلك الحقيقة الواقـعة ويحسب حياة الأدب في الـسعودية الحديثة أمرًا شاذًا، لم يـجر في تاريـخ طبيعي مـن التطور فـي خطوات الولادة والنمو...

ثم إنه قد يقصد بـرأيه الرفعة من شأن أهل الجديد، وكأنهـم أوجدوا أنفسهم وأتوا بالبديع البدع الذي لم تكن له أرض قبلهم.

لا، وقد سـارت الأمور عـلى مـا يسير فـيه أمـر طبيعي، وكمـا سارت فـي غيـر السعودية ـ بغض النظر عن الأجود والأحسن والمطلوب... وغير المطلوب، وما تريده أنت وما لا تريده ـ .

وقد بحث العرب المحدثون في مصر وغيرها في الخروج ـ لسبب ولآخر، ولصلة بالغرب قليلا أو كثيرًا ـ عن قيود البحور الـتقليدية والقافية الواحدة، فضلا عن الضيق بالأغراض الـقديمة والصنـاعة اللفظـية والمفهوم الـسهل للشـاعرية، وليس هـذا مجال كلام على عـبد الرحمن شكري والديـوان... وأبولو.... والغربال... وجبـران خليل جبـران وأمين الريـحاني... وتـرجمة عـلي أحمـد باكـثير لـشكسبير...ـ والـزهاوي

كذلك ـ فذلك معروف وله مصادره المعروفة، وإنما الذي يقال إنه كان يصل إلى السعودية، وقبل أن تكون السعودية، إلى الحجاز فيتلقفه الشباب ويتأثرون به، ويتأثرون خطاه، فيكون لهم النثر الشعري، ويكون لهم الشعر المنثور..، ولك أن ترجع إلى شعر حمزة شحاتة، ودواوين محمد حسن العواد، والقنديل لترى ذلك، وجاء في الكتاب الفضي للمنهل (ص ٩٠): (المنهل... أول مجلة وطنية أدخلت الشعر المنثور في أعمدتها، فقد نشر أحمد السباعي ومحمد عالم الأفغاني وعبد القدوس الأنصاري (قصائد) من هذا النوع فيها في العامين ١٣٥٨ ـ ١٣٥٩) ـ ولاحظ كلمة (قصائد) وإن جاءت بين قوسين، فللكلمة هنا دلالتها ـ وقد عالجوا الشعر المنثور، دون أن يروا فيه غضاضة ـ ولا بد من ذكر عزيز ضياء، وتسير خطوة طبيعة مع جيل تالٍ لجيل العواد، فترى الشعر الحر لدى حسن عبد الله القرشي، وسعد البواردي، ومقبل العيسى، ومحمد عامر الرميح وعبد الله عبد الوهاب... ومحمد الفهد العيسى... وآخرين ولا ننسى غازي القصيبي، وربما كان ناصر بو حيمد صاحب «قلق» أكثرهم خصوصية، وربما عاد به ذلك إلى تكوينه النفسي وإلى المهام بالمترجمات، ثم إلى إلمام بالألمانية.

قد جرى ذلك كما يجري أي أمر طبيعي، فلا غضاضة شديدة ولا نزاع بمعنى النزاع... وفي حرية ولك أن تقول الشعر في هذا وذاك، كما فعل القرشي ومحمد الفهد العيسى... دلالة على طبيعة المسيرة، ولك أن تقوله حرًا فقط... ولك أن تبقى حيث أنت من الخليل، ويأتي الدارس بعد ذلك ليقرر الظاهرة كما هي (ينظر مثلا: «شعراء نجد المعاصرون» ص ٥٢، ١٠٠، ١٤٥. وينظر الفوزان ٣/-).

ذكرت الحجاز ونجدًا، ونذكر الشرقية، والقطيف خصوصًا، حيث عبد الله علي الخنيزي ومحمد سعيد علي الخنيزي، والحركة المتجددة المتأثرة في أقرب عواملها بالعراق، ويذكر مع العراق: بدر شاكر السياب ونازك الملائكة... ويذكر قبل العراق ومعه، للقطيف ولغيرها: مجلة «الأديب» البيروتية التي فتحت صدرها للشعر الحر وشجعته، ولا غرو فصاحبها صاحب «المن؟» ولم تبق جازان وأبها بمنأى أو منجى.

قلت :لم تـكن غضاضة شديدة، ولم يـكن نزاع بمعنى النزاع... ولـكن لا بد من كلـمة هنا وتـعليق هـناك، وموقف عـند هذا... لـيس غريبًا أن تـقرأ في «شعـراء نجد المعـاصرون»: ص٢٢٩، (عثـمان بن سـيار... معتـقداً أن الشـعر العـربي الحديـث في قوالبه وصيـاغاته ليس شعرًا عربيًا، بل هـو من آثار الاستعمار الغربـي...) مع العلم ان ابن سيـار خريج دار التوحيـد، وكلية الشـريعة (ومفتـش في إدارة الكليات والمعـاهد العلمية (الدينيـة)، ورأينا لدى وقفتنا عند ناصر بو حيمد مـايمكن أن يكون طرفًا لهذا الطـرف. فهكـذا تبدأ الأشيـاء، وهكذا تـتنامـى... حتى تـتباعد الأطـراف، وتتنـافى الثقافات، وتتنـابذ الأذواق..، والشعر في هذا جزء من الحياة العـامة في تطورها وفي الجديد جـدًا، الذي يدخل عليـها مع بقاء لـلقديم جدًا..، وهو يـعمل على استـضافة عناصر جديدة للحياة.

النمط القديم وسمه العمودي (أو شعر الشـطرين..) باق، يستمر أصحابه القدامى عليـه، وفيهم حسـين سرحان ومحمـد حسن فقي وطـاهر زمخشري وحـسين عرب ومحمد عـلي السنوسي وعبـد الله بن خميـس وعبد الله بن إدريس... ويـصدر عبد اللـه الفيـصل ديوانًا جديـدًا ويعيـد طبع ديـوان قديم، وتصدر دواويـن جديدة لمحـمد سليمان الـشبل، ومحـمد إبراهـيم جدع، ومـحمد سـعد المشعـان، ومحمـد سراج خـــراز[1]، وزاهر عواض الألمعي وعبدالله الحـميد، وعبد اللـه جبر، ومحمد الـعيد الخطـراوي وأسامة عبـد الرحمـن... (وأصدر عبد الـله بن إدريـس أخيرًا ديوانـه: في زورقي في ١٤٠٤/١٩٨٤...). وآخرون وآخرون، وفيهم شباب ينشرون قصائدهم في المجلات والجرائد، وهي ـ أي المجلات والجرائد ـ أكثر فـسحًا للمجال إزاءهم منها إزاء أهل الشعر الحر.

ويبقـى آخرون بين بين: حـسن عبد الـله القرشي، مـحمد الفـهد العيـسى، غازي القصيبي، مـاجد الحسيني، محمد هاشم رشـيد.... يهمون بالجديد فينـظمون عليه،

---

(١) ولد بمكة سنة ١٣٣٩ وتعلم بها وعين مدرساً في المعهد السعودي ثم مديراً لتحضير البعثات له ديوان «غناء وشجن» صدر عام ١٣٩٧، توفي في ١٣/٥/١٤٠٧هـ .

ويجتذبهم القديم فيعودون إليه.

[الشعر الحر]

وإذا كان الجديد - وسمه الشعر الحر، أو شعر التفعيلة - وقد وجد موضع قدم زاد الزمن من تثبيتها، ونشأ فيه جيل جديد لم يكن ليشده إلى القديم الذي شد جيل القرشي، وربما حسب في النمط الجديد ما (ينتقم) به لنفسه بوجه من الوجوه، فيميزه ويمهد طريقه ويقول فيه ما يفهمه هو وأصحابه ولا يدركه الآخرون... إذا كان ذاك، ويذكرنا، ازدياد نفوذ ما يرد من البلاد العربية شعرًا ورأيًا، وفي الشعراء أمثال: السياب، نازك الملائكة... صلاح عبد الصبور.. أدونيس... محمد الماغوط، ومن هو أحدث منهم وأكثر تطرفًا، أكثر حرية في الشعر الحر، وأكثر نثرية في قصيدة النثر، إذا كان ذاك فلا نستغرب ما شرع يسود أوساط الشباب في نمط الشعر - بعد جيل القرشي والفهد العيسى والقصيبي ممن بقي فيهم كثير من النفس التقليدي، وبعد الرميح وأبو حيمد اللذين ابتعدا أكثر من التقليدي، واقتربا أكثر من الحر... - ومنذ سبعينات القرن الميلادي وتسعينات القرن الهجري من جديد جديد.

وخلاصة شعرهم هموم لا تفصح عن نفسها بالصراحة والوضوح، لأن هذا الشعر يقوم على الإيحاء وخلق الجو النفسي العام، ولأن الصراحة قد توجب لهم من الأذى ما لا يريدون أن يقعوا فيه، وهكذا لجأوا - عن قصد وعن غير قصد، بحكم الفن الشعري والواقع الاجتماعي - إلى عرض الواقع حلمًا.. وإذا كانت كلمة (عرض) غير مناسبة قلنا: بث، وإذابة، وتسريب... وما أشبه، أما الشكل المفضل - والوحيد الذي لا ثاني له - فهو: الحر، وأما الصفة المفضلة لديهم فهي الحداثة والمعاصرة والجدة... ولا يبقى الحر ملتزمًا - دائمًا للتفعيلة، فالأكثر جدة ما زايلها إلى الإيقاع في مطلق مدلوله.

ويسير هذا النمط قُدُمًا، ويتثبت قَدَمًا، فيكثر أصحابه وقل تكثر أصواته، وتعلو وتعمق، والعوامل هي هي، مع زيادة الإحساس بوقعها، الإحساس بضرورة النمط

وحيدًا، والإحساس بالضيق الذي لا منفذ منه، ولا بد من النفاذ والخلاص، وإذا كان الأمر كذلك جاء الشعر على حظ من الغموض - والأمر صار معروفًا - ولكنه الغموض الحي المحاط بالمشاعر والأفكار، المتأزم في حالة النفس، وليس الغموض الذي اختير لذاته، متابعة لموجة الغموض في العالم العربي - والعالم كله - لكي يصف أصحابه نفوسهم بالجديد وبالمجددين، يريدون أنه غموض محكوم بالفن ممتزجًا بالأسباب والدواعي الموضوعية، ولكن الغموض الحقيقي قد يجر إلى ماهو أكثر غموضًا وأقل حقيقة.

ويحرص الشباب - بحكم الظروف الاجتماعية -في الأقل - أن يتسلحوا بقسط من الحكمة والتأني، وأن يتعدوا - قدر الإمكان - عن الانفعال والاستفزاز، وكأن لهم من ثقتهم بنفسهم وبفنهم ما يضمن.لهم حقهم ويهيئ لهم مكانتهم، ومن حكمتهم احترام التراث الشعري، وعده في الرائع من الآثار، واحترامهم الشيوخ ومن هم أكبر سنًا منهم - متابعة للتقاليد في الأقل - وأنهم لا ينكرون فضل رواد النهضة الحديثة في الأدب، فيذكرونهم بالخير، ويحفظون لهم ما عانوا وما ثبتوا وما جددوا في حدود ظروفهم وزمانهم، وإمكانات الاتصال لديهم..، وأكثر ما يخصون بالذكر أولئك الذين عُرفوا بالتحرر أكثر من سواهم، وهنا يتقدم اسم محمد حسن عواد فيما دعا إليه من تجديد في الأدب والفكر، وفيما أخذه على نفسه من رعاية الشباب والتنويه بآثارهم، وفيما زاوله من أنماط الشعر بحيث لم يقتصر على العمودي الموحد القافية، فكان له شعر منثور، وكان ما رأوا فيه مقدمة المقدمة من تاريخ الشعر الحر، ثم إنهم لا يلزمون الشباب كلَّهم بنمطهم، وفي الشباب في أعمارهم من يلتزم العمود وزنًا وقافية، فينشر في الصحف يصدر الدواوين ويجد الطريق إزاءه ممهدة.

هذا الموقف ضرب من الاتزان يحفظ لهم، ولكنه لا يمنع البدوات الفردية، والتطرف الخاص لدى جدال ولدى مقابلة الانفعال بالانفعال... ولدى اتخاذ الحماسة للنمط الجديد مادة لتقوية الشخصية وسندًا لاحتلال مكانة... ثم يدخل الشعر في نمط أكثر جدة لديه، ترك التفعيلة، والاعتماد على الإيقاع..، ثم الوقوع في

النثرية لدى التطرف، البدوات تحصل، ولكن الأناة حاصلة، مطلوبة حتى لو نبتت على مَضض.ومن عوامل المضض أن يستهين بهم الآخرون، وأن يسدوا ـ أو ألا يفتحوا ـ في وجوههم أبواب النشر في المجلات والمساعدات على النشر...

ولا بأس فهم يبحثون عن منافذ خاصة بهم، ولا يعدمون إيجادها، وكانت هذه المنافذ الصفحات الأدبية من الجرائد اليومية وبعض المجلات الأسبوعية خاصة... وبعض دور النشر.

ثم جمع المتيسر من القصائد وإصداره ـ بأية وسيلة ممكنة ـ في ديوان (صغير عادة)، وهكذا نبدأ أكثر الدعوات الطليعية، وربما كانت (دار العلوم) متميزة في العناية بالشباب، وكأنها تريد أن تعد دارًا طليعية كذلك...

والشعراء الجدد هم (المنظَّرون) لشعرهم: فهم الذين يتحدثون عنه، وينقدون الصادر منه في الديوان، ومن ثم يولد الناقد الخاص به العارف بأسراره وأسرار أقلامه، أما السيادة والبقاء فأمرهما موكول بالمواهب الصحيحة والشاعرية الحقيقية، ومدى استيعاب الزمن الحاضر بما يحفظ جوهر الخلود في المستقبل..، المسألة مسألة زمن، وليست مسألة نزاع انفعالي، تتقاذف فيه الأطراف التهم إلى درجة الاختلاق والافتيات والظلم والباطل، وما أكثر الحركات الطليعية في العالم ـ ومنها ما كان في العالم العربي على مدى عمره الطويل قديمًا وحديثًا ـ ولكن الحركة شيء وأن بقاءها شيء آخر ـ والبقاء ـ كما هو معلوم ـ للصالح، ويحضرني ـ هنا ـ رأي لباحث مصري لا يبدو عليه الرضا عن الشعر الحر، هو الدكتور إبراهيم أنيس، وقد قال في كتابه «موسيقى الشعر» (ط٤، ١٩٧٢) ص ٣٤٤: (أما الصراع القائم الآن بين أصحاب الشعر التقليدي وبين أصحاب الشعر الحر، فهو حين يحسن الظن به يمثل في رأيي حيوية بين الأدباء المعاصرين، أو إن شئت قلت اختلاف العقلية بين جيلين: جيل الشيوخ وجيل الشباب، ومع قدر من السماحة وسعة الصدر يجدر بنا الا نحجر على شباب الشعراء، أو أن نلزمهم باتباع النظام التقليدي المألوف وترسم

خطاه، فقد نصيب خيرًا لأدبنا العربي من وراء ثورتهم إن كان بها خيرا!).

وقال (ص ٣٥٤): (لا داعي إذن لإثارة النعرة القومية، حين يناقش هذا الشعر الحر ولا مبرر للحديث عن تراثنا الأدبي والحفاظ عليه، فسيظل بين يدي الراغبين فيه والمؤثرين له، أو على الأقل بين يدي الدارسين لعصور الأدب المختلفة، فلنترك أصحاب الشعر الحر وشأنهم، ينظمون كما تشاء أهواؤهم ونزعاتهم، فالحكم الفيصل هو جمهور الشعر من الناس قرائهم وسامعيهم).

هذا ما يقال أو يمكن أن يقال، ولكن الذي يقع ـ عادة ـ غيره، يبدأ قليلا ثم يزداد، يبدأ لينًا ثم يشتد، وربما بدأ بالتسهل والتجاهل، وانتهى بالخصام والصراع، وكأن لا معدى عن ذلك وإن اختلفت الدرجة واختلف المظهر.

وإذا كان التجديد في الصياغة قد مر ـ في الخطوات السابقة التي رأيناها ـ من غير ضجيج ومن غير استفزاز للآخرين، وقل من غير نزاع مفتوح، أو صراع بمعنى الكلمة، فإنه وقد بلغ هذه الدرجة وتعداها وصار كيانًا ذا شأن، وربما هدد كيانًا آخر، غير ما يستفز ومن يستفز بحسن نية وألفة ذوق معين..، إنه وقد بلغ هذه الدرجة أذن بصراع، وتميزت أطراف وأوساط بين هذا وهذا وقال شيخ يؤثر أن يبقى محبوبًا بمؤهلاته وتاريخه وفكره، وهو جدير بذلك حائز عليه، هو الشيخ حمد الجاسر وقد سئل في مطلع عام ١٤٠٤/ وختام ١٩٨٣: سأل السائل قائلا: ما زال الشعر الحديث في المملكة غير معترف به تقريبًا... ما تعليقكم؟

فأجاب المجيب قائلا: أولا يلاحظ أن ما يسمونه بالشعر الحديث هو نوع من النثر، يصح أن يسمى النثر الفني خاصة إذا كان مفهومًا وصادرًا عن تأثر عاطفي.

وألح السائل فزاد: الدول الأوروبية قبلت التطور في شعرها وأصبح لديها شعراء عالميون معروفون في كل العالم.. فلماذا لا نقبله نحن؟

فأثار ذلك الشيخ فأوضح: ياسيدي.. الشعر هو ما هزك وأثر في نفسك وحرك أوتار قلبك سواء أكان على بحور الخليل أو بحور أخرى... (...) أنا أقرأ أشياء من هذا النوع

الذي يسمونه شعرًا لا أحس أي أثر عند قراءته.، إذن لماذا تجعلني اسميه شعرًا... أنا أسميه نثرًا.، والغريب أن هذا النوع يعمد أصحابه إلى المبالغة في التعمية والرمزية.. ـ «العرب» ج ٩ و ١٠ س ١٨ ـ الربيعان ١٤٠٤/ كانون ١و٢، ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ جزء خاص بجائزة الدولة للأدب، ص ٧٦٧، وفي صيغة السؤال ما يدل على شعور الشباب بالاهمال الذي يعانونه، ويلمح إلى الطريق المسدود في وجوههم!.

وفي هذه السطور خلاصة لعالم قائم فيه طرفان، وبين الطرفين صراع والصراع طبيعي، وقد يجدي إذا كان مخلصًا، ووقف عند الحدود الفنية، أما مسألة الاسم فليست مهمة جدًا، وأخطر ما فيه أن يخرج إلى ضرب من العداوة البدائية فتكال فيه التهم جزافًا من كل نوع لا علاقة له بصميم الموضوع.

ويمكن أن نجد مزيدًا من الدلالة في كتاب لأحمد فرح عقيلان[1]، صدر عن نادي أبها ١٤٠٣/ ١٩٨٢ بعنوان: «جناية الشعر الحر» ـ ١١٥ ص. يبدأ المؤلف كتابه قائلا في المقدمة: (أعترف أني أكتب هذه الورقات وأنا ثائر منفعل، يكاد يسطو بي الكمد ويكاد يقتلني الغضب.. وكيف لا أغضب (...) والجناة مصممون على المضي في تخطيطهم الفظيع الظالم باملاء من الشياطين وإيحاء من الحاقدين) ـ تنظر مجلة «عالم الكتب» المجلد الرابع، العدد الثاني، شوال ١٤٠٣/ يوليو ١٩٨٣، ص ٢٩٣.

والذي جرى في السعودية جرى قبله في مصر وفي العراق..، والطبيعة واحدة، والموقف واحد، وأجرت إحدى الإذاعات مقابلة مع الحربي فأشار إلى بداية تأثره بشعراء الشعر الحر في العراق ومصر وسورية: السياب، الملائكة، سعدي يوسف ـ وربما ذكر البياتي.، صلاح عبد الصبور، أدونيس... وألمح إلى أن هذا كان في البداية يريد أن يقول ما قاله الآخرون في العراق وغيره، بأنه وجد شخصيته بعدهم وجرى في الشوط جريًا خاصًا، حتى عاد ديوانه الأول قديمًا قياسًا إلى ديوانه الذي تحت الطبع...

وفي الموجة من هو مثله... ومن هو أكثر تطرفًا.. ومعاصرة... وطليعية...

(١) توفي في شوال ١٤١٧هـ.

وأعرف في زملائي المصريين في الدراسة (بالقاهرة): أحمد كمال زكي، أعرفه وأذكره هنا لأني عرفت فيه (عامي ١٩٤٧، ١٩٤٨) تلميذًا جامعيًا (متمردًا) يهيم بالجديد، ويزاول الشعر الحر في نجاح وإبداع، ثم تخرج وصار استاذًا... وزاول النقد الأدبي نظريًا وعمليًا جامعيًا وصحفيًا، وطبيعي أن يبقى التحرر في مكونات شخصيته، وقد بقي... ولكن ما رأيك إذا رأيت الأستاذ الدكتور أحمد كمال زكي - وهو مقيم في السعودية منتدبًا لعدة سنوات بجامعة الرياض أستاذًا وناقدًا في الصحافة السعودية... مارأيك إذا رأيته يستشيط غضبًا على جديد (يصدمه) به الشعراء الشباب في السعودية فيبدو في استشاطته وكأنه على الطرف الأقصى في (الرجعية) وأيد قوله بالشاهد والمثل - ينظر ذلك في «الفيصل»، عدد رجب ١٤٠٤/ نيسان (إبريل) ١٩٨٤. وليست الفيصل بعيدة عن الشباب.

كان ذلك في مقال له بعنوان: مستقبل الشعر الجديد. وفيه ممن أدخلهم في جيل السبعينات من السعوديين: صالح الشهوان، وسعد الحميدين، وعبد الله الصيخان، وعبد الرحمن العشماوي، ومحمد الثبيتي، وعلي العسيري وهؤلاء جيل ما بعد جيل غازي القصيبي خارج القصيدة التقليدية بكل همومها وتحدياتها.

ومضى يذكر أمثلة ويعلق عليها بما فيها من (ركاكة واضحة، وجنوح إلى النثرية) مع كلمات أخرى مثل التسطيح والسفسطة...

هذا ما لم أكن أتصوره - حتى لدى متابعة الشباب في سوء ظنهم بدوافع الناقد المصري، لقد تصورت التطور، ولكني لم أتصور الدرجة، ولا بد من أن أكون على خطإ، أو أن الأمر يعزى إلى بعد عن (مواقع الأحداث).

ولست منتصرًا - هنا - للشاعر أو للناقد، ولكني مؤرخ يستكمل لمحات وردت في معجم المطبوعات...

الذي جرى للشعر السعودي في هذا المجال كثير وسريع وقد رأينا في تاريخه وشعرائه ودواوينه ما يدل على الكثرة والسرعة... وكنت في حدود علمي - وصلتي

وقربي - من التاريخ الحديث للشعر السعودي بدءًا بروّاد في الحجاز قبل جمع أقطار الجزيرة باسم (السعودية) وفيهم من ذكرنا من أمر العواد وشحاتة والقنديل... إلخ ومتابعة لتطوره في الحجاز ونجد والشرقية وجازان وأبها... وفي ذلك من ذكرنا من أمر القرشي والفهد العيسى والقصيبي... ومن وقفنا عنده باسم أبو حيمد...؛ كنت انتظر التطور إبداعًا وأصالة، وانتظر مكانًا خاصًا للشعر الحر... ولكني، وقد فارقت السعودية نحوًا من خمسة عشر عامًا، لم انقطع خلالها انقطاعًا تامًا عن متابعة الحركة الأدبية...؛ كنت انتظر تطورًا... ولكن الذي حدث خلال خمسة عشر عامًا كان أكثر كثيرًا من مدى انتظاري، ويكفي أن يكون جيل كامل قد ولد، له همومه ومفاهيمه في الحياة والفكر، وله نمطه في الإعراب عن تلك الهموم والمفهومات في شكل يراه هو الشعر، ويراه الشعر الجديد، ويرى قصيدته هي القصيدة الجديدة..

وإذا كان هذا حالي... فلا عجب أن يكون حال البعدين جدًا عن السعودية وشعرها حال دهشة وتعجب... ومفاجأة... أيكون هذا في السعودية؟! أهؤلاء سعوديون؟!...

وتفجرت المفاجأة في بغداد حيث عقد (مهرجان الأمة لشعراء الشباب) من الحادي والعشرين وحتى التاسع والعشرين من نيسان ١٩٨٤/ شعبان ١٤٠٤، فالتقى الشعراء من كل قطر من أقطار العالم العربي، ما بين المحيط إلى الخليج، وتتابعوا يلقون بثمراتهم، وألقى شباب من السعودية - فيمن ألقى - فكانت قصائدهم محط اهتمام ومدار حديث... ومثار دهشة، أيكون هذا في السعودية، أيكون هؤلاء سعوديين؟ وحكم لهم بالتجويد و(التفوق) نقاد المهرجان، وفيهم الشباب والكهول من أقطار مختلفة، وخرج الحكم مصحوبًا بالدهشة عن جدران المهرجان إلى أعمدة الصحف...

دهشوا لأنهم لم يكن لهم علم بالمسيرة الأدبية في السعودية، أو اتصال بالفكر الأدبي منذ نهضته الأولى في الحجاز، ولم يقرءوا لأديب رائد هو محمد حسن عواد في شعره وأفكاره... (ونزواته) ويصلوا في قراءاتهم إلى الرميح وبوحيمد، أما أنا فما بلغت بي الدهشة ما بلغته في الآخرين لما لديَّ من مقدمات، ولأني منتظر التطور في

كل مجال: في الشعر العمودي (ذي الشطرين) كما في الشعر الحر (ذي التفعيلة)، ولم أستبعد قصيدة النثر، وكل ما في أمري أن الذي رأيته ـ وسمعته ـ جاء أبعد من تصوري زمانًا ومكانًا، كمًّا وكيفًا، وليكن، والأمر طبيعي.

وتحدَّث ناقد عراقي شاب هو الأستاذ حاتم الصكر[1]، العارف بالشعر الشاب خصوصًا المتصل بالشعراء الشباب كثيرًا، العامل عضوًا فعّالا في اللجنة التي تولت إقامة المهرجان والإعداد له والسفر إلى الخليج العربي لدعوة شعرائه..، تحدث في العدد السابع من مجلة «الأقلام» (تموز ١٩٨٤) فقال ـ فيما قال: (... كان شعراء السعودية مُفاجأة المهرجان بحق، فالصيخان ومحمد [جبر] الحربي ومحمد الثبيتي قدّموا صُورًا لوعي شعري ينمو بعيدًا عن الضجيج، مكتوبًا بالتجربة، طالعًا من أعماق الأرض، جديدًا يتوفر على أفضل ما في الشعر الحديث من مزايا وسمات...).

وبلغ الاهتمام والإعجاب بالأستاذ الصكر ـ وهو سكرتير تحرير مجلة «الأقلام» ـ أن توجه نحو السعودية توجهًا خاصًا، فعاشر الشعراء وحاورهم وحصل على قصائد من شعرهم ليؤلف ملف العدد الثامن من المجلة خاصًا بـ (القصيدة الجديدة في السعودية) (مجلة «الأقلام» ـ آب ١٩٨٤، ص ١٦٦ ـ ١٦٠ حجم كبير) وجعل عنوان كلمته التي قدم بها الملف: (شعر مسكون بالحلم والدهشة) ثم قال: (يكاد القارئ في أغلب أقطار الوطن العربي يجهل تفصيلات الحركة الجديدة في الجزيرة العربية (...) سعة في المكان.. وحركة في الصحافة.. أجيال متعددة وأصوات أكثر تعددًا وتنوعًا.. ولكن المفاجأة الحقيقية: الشباب.

هذا هو الانطباع الذي تخرج به خلال إقامتك قريبًا من نبض الحركة الشعرية.. ومعايشتك لتفاصيل حياتها..

---

(١) الصكر = الصقر، ولكن نطق القاف يختلف، ففي العراق- كما في المملكة- تنطق قريبة من مخرج الكاف فيكتبها إخواننا العراقيون كافاً، وفي الخليج العربي تنطق جيماً (قاسم) : (جاسم) أو (العنقرى): (العنجري)، وفي مصر قد تبدل همزة (قال):(آل) والاختلاف هذا قديم أشار إليه ابن دريد في مقدمة «جمهرة اللغة».

شباب مهمومون بالحداثة.. متطلعون إلى قصيدة معاصرة، تتمثل أبرز التيارات الشعرية العربية، وتنتمي إلى الأصالة الواضحة في اللغة والبناء.. وتتجه إلى الإنسان مستلهمة وموحية.

هنا: لا مغامرة لغوية تستهويهم فيريقون من أجل بريقها، مياه الشعر في غير مصبَّاتها... ولا تشدهم الأناقة الكلاسيكية والمنابر فيحولون قصائدهم حداءً وإنشادًا(...)

أبرز ما يجتذب الشباب هنا: قصيدة الحلم...) - انتهى.

ولي تعليق - أو توضيح - على (الحلم)، خلاصته أن القصائد التي قالها - ويقولها - الشباب ليست حلمًا بالمعنى المعروف للحلم، مما يراود الإنسان نائمًا، أو ما يقدمه الشاعر على أنه من العقل اللاواعي، أو أنه طلب المستحيل من المستقبل منفصلا عن الممكن في الحاضر، لأنهم جادون - واقعيون - يعربون عن همومهم الصغرى والكبرى بلغة الحلم وصور العقل الباطن، لضرورة من ضرورات هذا التعبير، عما يعتمل في نفوسهم ويصطرع في أفكارهم، ليأتي كلامهم وعليه مسحة من الغموض ونبرة من الرمز... الموحي إن جهله - أو تجاهله - البعيدون عنهم - عرفه أو أحسَّه القريبون منهم - وكما كان شعراء شباب، كانت شواعر شواب.

وتحدث في (الملف) صالح الأشقر (من السعودية - مواليد حائل ١٣٧٠) عن أجيال الشعر في السعودية: الأول... الثاني... الثالث، وكأن الثالث لديه (جيل ما بعد احتلال فلسطين، الذين ترعرعوا على الشعر السياسي، وامتدادًا إلى النكسة ٦٧)، وكان أكثرهم شبابًا محمد العلي وأحمد الصالح (مسافر). (وهذان الشاعران اختارا الشعر الحر خلافًا لمعاصريهم مثل محمد المشعان، وإبراهيم الزيد، ويمكن أن يضم إليهم الشاعر سعد الحميدين وديوانه (رسوم على الحائط)...).

وقال: (ويمكن أن نضع (...) محمد العلي وأحمد الصالح (مسافر) كتجربتين سابقتين زمنيًا ضمن الأصوات التي حاولت أن تزف الأصوات الشعرية الجديدة إلى عالم التجديد والحداثة، وتعتبر الشاعرة فوزية أبو خالد في ديوانها «إلى متى

يختطفونك ليلة العرس» الذي طبع في بيروت قبل (١٥) سنة من الأصوات الجميلة في مسيرة الحداثة...).

ثم يمضي في مَسيرة الحداثة وما يذكر من أسماء شعرائها، وكأنه يريد بهم أصحاب القصيدة الجديدة الفعليين، وكأنهم جيل رابع بعد الثالث وإن لم ينص على (الرابع) وهذه هي الأسماء أو (بقية الأصوات الجديدة) كما قال: (عبد الكريم العودة. جار الله الحميد. محمد الدميني. علي الدميني. محمد عبيد الحربي. غيداء المنفى. أحمد فقيه. عبد الإله البابطين. عبد الله الزيد. خديجة العمري. عبد العزيز سعد العجلان. أحمد الملا. عبد الله الصيخان. محمد [جبر] الحربي. محمد الثبيتي... وأسماء أخرى كثيرة).

وأعود مرة أخرى وأكرر أني على ما حسبت نفسي عارفًا بمسيرة الشعر السعودي لم أكن أنتظر هذا التغير على هذه الدرجة، والتطور على هذا العدد، وقد تعني الحال توافر الفرص للشباب في أن يقرأوا ويفكروا ويناقشوا ويتابعوا ويتأملوا وينظموا، وينشروا، رغم ما يند عنهم من شكوى الضيق أو النقيق، وإذا كانوا قد تأثروا بالشعر العربي الجديد فإنهم ليختلفون عنهم بالعوامل الدافعة إلى القول وما تؤدي هذه العوامل إليه من أجواء خاصة بمقدار ما يختلف مجتمع عن مجتمع وبمقدار ما يمنحه الجد والإخلاص من سمات القوة والأصالة ويبقى هذا التمييز ما بقيت الفوارق وبقي الشعراء صادقين لا ينفصم المضمون لديهم عن الشكل.

وطبيعي أن يحصل صراع بين الأجيال بدرجات متفاوتة، إلا أنني رأيت على شهادات الشعراء التي أوردوها في (الملف) وعلى شهادة أدلى بها محمد جبر الحربي من إحدى الإذاعات ما يشير إلى تأن ونضج في الرأي الفني والاجتماعي ووعي للمهمة الأدبية والاجتماعية؛ ولقد ذكروا اللغة والتراث بتقدير، وبدوا من التواضع بحيث عدوا أنفسهم في دور التجربة ـ وأرجو أن تكون رؤيتي صحيحة، وأن يكون الشباب في حملتهم -على الأقل- من النضج حيث بدوا، وأن يطيلوا الوقفة في دور التجربة من أجل اختمار أكثر وتهيؤ مواهب أعمق، والحذار الحذار من السرعة والغرور!!.

ثم... توالت القصائد... في الملف... عبد الله الصيخان، محمد [جبر] الحربي، محمد الثبيتي، خديجة العمري، عبد الإله البابطين، عبد الكريم العودة، عبد العزيز سعد العجلان.

وإذا كانوا قد تأثروا برواد الحركة من الأقطار العربية (العراق، مصر، سورية، لبنان....) وقد تأثروا فعلا واعترافًا وحتمًا... فإنهم اجتازوا مرحلة التقليد وبدءوا مرحلة التميز والأصالة ومن هنا جاءت المفاجأة والدهشة من وجودهم، فلقد تقدموا... وتأخر الآخرون، تقدموا بما لديهم من جد وإخلاص وطموح وظروف، وتأخر الآخرون إذ استحال الجديد لديهم قواقع جوفاء وألفاظًا وشكلا...وتعاورته أقلام لا تسندها موهبة واحتوته ألفاظ لا طائل تحتها وشجعته مآرب لا يهمها الأدب، وكأنهم فقدوا المضمون، أو اجتنبوه إلى حيث مضمون غيرهم.

ويبقى، بعد ذلك، الاحتياط في الحكم بما يتعد به التعميم عن التخصيص، والقاعدة عن الشاذ ولا - ولن - تعدم في الشباب من يتطرف، ومن يقع - عاجلا أو آجلا - في فخ عد التجديد غاية بنفسه - ولكننا رأينا الوجه الحسي المطلوب المرضي، وبه العبرة والعظة.

ولهؤلاء الشباب من (الدواوين) مالا يغفله غدًا معجم للمطبوعات - رضي صاحبه عنهم أم لم يرض - ولا يستغني عنها معجمنا من الإلماح إليها في خاتمته، ومن ذلك: أحمد صالح الصالح (مسافر) - مواليد عنيزة ١٣٦١ وله: «عندما يسقط العراف» ١٣٩٨، «قصائد من زمن السفر» ١٤٠١/١٩٨١، «انتفضي أيتها المليحة» ١٤٠٣/١٩٨٣.

سعد الحميدين (مواليد ١٣٦٧): «رسوم على الحائط» ١٣٩٧/١٩٧٧، ويعد للطبع «عندما بانت سعاد».

محمد جبر الحربي (الطائف ١٣٧٦): «بين الصمت والجنون» ١٤٠٤/١٩٨٤، وديوان تحت الطبع.

محمد الثبيتي وله مجموعتان هما: «عاشقة الزمن الوردي»، و«تهيجت حلما.. تهيجت وهما».

ومنهم من له (ديوان) تحت الطبع أو في طريقه إلى الصدور، ولعله صدر فعلا، ومن أولئك: عبد الله حمد الصيخان (حائل ١٣٧٥) في ديوان: «الهجرة من الغرفة المائية» وصالح الشهوان (عنيزة ١٣٧٣) في ديوان «كذب الراوي».

ولنلاحظ في (جغرافية) الشعراء الشباب اختفاء السمة العائدة إلى المنطقة من بقايا أول توحيد أقطار المملكة، يوم كانت أقطارًا متباعدة فظلت مع أدبائها نسبة إلى الحجاز أو نجد أو الأحساء أو عسير... أما هؤلاء الشباب فهم من (السعودية) وزحفت معهم (مدن) جديدة على الخارطة الأدبية لم تكن لها هذه الأهمية مثل أبها وحائل...

ويمكن أن يقال في الشواعر ما قيل في الشعراء؛ وفي الشواب ما قيل في الشباب، وفيهن من نظمن - وينظمن - على النمط التقليدي (العمودي - ذي الشطرين)، وقد رأينا منهن (نداء) في «عبير الصحراء» وهي شاعرة حقًا ولا نقاش، ونداء اسم مستعار حقيقته سلطانة عبد العزيز السديري (مواليد القريات بالمنطقة الشمالية) ولها ديوان آخر هو: «عيناي فداك» ١٩٦٠، ودخلت ثريا قابل بديوانها «الأوزان الباكية» الميدان مصحوبة بجدال لم يكن في مصلحة شاعريتها، وهي تعد اليوم «تلك ظلالي»، ولريم الصحراء ديوان «زهرة حنان»، وريم الصحراء اسم مستعار حقيقته: الجوهرة العلي (ولها ديوان تحت الطبع باسم «وعد القمر»).

ثم صدر للدكتورة مريم البغدادي ديوان باسم «عواطف إنسانية»، وتنشر «المنهل» لأميمة خوجة قصائد رقيقة عاطفية تدخل في نطاق الشعر الحق.

ومن الشواعر الشواب من قالت شعرًا حرًا شأن الشباب، وقد رأينا فوزية أبو خالد (مواليد الرياض ١٩٥٥) وديوانها المطبوع في بيروت: «إلى متى يختطفونك ليلة العرس» وتعد للطبع ديوانًا آخر باسم «اشهد الوطن»، كما رأينا غيداء المنفى وخديجة العمري.

ويذكر «دليل الكاتب السعودي» سارة أبو حيمد (سارة سليمان إبراهيم أبو حيمد (مواليد الخبر ١٣٦٣) ويذكر في مشاركتها الأدبية: شعر حر؛ (إنها أخت ناصر سليمان بو حيمد الذي رأينا مكانه البارز في مراحل الشعر الحر).

ويذكر «الدليل» عزة فؤاد شاكر (مواليد مكة ١٣٦٥) وديوانها «أشرعة الليل» من الشعر الحديث ١٣٩٧، وذكر الاسم - أو الأسماء - ليس حكما بالجودة.

ولا بد من وجود أخريات.. وتنشر «المنهل» في باب (الشعر المنثور)، ومن الأسماء المتكررة فيه: نجوى صلاح الغرباوي.

ومما يمكن أن يدخل في باب ما يلفت النظر أن المنهل (رجب ١٤٠٤/ إبريل ١٩٨٤) تلقت اعتراضاً شديداً على تسميته (الشعر المنثور) من كاتب (أحمد محمود مبارك) يرتضي الشعر الحر ويقول: (الشعر الحر تطور شكلي للشعر العربي العمودي (...) إن رواد الشعر الحر (...) أخذوا تفعيلات الشعر الحر الموسيقية من تفعيلات الشعر العمودي التي تكون بحور الشعر الستة عشر المعروفة).

وكان «المنهل» أقرب إلى تأييد المعترض على «الشعر المنثور» أو كمن يريد أن يرضيه ولو على غير قناعة.

ووجه الغرابة في الموضوع أن «المنهل» الأولى كانت تفخر - وقد رأينا ذلك - على لسان مؤسسها الشيخ عبد القدوس الأنصاري بالشعر المنثور!.

وغرابة أخرى ليست عجيبة من صاحبها، وصاحبها الشيخ الكبير - مكاناً وعمراً - أحمد سباعي، وقد سئل في السنة الأخيرة من عمره: (يقال: إنكم من مؤيدي الشعر الحر المنثور؟) فأجاب: (نعم كنت من المؤيدين له ولا أزال. وأذكر أن الأستاذ محمد حسن عواد (...) كان أول من قال هذا اللون من الشعر المنثور في السعودية، وقد وقفت بجانبه ضد من تصدى له بالنقد، ورأيي أن الشعر الجديد طالما أنه موزون وفيه موسيقى فلا بد أن يأخذ مكانه من الساحة الأدبية، أما محاربة البعض للشعر الحديث فإن المجتمع العربي درج على محاربة كل جديد، ويعتبر الجديد بدعة، والبدعة

تستنكر دائمًا، بالطبع أنا لا أنكر أن هناك أشياء في الشعر الحديث لا مكان لها من الإعراب، ولا ينبغي أن تكون وهي أشياء ليست من الشعر) ـ تنظر «العرب» الربيعان ١٤٠٤/ كانون ١، ٢ ـ ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤.

الشعراء الذين يرون أنهم شعراء كثيرون، وربما كثيرون جدًا، ولا تعني الكثرة ـ في ميزان النقد ـ شيئًا. فعمًا قريب يتقلص العدد ـ كما تقلص من قبل ـ فيمضي منهم من يمضي إلى سبل أخرى من إدارة وتجارة وصمت... ويبقى في الساحة الأقلون، وهم بين اثنين: شاعر حقيقي تُحول موهبته وما يراه في الشعر من مجد له دون تَحَوُّلِه؛ وشاعر، غير حقيقي، يسوّد الصفحات وينشر ولا يبلغ درجة الوسط في خير ما لديه، يستمر ولا تدري ـ أو تدري ـ لماذا؟ ألأنه لم يجد مجالا آخر؟ ألضعفٍ ـ أو جبن ـ في النقد؟

مسيرة الشعر طويلة عريقة، وما زال الشعراء البارزين في الحركة الرواد ودواوينهم ما طبع منها وما أعيد طبعه وما لم يكن مطبوعًا... والجيل الثاني... والثالث ولكنهم كانوا في بداية النهضة وكأنهم كل شيء، ولا تكاد تجد أديبًا من آخر العهد الهاشمي وأوائل العهد السعودي في الحجاز ولا يقول شعرًا.

[المقالة–كتابها–كاتباتها]:

ثم جاءت المقالة مع الصحافة فزاولها الشعراء كذلك ـ ولا غرو؛ فإن فؤاد الخطيب محرر «القبلة» شاعر كاتب مقالة، وخير الدين الزركلي كذلك وآخرون ممن ورد على الحجاز قبيل العهد السعودي وفي بدايته... ثم إن الصحافة تتوطد وقوامها المقالة... ولا تصعب المقالة على ذي لغة وقلم وهكذا كان هذا الذي تراه في «أدب الحجاز» و«وحي الصحراء»... وربما تستغرب إذا رأيت أدباء متقدمين (مثل أحمد سباعي) لم يقولوا الشعر!.

كانت «القبلة» وحدها ثم جاءت «بريد الحجاز». وإذ انتهى العهد الهاشمي كانت «أم القرى» و«صوت الحجاز» ثم سارت القافلة وتعددت الجرائد، وجاءت

«المنهل» رائدة في المجلات...

ولا شك في تأثر المقالة السعودية بالمقالة العربية عمومًا، وبالمصرية خصوصًا، متمثلة بالمنفلوطي وطه حسين والزيات.... والمهجرية كذلك متمثلة بجبران خليل جبران، ونذكر مجلة «الهلال» ثم مجلة «الرسالة» الواردتين باحترام وتأثير من القاهرة.

وهذا يعني أن من كتاب المقالة ـ ولا سيما الرواد ـ من لم يكن يكتفي بالمضمون وحده يوصله فكرة واضحة بلغة سليمة؛ وإنما يقصد إلى الجمال، إلى أن يقدم أثرًا يجد فيه القارئ ما يجد في الشعر ليزيد مفعول المضمون، وليثبت مكانه أدبيًا فإذا في المقالة عاطفة وخيال...وصور... وايقاع... وقد تقرب من الخطابة حينًا ومن القصة حينًا... ولكنها أقرب إلى الشعر في كل حال، وأوجد جبران النثر الشعري، ووصف نثر أحمد سباعي بالشاعرية...

والوصف صحيح، وهو شائع، ولك أن تقرأ مقالاته لترى الشاعرية فيها والطراوة عليها، ومن فاته أن يقرأ في الصحف وفي سائر كتبه فليقرأه في «السباعيات» ـ وقد صدر منها جزءان، ولنا أن ننتظر ثالثًا ـ ونذكر ـ ونكرر ـ أن السباعي من الحجازيين القلائل من جيله الرائد من لم يجمع بين الشعر والنثر؛ والشعر هو الطاغي عليهم، فجاء السباعي شاعرًا في نثره، ولا غرو أن كان من الأوائل الذين كتبوا شعرًا منثورًا.

قال إبراهيم هاشم فلالي في «المرصاد»: (السباعي... شاعر وإن لم يدّع الشعر، شاعر وإن لم نسمع له بيتًا واحدًا، يترك نفسه على سجيتها في تعبيره فيأتي تعبيره شعرًا مرسلا مُحَلّقًا كأحسن ما يكون التحليق والرفرفة؛ والجمال (..) وهو في كل نثره صافي النفس قوي الأداء رقراق العبارة مرفرف الروح...) ـ ولا بأس بعد هذا من الاحتياط بتخفيف درجة الثناء قليلا هنا وحيث يرد.

وكتاب المقالة كثيرون... وهم في دور الريادة هم الشعراء وهم المقاليون وظلوا ـ بعد ذلك ـ غير قليل يشربون النوع نسغًا من الإبداع تكلفًا أو طواعية أو تكلفًا

يقربهم من الطبع؛ ولا تهمنا الدرجة ـ هنا ـ قدر ما تهمنا الظاهرة، ظاهرة الفن والتفنن، وفي الجرائد ما يمكن أن تختار منه مجلدًا ممتعًا لو شئت، ولا بد من أن يصنع هذا المجلد من مختارات المقالات يومًا. وبانتظار ذلك المجلد، نعود إلى «أدب الحجاز» و«وحي الصحراء» وربما إلى «نفثات من أقلام الشباب الحجازي» الصادر سنة ١٩٣٧، ورأينا من الكتاب من جمع قدرًا من مقالاته في كتاب، وفي طليعة أولئك الشيخ أحمد السباعي... ثم إبراهيم فلالي وأحمد عبد الغفور عطار... وسعد البواردي...

ثم رأينا، بعد ذلك، وبعد الـ ١٣٩٠/١٩٧٠ من جمع ـ أو جمعت ـ له مقالات ونشرت في كتاب، ومن أولئك غير الشيخ السباعي: حسين سرحان، ومحمد سعيد العامودي، ومحمود عارف، ومحمد حسين زيدان... والبقية تأتي... وفيها عزيز ضياء، وعبد العزيز مؤمنة... وآل حافظ... وعبد الله المناع.. والدعوة إلى مجلد المختار من المقالات (المبدعة) قائمة... كما أن الدعوة إلى دراسة المقالة دراسة أدبية في رسالة علمية قائمة كذلك... ويا حبذا لو عُني جامعو المقالات بتثبيت تاريخ النشر ومكانه؛ وفي ذلك خدمة للدارس والناقد...

وقد عرفنا حسين سرحان شاعرًا لم تكن منزلته يومًا مجال نقاش أو مؤاخذة، ويبدو أن هذه الشاعرية ـ في الموزون المقفى ـ غطّت على مكانته مقاليًا مبدعًا، أسهم في الصحافة السعودية منذ أول جريدة فيها: «أم القرى»، ثم في «صوت الحجاز»، ثم في «البلاد السعودية»... ولمقالاته شخصية متميزة هي سمة الإبداع، وفي مقدمتها، غير بنائها العام وتسلسل فقرها، عنف في الروح، وسخرية، وقوة في الرأي وجمال في الصورة، ووثبات تزيد النص حياة، والقارئ تنبها....

من يقرأ (من مقالات حسين سرحان ـ النادي الأدبي، الرياض ١٤٠٠ ـ ٢١٦ص) يكتشف في الشاعر كاتبًا شاعرًا من نمط خاص، يتكامل فيه الفنان ولن يدرس ـ بعد اليوم ـ شاعرًا منفصلا عن المقالي...

وبقيت الأقلام تـراود الإبداع، والإبداع يراودها طويلا، وكنت ألاحظه وقد تهيأ لي، منذ ١٣٨٣/ ١٩٦٣، أن أقرأ «المدينة» و«البلاد» وغيرهما، ثم اكتسبت المقالة ضربًا من الحيوية بعيد نظام المؤسسات (في العام نفسه) لـم يلبث أن شـرع يجف وينذر، وعادت المقالة إلى الطابع العام، طابع الصحافة فقط، إلى الإيصال التعليمي وحده وكأن الكاتب على عجلة من أمره، ربما كان القارئ كذلك، لدى الإيصال والتلقي، ولـم تكن السعودية في ذلك على خلاف ما جرى في العالـم العربي، وفي العالم كله.

وجمع عدد من كُتَّاب المقالة ما كتبوه وأصدروه في كتب ـ وحسنًا فعلوا، وفي الذي كتبوه فن وشاعرية أحيانًا يكونون به الجيل التالي ـ أو المتمم ـ للجيل الأول في تواليه من السباعي إلى السرحان...

ونبدأ هذه المرة بالرياض حيث صدرت ـ بنظام المؤسسات ـ جريدة الجزيرة ثم الرياض، ومع الجزيرة صدرت اليمامة... فكان ذلك دعوة مباشرة للأقلام والمبادرة إلى الكتابة والتنافس في الأنفع الأجمل... الأقوى تأثيرًا.

ولدينا مما كتب في «الجزيرة» (١٣٨٨) و«الرياض» (١٣٩٠) مع أحاديث ومقالات أخرى، مجموعة الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر: «من حطب الليل» ـ الرياض، ط٢، ١٣٩٨/ ١٩٧٨ ـ ٢٤٨ ص. جاء في مقدمتها: (الفكرة تخطر في ذهن الإنسان، فيقيدها، تصبح بمنزلة ابنته، يعز عليه أن يئدها بعد أن تولد، أو أن يهملها وهي جزء منه (..) إنها تصبح منه، ومنسوبة إليه، بما فيها، وما لها، وما عليها...).

ويمضي الكاتب في تواضع، كأن له من إنصرافه إلى (الإدارة) و(التاريخ) ما يسد حاجته، ويريه (الكثير) في غيرهما قليلا...

والخاطرة الذهنية هي التي تحدد مركز الثقل في المقالات التي تضمنتها المجموعة، ويقلل من المعنى الأدبي بناءً وطراوة غلبة القصد في التعليم الاجتماعي التربوي، وربط ذلك بوسيلة الإيضاح بحدث وقع أو حكاية عرضت، وهذه التعليمية مقصودة قبل

الطراوة ومن ثم فهي مرتبطة بالعقل والموضوعية، أكثر من ارتباطها بالقلب والذاتية.

وقد تجتمع الموضوعية والذاتية كما في «إلى ابني» (ص ٩٢) ـ وينظر للأسلوب ومنهج الكاتب ص ٨٥، ١١٨.

وكتب في الجزيرة واليمامة... آخرون... ولو استمر الوهيبي لكان له مجموع فيه عنف الناقد وسيولة قلم الأديب...

وأبرز المقاليين من أصحاب الكتب المجموعة عبد الله عبد الرحمن جفري، وهو في ذلك أقوى منه قصاصاً ومن كتبه المقالية: «لحظات»، و«حوار وصدى»...

وأصدرت له تهامة ١٤٠١/١٩٨١ «نبض». جاء للأستاذ سباعي عثمان في تقديمها: (حينما صدر كتاب الزميل عبد الله جفري، بعنوان «لحظات» منذ بضع سنوات... تساءل كثيرون ممن اطلعوا عليه: شعر هو، أم نثر، أهو كلام بين الشعر والنثر، وبعضهم وصفه بـ (الضبابية والتهويم الحالم)!!!....).

ثم أصدرت له «حوار.. في الحزن الدافئ» ١٤٠٣/ ١٩٨٣ وقد قال الناقد المصري رجاء النقاش في مقدمته: (.... إن عبد الله جفري كاتب له (شخصية) (...) ومدخل عبد الله جفري إلى قلوبنا وعقولنا (...) من باب الشعر... فالروح الشعرية عنده واضحة (...) باختيار ألفاظ تقطر بالندى الشعري وفي حرصه على توفير جو من (الموسيقى الداخلية) لكتاباته حتى تبدو في معظمها وكأنها من (الشعر المنثور)...).

وننتظر مجاميع أخرى لأن الرجل في خضم عالم الصحافة وهو (المدير المتفرغ لتحرير صحيفة «الشرق الأوسط» العربية، ومجلة «المجلة» الأسبوعية...).

وكنت أقرأ ـ للأستاذ عبد الله الحصين فألمح في مقالاته القصد الفني لدى إخراج فكرته محاولا بذلك اجتذاب القارئ والتأثير فيه، وينجح أحيانًا وكلما ابتعد عن التقريرية، وهو اليوم يجمع مقالاته لتصدرها له تهامة ١٤٠١/ ١٩٨١ بعنوان «أفكار بلا زمن» ـ ولا توجد أفكار بلا زمن، ولكن توجد أفكار يمكن أن تقرأ خارج زمنها وكأنها ليست بنت زمانها بفعل (الإخراج)، والإخراج فن، وأهدى المؤلف كتابه:

«إلى الباحثين عن الحقيقة وسط ظلام الحياة، وظلم الأحياء، أقدم هذه السطور؛ فلعل فيها ضوءاً من الحقيقة، لعل فيها مواجهة للنفس في لحظات صدق مع الذات).

ولا بد من أن تكون هناك كتب أخرى صدرت لتضم مقالات سبق نشرها، وفي عناصر بقائها ودواعي إعادة نشرها سمة من الفن وطابع من الشعر، وعنفوان من الفكر....

وهنا يرد اسم: أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري. قلت: اسم، وما هذا باسمه، وإنما هو (محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، من آل عبد الوهاب من الخزرج تحدروا من المدينة المنورة إلى نجد في حدود القرن الحادي عشر الهجري (..) مولده في حفيظة النفوس سنة ١٣٥٧هـ ثم ترجح أن مولده سنة ١٣٥٩ بموجب وثيقة وجدها في أوراق والده عمر رحمه الله.

عمل موظفًا في إمارة الدمام، ثم موظفًا بديوان الموظفين العام (ديوان الخدمة حاليًا) ثم مديرًا للخدمات برئاسة تعليم البنات، ثم مستشارًا شرعيًا بوزارة الشؤون البلدية والقروية ـ وما يزال، وعمل رئيسًا للنادي الأدبي بالرياض، ومازال أحد أعضائه).

وكنا وقفنا عنده في صلب «المعجم» بما تيسر لدينا عنه آنذاك، وأقدم ما ثبتناه له من الكتب طبع سنة ١٣٩١/ ١٩٧١ فهو بعد الحد المحدد لنهاية المعجم، أما الآن وقد اتضح نشاطه (النادر) وجدّت لدينا هذه الأخبار عنه فقد رأينا ضرورة إثباتها، وزاد في الضرورة قوله ـ وهو في عام ١٤٠١ ـ : (طبع له خمسة وثلاثون كتابًا) وبدا أن ليس من المنطق أن يكون قد طبع هذه الـ ٣٥ كتابًا في عشر سنين؛ فقد يكون بينها ما يدخل ضمن حدي المعجم، وذلك ممكن.

حدثنا الرجل عن نفسه بالأخبار الواردة هنا عنه على ظهر كتاب، هو مجموعة مقالات، أصدرته له تهامة، جدة، مطابع دار البلاد بجدة بعنوان «لن تلحد» هو الحلقة (٩٢) من سلسلة الكتاب العربي السعودي.

قال في مقدمته: (... لم يكن هذا السفر مؤلفًا مقصودًا منذ البدء في صميم هذه الموضوعات، وإنما كانت مواده من جملة المحاضرات والمقالات التي كنت أنشرها في الصحف خلال عشرين عامًا، فقد أهملت جملة منها وحفظته لأنني غير راض عنه، وما رضيت عنه وزعته في أسفار تحت عنوان عام هو «الفنون الصغرى» إلا أنني ميزت بعض الأسفار بعنوانات خاصة لما رأيت موضوعاتها موحدة الهدف، فكان السفر الأول بعنوان: «هكذا علمني وردزورث» لأن مواده من موضوعات الفن والأدب التي توزن بالمعيار الجمالي، وكان هذا السفر.. وهو السفر الثاني.. عن قضية الإيمان والإلحاد، وكان الثالث بعنوان: «اللغة العربية بين القاعدة والمثال»، وكان السفر الرابع بعنوان «هموم عربية» ـ الرياض، الغبيراء، دارة فيصل ١٤٠١/١/٢٦) ـ وجريدة البلاد أول ما يذكر لأماكن النشر.

وحدث ـ لدى الطبع تقديم الثاني (لن تُلحد) على الأول (هكذا علمني وردزورث) فقد صدر هذا عن تهامة، جدة، مطابع سحر، ١٩٨٣/١٤٠٤ ـ الكتاب العربي السعودي (٩٩)... وبانتظار الكتابين الباقيين.

ويبدو من المقدمات أن كتب ـ أو مقالات ـ أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري تعترضها عقبات عند النشر تدعو مرة إلى التأخير ومرة إلى التعديل، وليس في الأمر غرابة لأن أبا عبد الرحمن ظاهرة لا تخلو من غرابة في مكانها أو في نظرتها إلى الأشياء... وهذه النظرة أو هذه الغرابة هي التي تجعل لمقالاته ـ وخاصة ما جاء منها في «هكذا علمني وردزورث» طابعًا خاصًا وشخصية متميزة، وأسلوبًا... يدخلها في الأدب الفني ويقربها من المقالة المبدعة إن لم يدخلها فيها.

وهاك سطورًا من المقدمة تهيئ لصاحبها مكانًا بين الفنانين مزاجًا وهو أساس فيما بعد ـ في تحديد هوية الناتج. قال: (... وهذا العنوان وحي مصادفة محضة لقصيدة لـ (وردزورث)....! وإن كان أسبق مني زمانًا ـ إنه إياي يعني. وجدته يبارك عملا جليلا كبيرًا لطفل (...) يدور هذا السفر على... اعترافات ذاتية (...) باعثها الصدق العاطفي أحد ظاهرات الجمال، وهو خير مسجل لعبث الأطفال الكبار...).

هذه العاطفة التي يؤكدها أبو عبد الرحمن لا تبدو العاطفة التي تتبادر إلى الذهن من شؤون الحب والغرام وما إليهما من قواعد الشعر الغنائي، فإذا هي عاطفة ذهنية ـ إن صح التعبير....

إننا لا نطلب عند الرجل الشاعرية أولا، ولا نطلب اللفظة المختارة الأنيقة التي تنتظم مع جارتها ضربًا من الموسيقى... ولا أي تأنق آخر يدخل في الترف اللفظي؛ فالرجل من عالم آخر، عالم العقل والمنطق والإقناع. عالم منطقه الخاص، ومنهجه في الإقناع.

ـ فهو كاتب مقالة تعليمية تقريرية!

ـ قد يكون ذلك في عدد من مقالاته، ولكنها ليست التعليمية التي توصل مادة جاهزة راكدة، وإنما هي الوسيلة التي تحرك ذهنا؛ ولا التقريرية الهادئة الجامدة الساكنة وإنما هي تحد وطموح وإثارة فضلا عن مقالات ترفدها تجربة وجدانية خاصة.

ومن هنا جاء حظه في المقالة الفنية، ليست تعليمًا ولا تقريرًا لأنه عنيف، وإن شئت استفزازي، يستفزك إن كنت معه، ويستفزك إن لم تكن معه، بضربات متلاحقة تبدو متباعدة الطرفين لديك وما هي كذلك في نفسه، فلا تأمنه إن لان، لأنه يلين ليشتد، ولا تصدقه إن تواضع، لأنه يتواضع لغزارة من الثقة بالنفس، هي فخر يصل حد الخيلاء ثم يرتد إلى الألفة والمصادقة، تحتدم العاطفة خلال عقله، ويحتدم عقله حتى ليبدو عاطفة وخلال ذلك خليط عجيب من التجارب والآراء والمعارف... من قديم جدًا إلى جديد جدًا، ومن شرقي شرقي إلى غربي غربي... لا تدري كيف تجمعت في ذاكرته... وكم قرأ حتى جمعها!!! ومن ثم تنبثق صور تراها غير مألوفة ـ ربما غير معقولة ـ ولكنها مألوفة لديه طوع يده ـ قد يذكرك بزكي مبارك إذا أردت أن تتذكر روحه ـ ولا أقول عقله، وإذا كان لا بد من مقابلة، ولا يذكرك بالعقاد على أن الميدان ميدان عقل وثقافة وقراءات ولو كان كالعقاد لوصفناه

بالتعليمية ومضينا.

فن المقالة لديه - إذن - متميز بالعنفوان الفكري لدرجة أن يبدو اضطرابًا وشذوذًا وثقة مطلقة بالذات، وما تعتقده هذه الذات؛ ومتميز - كذلك - (بالتلاعب المنطقي) إن طلبت بديلا عن (التلاعب اللفظي) الذي تراه لدى غيره واضحًا أو خفيًا...

وإذا بدأت معه مقالة... لم تجد بدًا من السير معه حتى ينتهي، وعند الانتهاء، ترضى أو لا ترضى - تضع علامة العجب والتعجب وكأنك تعايش (طفلا شكسًا).

بقي أن الشيخ أبا عبد الرحمن بن عقيل الظاهري لم يحدثنا - إذ عرفنا بنفسه مكان ميلاده، ولكنه أشار إلى أن في كتاب «هكذا علمني وردزروث» (اعترافات ذاتية)، وافتتحه بمقالة طريفة ذات دلالة على فنه وعقله ومقروئه، عنوانها «الطفل الكبير وكَفْرُ أبي صِير» والطفل الكبير هو هو دون شك، و(أبو صير ريف يمرح على ضفاف إحدى الترع المناسبة من النيل الخالد) في مصر. (وكفر أبي صير[1] ريف لأسر من القبائل العربية الأصيلة المهاجرة من الجزيرة العربية وبلاد الرافدين، اتخذته مخدعًا للحب المحفوف بكلمة الله وخطبة ابن مسعود! إذ غادرته مودعًا أرض الكنانة مستقبلا تنائف نجد تمثلت بقول أبي الطيب:

أحبك ياشمس البلاد وبدرها ... وإن لامني فيك السهى والفراقد...

تكاد تقول: ولد في مصر، ولكنه يقول في مكان آخر، أي في «دليل الكاتب السعودي»: محمد بن عمر بن عبد الرحمن العقيل، تاريخ الميلاد ومكانه: ١٣٦١هـ شقراء (من نجد) وقد ذكر هنا أن له (٣١ كتابا وكتب أخرى تحت الطبع).

ولم يعرفنا عن دراسته، ونعرف أنها أساسًا شرعية وقد قال في مقدمة «هكذا علمني...»: (ومؤلف هذا الكتاب من حملة العلم الشرعي) شهادته: ماجستير من معهد القضاء العالي بالرياض في التفسير، ولا شك في أن علمه خارج المادة المنهجية

(١) «العرب»: من كفر أبي صير اختار أبو عبد الرحمن زوجته الثانية، أما مسقط رأسه الذي ولد فيه فمدينة شقراء في نجد.

أكثر منه في المادة المنهجية، أكثر كثيراً فلا تكاد تحصى أو تلاحق ما قرأ واستوعب من قديم وحديث، وممنوع ومتبوع....

وذكر لنا في مقدمته تلمذته لمجلة «الرسالة» ثم تلمذته بأخرة لـ «الآداب»...

ويهمنا من «الرسالة» أنها مدرسة المقالة العربية، ومدرسة تذوق المقالة والإيحاء بمزاولتها.

وتذكرني «الرسالة» بالزيات، وأذكرها وأذكر الزيات، بعيدًا جدًا عن عالم أبي عبد الرحمن وأسلوبه، لأذكر الأستاذ عبد العزيز الرفاعي وقد سمعته لأول مرة يلقي (حديثه) في بغداد - مؤتمر الأدباء العرب السابع ١٣٨٩/١٩٦٩ فكان اختياره للفظ، وكانت أناته إزاء الجملة... مما يذكر بالزيات... أقول: (حديثه) إشارة إلى نبرة محببة في صوته، تحسب لدى الإلقاء الأستاذ الرفاعي لم يجمع مقالاته، والملاحظ عليها غلبة التعليم الأدبي والاجتماعي، مع ميل مقصود إلى التطرية سعيًا إلى كسب القارئ في المتابعة، وقد تأتي النظرية مُلْحةً وفكاهة وقد تأتي شجونًا في الحديث.

نخلص إلى أن كتاب المقالة كثيرون، ونشأوا وترعرعوا وشبوا وشاب جيلان منهم لحقهم كهول وهاجسهم لدى الكتابة الفن، ويبقى الاختلاف في القدر المتحقق وذلك رهن بالموهبة والجد والاستمرار...

ثم شرع هذا الهاجس يخف أو يجف، وعادت الكثرة الكاثرة من المقالات كتابة فقط، ترى أنطمع بخليفة لعبد الله جفري؟

وطبيعي أن يكون للمرأة مكانها من المقالة خلال المدة المحدودة للمعجم، وبخاصة لدى أواخرها، في الأبواب النسائية - الاجتماعية من الصحف.... ثم ازدادت وتنوعت، وقد تشبثنا ذات يوم باسم خيرية السقاف وسميرة لاري (خيرية إبراهيم محمد السقاف، ولدت في ١٣٦٩/١٢/١٨ (١٩٥١) (سميرة أحمد لاري، مواليد جدة ١٩٤٩، ليسانس صحافة من جامعة القاهرة)، وعد ذلك فتحًا بعد ما

كان من اختفائها في العقود الأولى، ومن الدعوة إلى تعليمها، وربما كتب الرجال بتوقيع نساء دفاعًا عنها وإعلانًا لها.

وزاد نشاطها، وصارت لها مجلتها ـ بعد الحد المحدود ـ بل مجلاتها (الثلاث)... وكثيرًا ما جمعت إلى المقالة القصة... أو القصة إلى المقالة.. أو الشعر إلى المقالة.

ولديَّ من الأسماء: فوزية البكر، رقية الشبيب، شريفة الشملان، قماشة الشبل (وهي حصة محمد صالح الشبل)، فوزية العريفي، فوزية أبو خالد، شيرين حمزة شحاتة، سهيلة زين العابدين، عابدية إسماعيل خياط، منيرة المسعود، نائلة قستي، جميلة فطاني، أميمة الخميس، إيمان الدباغ، بهية بوسبيت، ـ ينظر «دليل الكاتب السعودي». وتتردد في «المنهل» الجديد أسماء للمرأة منها: حياة عبد الحميد عنبر[1] وأمجاد محمد رضا.

وأخريات وأخريات، وفيهن من تعمل على جمع المختار من مقالاتها لطبعه في كتاب ـ وتبقى العبرة في المقالة كما هي في الشعر والقصة، فيمن تبقى وتستمر وتتقدم وتبدع، وليس من طبع الإبداع الكثرة.

أقول هذا وإزائي كتاب يضم مجموعة مقالات للدكتورة فاتنة أمين شاكر باسم «نبت الأرض» ـ جدة، تهامة، سلسلة الكتاب العربي السعودي (٣٥)، مطابع النصر ١٤٠١/١٩٨١ ـ ٢٦٢ ص. وفي التعريف بالكاتبة المقالية يقول الغلاف الأخير من الكتاب: (ولدت بمدينة جدة عام ١٩٤٠م.. وتلقت تعليمها الأولي فيها.. مارست الصحافة في وقت مبكر من حياتها.. فكانت أول صحفيَّة سعودية تتولى الإشراف على صفحة نسائية بجريدة عكاظ بين أعوام ١٣٨١ ـ ١٣٨٣هـ: أول مذيعة سعودية.. قدمت البرنامج النسائي الشهير بعنوان «البيت السعيد» (...) تخرجت [في] كلية التجارة بجامعة القاهرة عام ١٩٦٢م، سافرت إلى أمريكا لمواصلة دراستها العليا وتحصلت على الماجستير عام ١٩٦٦م.. ثم تحصلت على الدكتوراه عام ١٩٧٢م وكان موضوع رسالتها: «التطور الاجتماعي والحضاري للدول

(١) توفيت سنة ١٤١٤هـ.

النامية».

عادت إلى المملكة عام ١٩٧٧م وانضمت إلى هيئة التدريس بجامعة الملك عبد العزيز ـ جدة، استاذة بقسم الطالبات.

واصلت (مشوارها) الصحفي في زاويتها المعروفة بعنوان «حوار» في جريدة «الشرق الأوسط» الدولية.. اختيرت رئيسة لتحرير مجلة «سيدتي» التي تصدرها الشركة السعودية للتسويق.. حيث استعيرت خدماتها من الجامعة عام ١٩٨٠).

وفي دليل الكاتب السعودي: (... وشغلت هذا المنصب لفترة من الزمن) عنوانها: جدة، جامعة الملك عبد العزيز ـ كلية البنات.

(تقرأ في الكتاب كتاب «نبت الأرض» فترى (الفن) غالبًا على قلم الكاتبة، وتقع على (قطع) هي امتياز في الشاعرية الوجدانية لو درست صاحبتها مع الشواعر لما أنكر الحال عليك منكر).

كتابة المقالة ليست صعبة من حيث هي في (أبسط) دلالاتها التي تقف عند التعبير وحده، وهي حتى في هذه الحال ذات دلالة لدى الحديث عن المرأة اجتماعيًا وفكريًا، لقد بدأت تبلّغ، وكانت لها الأبواب الدائمة في الصحف، وكان منهن المحررات الدائمات... ثم دخل القصد الفني، ووجد التوفيق أحيانًا.

ومن هنا جاء عمل الأستاذ عبد الكريم بن حمد الحقيل في كتابه «من أدب المرأة السعودية». قالت «العرب»: (مجموعة مقالات لنحو مئة كاتبة من فتيات هذه البلاد... في ٢٥٦ صفحة وطبع الكتاب في المطابع النموذجية، في الرياض، صدر هذا العام (١٤٠٣)...).

[القِصَّة:]

والقصة جديدةعلى السعودية كما هي جديدة ـ في شكلها الفني الواقعي ـ على الأقطار العربية كلها، ولا بد لدى البحث في نشوء القصة السعودية أن ترجع إلى

تأثير القصة المصرية، والصحافة المصرية... وما وصل الحجاز مترجمًا إلى العربية... فلقد أحس الأديب الحجازي بأهميتها وألم بشيء من سماتها وشرائطها ورأى ضرورة الكتابة فيها.

وفي عام ١٣٤٩/ ١٩٣٠ أصدر عبد القدوس الأنصاري: «التوأمان»: (أول رواية صدرت في الحجاز). ثم نشر في جريدة «صوت الحجاز» قصة قصيرة بعنوان «مرهم التناسي» في العدد ٧٢ بتاريخ ٨ جمادى الثانية ١٣٥٢/ ٢٩ أغسطس ١٩٣٣ في باب: (قصص اجتماعية: رواية الأسبوع).

وفي العدد ٨٢ كتب عنها محمد حسن عواد بما يدل على إلمامه بما هي عليه القصة الحديثة، على الرغم من شدته في الحساب، لدرجة التهجم وظهور العنصر الشخصي، الذي يجور على المعنى المطلوب في الناقد الأدبي الصحيح.

وتُعنى «المنهل» عناية جادة بالقصة ـ ينظر الكتاب الفضي ١٣٨ ـ ١٤١ وللأديب الجزائري أحمد رضا حوحو مكانه البارز في القصة والمنهل، ونذكر معه محمد عالم الأفغاني فيما نشر في المنهل، وغيرها، ومما له في «المنهل» قصة متسلسلة بعنوان: «الكأس الأثيرية» نشرت بدءًا من صفر ١٣٦٥/ يناير ١٩٤٦ في العدد الثاني والأعداد التالية حتى العدد الثامن، ونشر فيها سعوديون، ومن ذلك «فكرة» للأستاذ أحمد السباعي موزعة على العددين الرابع والخامس من المجلد السابع ١٣٦٦. ثم أصدرها في كتاب سنة ١٣٦٨.

توقف الأنصاري عند البداية وذهب اهتمامه إلى المجلة والتاريخ واللغة... على حين مضى السباعي في طريقه القصصي ـ مع شغله بالتاريخ والصحافة ـ فأصدر «أبو زامل» سنة ١٣٧٤، وأعاد طبعها ثانية، وغيَّر اسمها في الثالثة وجعله: «أيامي» ـ بعد أن زاد فيها وعدل ـ فصدرت بمكة، مطابع قريش، واعتبرت ط١، تبعتها ط٢ سنة ١٩٨١ بجدة عن تهامة) ونشر في ثمانينيات القرن الهجري / ستينات الميلادي في جريدة «المدينة» قصصًا قصيرة طليعتها «خالتي كدرجان» فدل على تطور وأنه

كتب قصة تقرأ وتعجب وتختار، ثم جمع قصصه وأصدرها في مجموعة عنوانها «خالتي كدرجان» ـ أعادت تهامة نشرها في طبعة ثانية وأعلنت عن طبعة ثالثة وهذا مما لم يتهيأ لأية قصة كتبها الرواد والشيوخ...

وثالث (رواية) سعودية صدرت هي «البعث» لمحمد علي مغربي (١٩٤٨/ ١٣٦٧؟)، وقد أعاد طبعها ١٤٠٣/ ١٩٨٣ بطلب من تهامة.

وكتب محمد سعيد العامودي القصة مبكرًا في «المنهل»، وكان من أوائل الداعين إلى هذا النوع من الأدب (ينظر المنهل الفضي) ولكنه لم يجمع ما نشره في كتاب، وصدر له مؤخرًا عن دار الرفاعي بالرياض الحلقة الأولى من سلسلة «دنيا القصص» التي افتتحتها الدار، أول مرة في جريدة «صوت الحجاز» ١٣٥٥/١١/٢٧؛ والميراث، وذكرى، ومأساة أم، وجزاء في المنهل، والأخيرة (شيلوك الأخير) في «البلاد السعودية» ١٣٦٦/٨/٢٥ ـ وكان من المناسب أن تتقدم المجموعة ما كتبه الأستاذ العامودي في «المنهل» ١٣٥٦/ ١٩٧٣ مستعرضًا نواحي الضعف في أدب الحجاز ومنها خلوه من القصص...

ترك الأستاذ العامودي القصة إلى اهتمامات أخرى، أدبية ولكنها ليست للقصة، ويمكن لباحث في القصة التي صدرت على هيئة كتاب أن يقف عند أحمد عبد الغفور عطار ومحمد عمر توفيق، وإذا وصلنا حامد دمنهوري وصلنا إلى مرحلة متطورة في الرواية، قد تمثل نهاية مرحلة قدر ما تمثل بداية مرحلة تكون رائدة فيها... وشغل دمنهوري بالإدارة (في وزارة المعارف، واخترمته المنية)...

وحين دخلت الرياض ١٣٨٣/١٩٦٣ (فتحت عيني) على مجموعة «طين ودم»[1] لعبد الرحمن الشاعر فإذا هي جديرة بالقراءة والدلالة على اطمئنان الفن القصصي ولكن «طين ودم» بقيت ـ لصاحبها ـ من غير غد... ولئلا نظلمه نقول إنه نشر هنا وهناك (من مجلة عسكرية) عددًا محدودًا من القصص، وإنه يستعد لطبع

(١) اسم الرواية «عرق وطين».

مجموعة ثانية بعنوان «عذاب الحرية وأحدب منفوحة».

أما الذي يتردد في الساحة، فيؤلف، ويوالي التأليف والنشر، رواية وقصة. فكان إبراهيم الناصر... وقد ودعت الرياض ١٣٨٨/ ١٩٦٨ وهو بارز فيها مقترنًا بها وقرأت له «أمطار» ولمحت التقدم ومضى (بعدي) يوالي النشر والتأليف وإعادة الطبع...

وكتب آخرون، غير قليلين، منهم من كان لهم كتاب واحد ومنهم من كان له أكثر من كتاب، منهم من انقطع ومنهم من استمر رأيناهم في «المعجم» ورأينا ـ فيمن رأينا ـ عبد الله جفري، وأمين سالم رويحي، ومحمد زارع عقيل، وخليل إبراهيم الفزيع، وأمين عبد المجيد، ومحمد عبد الله مليباري وغالب حمزة أبو الفرج، ومحمود عيسى مشهدي... وللقمان يونس نكهة خاصة ولكنه لا يجد في نفسه الشجاعة أو الهمة على الاستمرار! مع أنه يبذ كثيرًا من المستمرين، ويتميز منهم وإذا كنا ذكرنا لعبد الله مناع (الدكتور في طب الأسنان، ولد في جدة، ١٣٥٨) لمسات وهي مجموعة قصص ١٩٦٠ فقد فاتنا ذكر مجموعة «أنين الحيارى» ١٩٦٨.

أما بعد ذلك، وبعد الحد المحدد لنهاية المعجم فقد ازدادت القصص، ونشأ كُتّاب جدد، وإن ظلت القصة القصيرة ـ كما هو طبيعي ـ هي السيدة السائدة، وتتعدد أجواؤها ما بين القلب والفعل، والغاية الاجتماعية المباشرة أو غير مباشرة أحيانًا بما تعكس من ضيق أو أزمة وتعريض بتقاليد، يراها الكاتب بالية تحول دون التقدم وبين القصد إلى الفن وأطوار من حالات النفس... في العقل الباطن وتيار الوعي.

وأصدرت مجلة «عالم الكتب» مج ١ ع ٤ ربيع الآخر ١٤٠١/ ١٩٨١ عددًا خاصًا بالقصة في المملكة العربية السعودية لا يستغني عنه دارس، وللدارس أن يتابع الأعداد التالية فيما تذكره من أمور القصة دراسة أو تعريفًا أو إخبارًا عن صدور.

ولك أن تلتقط من أسماء المؤلفين ـ مستعينًا بيحيى ساعاتي ومطبوعات النوادي الأدبية وكتاب الدكتور نصر محمد عباس: «البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة» ١٤٠٣/ ١٩٨٣ وكتاب الدكتور منصور الحازمي «فن القصة في الأدب

السعودي الحديث» ودليل الكاتب السعودي: سليمان الحماد، محمد المنصور الشقحاء، حجاب يحيى الحازمي، عبد الله السالمي، محمد حمد الصويغ، عبد العزيز صالح مشري، صالح سالم باقارش، عاشق عيسى الهذال، جار الله الحميد... عبد الله عبد الرحمن العتيق، حسين علي حسين، علي محمد حسون، عبد الله سعيد جمعان، حسين هاشم سالم، محمد بن طلال، فائز عبد المجيد، فؤاد عبد الحميد عنقاوي، وطاهر عوض سالم، وعبد العزيز صالح الصقعبي ـ هذا غير علوي طه الصافي في «مطلات على الداخل» الصادر عن نادي الرياض ١٤٠٠ ويصفها بأنها (مجموعة شرائح اجتماعية ونفسية في شكل أقاصيص وخواطر).

وعنيت النوادي والجمعية العربية السعودية بالقصة والقصاصين.

ولا بد من أن يكون غير هؤلاء، وأن يكون الذي تحت الطبع لعبد الله عبد الرحمن العتيق، وحسين علي حسين، وعلي محمد حسون، عبد العزيز أحمد ساب[1] وعبد الله باخشوين، قد صدر أو صدر أكثره، غير ما بقي-طيّ الصحف والمجلات، ومالم يصل إلى علمنا وليس العدد بالقليل، وتبقى مسألة النوعية العالية خارج دائرة «المعجم» ولا بد من الانتظار، ولا بد للقاص السعودي من بحث عن عوامل تساعده على الإبداع والتميز، على أنك لا تعدم الجودة أحيانًا، والجهد المبذول في أن تأتي القصة فنية.

ونشر الدكتور منصور الحازمي بحثًا قيّمًا عن «القصة القصيرة في الأدب السعودي الحديث» ـ «عالم الكتب» ربيع الآخر ١٤٠١ / فبراير ١٩٨١، أعاد نشره في كتابه «فن القصة في الأدب السعودي الحديث» وسار في استعراضه حتى بلغ جيل الشباب فكان مما قال: (لم تظهر فيما أعلم، مجموعات قصصية لجيل الشبان من القصصيين قبل نكبة حزيران سنة ١٩٦٧م؛ بل إن معظم هذه المجموعات من نتائج السبعينات (...) لقد اختلفت القصة القصيرة على أيدي هؤلاء الشباب اختلافًا كبيرًا عما كانت عليه عند أسلافهم من الواقعيين، لم تعد تُعنى بالبيئة المادية

---

(١) ولد في مكة عام ١٣٤٨ وتوفي يوم ٧ذي الحجة ١٤١٢ بالمدينة «عكاظ» في ١٤١٢/١٢/٨ و ١٤١٢/١٢/٢٦.

أو الواقع الحسي، بل باللحظات الشعورية والمواقف النفسية المتوترة، ولم تعد تهتم بالمشاكل الاجتماعية اهتمامًا مباشرًا، بل بما قد تعكسه هذه المشاكل من أحاسيس ذاتية غامضة، لا تبحث عن حل معين، وإن كانت تومئ إليه أحيانًا، والحقيقة أنه من الصعب أن نبحث موضوع معين في القصة الجديدة-على الطريقة التقليدية-ذالك لأن الموضوع الحقيقي هو القاص نفسه الذي اقتربت لغته من لغة الشعر، والذي يرى العالم الخارجي من خلال تأملاته وأحلامه وأفكاره التي لا تنتظم منطقيًا في اتجاه محدد، وإن كانت تتجمع أخر الأمر حول بؤرة شعورية واحدة.

إن الغربة في المدينة لم تعد غربة مادية (...) بل هي غربة الفكر وغربة الروح...

إن قصة الجيل الجديد قد أثبتت رغم طفولتها - زمنيًا - قدرتها على شق طريقها وفرض وجودها كفن أدبي متميز - ولكنه - مزيج من مذاهب شتى تختلط فيه الرمزية بتيار اللاوعي والسريالية واللامعقول [والوجودية] - وهي على الرغم من غموضها وعزلتها وتشاؤمها، قد استطاعت - بعض نماذجها الجيدة - أن تفتح آفاقًا جديدة للقصة المحلية لا عهد لها به).

وقد وصف الدكتور الحازمي هذا الجيل (السبعيني) بالغرباء.

ونذكر أن هذه الظاهرة ليست سعودية فقط، فما ذكره الدكتور الحازمي يكاد يكون وصفًا دقيقًا للجيل الذي سمي الستيني في العراق، ومثله كان في مصر والشام.... وقد يحاول الدكتور الحازمي بحث الأسباب الاجتماعية التي تدعو، فيما يدعو إليه، على وجه من الصراحة ضمن المنطوق العلمي في منهج البحث.

ونقف قليلا عند مجموعتين: الأولى لما أثارت من (نقد) والثانية لتمثيلها موجة الشباب (السبعيني):

١ - «الصمت والجدران» لسباعي أحمد عثمان[١] - إسماعيل أحمد عثمان من مواليد السودان دلقو (١٩٣٧/١٢/٤)، درس في الخرطوم وانقطع عن الدراسة في

(١) توفي سنة ١٤٠٨ (١٩٨٨م).

السنة الثانية بكلية الآداب. ارتبط عمله الصحفي بجريدة المدينة وهو المشرف على صفحتها الأدبية... ـ طبعت مجموعته ثلاث مرات وليس هذا بالقليل وحالته نادرة أو نافذة في بابها.

أحدثت «الصمت والجدران» حركة أدبية قليلة المثال، قال صاحبها وهو يقدم للطبعة الثالثة ـ وقد صدرت عن: نادي القصة السعودي، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ـ فرع المنطقة الغربية بجدة، مطابع دار البلاد بجدة ١٤٠٢/ ١٩٨٢: (لا أدري كيف أعبّر عن إحساسي تجاه هذا الدفق الكبير من الاهتمام بمجموعتي «الصمت والجدران» فقد غيَّر الكثير من ظنوني، وشكوكي وقت صدورها.. لأنها وإن ظهرت في عام ١٣٩٩هـ مجموعة في كتاب ـ فقد نشرت في جريدة المدينة متفرقة منذ عام ١٣٨٥هـ في أزمنة متباعدة، أو متقاربة، ونشرت آخرها في عام ١٣٩٠هـ، ودفعت بها إلى الطبع في ذلك التاريخ.. حيث بقيت في بيروت تحت رحمة الحرب الأهلية لسنوات... ثم بادر نادي الطائف الأدبي فتولى طباعتها في عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ثم انتعشت طبعة بيروت فجأة ـ عن الدار السعودية للنشر ـ وصدرت في كتاب من القطع الصغير في عام ١٤٠٠هـ.. ونفدت الطبعتان من الأسواق خلال سنتين فقط...

ومنذ صدورها في طبعتها الأولى.. والأقلام تتناوشها. استحسانًا واستهجانًا أو استحسانًا واستهجانًا في آن معًا...).

لسباعي عثمان مجموعة ثانية صدرت باسم: «دوائر في دفتر الزمن»، ستصدر قريبًا.

٢ ـ «الخبز والصمت» لمحمد علوان، صدرت عن دار المريخ، الرياض ١٣٩٧/ ١٩٧٧، ٨٨ ٢ص ي وقدم لها الأديب المصري المعروف الأستاذ يحيى حقي مقدمة أظهر إعجابه الشديد بها على أنه من جيل الشيوخ، وعلوان في طليعة الشباب السبعيني، وما من معرفة بين الأديبين (الكبير) و(الصغير).

قال الحازمي: (إن قصص محمد علوان تفيض بالحزن والتشاؤم، مما حدا يحيى حقي أن

يقول عنها: (هـالني مقدار القتامة التـي صبتها هذه المجموعة في قـلبي...) وأن يقول أيضًا: (كم أتمنى لهذه النظـرة المنصرفة كل الانصراف للداخل أن تتحول ـ ولـو نصف نصفه إلى الخارج أيضًا، فتتجلى لها الطبيعة والناس، غير محرومة كل الحرمان من بهاء الصورة).

ولكن محمد علوان لم ينفرد بهذه الـظاهرة. بل هي موجودة في أكثر الأقاصيص التي يكتبها رفاقه من الشباب (...).

ولا شك أن قـصتنا الـقصيـرة المعاصرة قـد استمدت مما حولهـا من نماذج عربية وعالمية (...) ولكن الشعور بالملل أو القلق أو الإحساس بالغربة ليس وقفًا على أعمال (الوجوديين) فقد يكون له ما يبرره في الواقع المعاش في كل زمان ومكان، وينبغي أن نفرق بين (الوجودية) كفلسفة و(الوجودية) كإحساس عام (.......).

ويرتـاح الدكـتور الحازمي لـثناء (الـكاتب الـكبيـر يحيـى حقي) ـ (شيـخ القـصة القـصيرة فـي زمانـنا) ـ علـى مجمـوعة مـحمد عـلوان (وقد تحـول إلى دراسـة جادة متعـمقة): (حجم صغير، بل في أغلـبها قصيرًا جـدًا، تركيز شديـد، لم يمنعها تـتابع التقـطيع بسـبب الجمل الـقصيرة المستقلة مـن أن تملك قدرًا لا بـأس به من السيـولة والتـدفق لحنهـا شمولـي، بعدها عـن الافتعال فـهي صادقـة كل الصدق (...) ذاتـية الأسلوب؛ النظرة إلى الداخل، الاهتمام بالمشاعر، عـمق التحليل النفسي، البراعة في استخدام الرمز...).

ويعلق الدكتور الحازمي فيقول: (... أليسـت شهادته، بأن هذه المجموعة خير مثل للقصـة الحديثة، مما يدعو إلى الـعجب والاعتزاز؟... الاعتزاز لأن شابًا مـن بلادنا قد حقق أخيرًا ذلك الأمل الذي كـنا نتطع إليه منذ أمد بعيد، ألا وهو تـأصيل فن القصة القصيرة في بلادنا، وكنا لا نفخر بشيء سوى الشعر....).

وانظر كم تـطورت الحال من «مرهم التـناسي» و«التوأمان» و«فكـرة».. إلى «الخبز والصمت.».. وإذ نقف عند نقد الدكتور الحازمـي نقول: وكم تطور نقد القصة منذ هجوم العواد على الأنصاري..

تذكر «عالم الكتب» مج ٤ ع ١ ص ١٤١ لمحمد علوان ـ الحكاية تبدأ هكذا، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٣/ ١٩٨٣ ـ ٩٦ ص: (ضمنها ثماني عشرة قصة قصيرة تتميز بأسلوب رشيق وفكر معبر).

جاء في «دليل الكاتب السعودي»: محمد علي علوان، مكان الميلاد: أبها. الدراسة: خريج كلية الآداب ـ قسم الأدب العربي ـ بجامعة الملك سعود بالرياض، المشاركات الثقافية: الإشراف على الصفحات الثقافية بمجلة اليمامة لفترة من الزمن، وكذلك ملحق أدب وثقافة بجريدة الرياض...

وبانتظار رأي النقاد، والحازمي خصوصًا، في بيان الذي حققه قاصنا الشاب المتميز، وما حققه الآخرون، وهم كثيرون، عشرة، وعشرون... كم يستمرون؟ وكم ينقطعون؟ وكم يبحثون عن تأكيد ذواتهم في عالم آخر؟ فقد علمنا التاريخ عمومًا، وتاريخ الأدب السعودي خصوصًا ـ فيما نحن فيه ـ أن الكثرة لا تعني كثيرًا وإنما العبرة في المثابرة القائمة على الموهبة والاستعداد للتضحية والانسجام التام بين الذات والفن.

ولا يستغني قارئ عن كتاب الدكتور نصر محمد عباس لإخلاص الرجل في المتابعة والملاحقة وقد تعدى المطبوع في كتاب إلى ما تناثر في المجلات والجرائد وإلى ما هو (تحت الطبع)... وهو يخرج بالسبعينيين إلى ثمانينات القرن (الميلادي) / تسعينات القرن الهجري، ويقف بعد محمد علوان (ص ١١٥) عند عبد الله السالم ـ «مكعبات من الرطوبة» الرياض، دار العلوم ١٤٠١ (١٤٠٠) ١٩٨٠.

وفتح صدر كتابه «البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة» واسعًا للمرأة القاصة، وقد صار في المملكة من القاصات، عددًا وكيفًا، ما يفرض نفسه على الدارس وإن كان الدكتور عباس قد تابع الموضوع طوعًا واختيارًا...

وأحسب أن القصة باب يتسع لخطوات المرأة، تستطيع أن تلوذ به، ولا يعلنها في الناس كما يعلنها الشعر (الوجداني)، ولها من عالمها الذي تعيشه ما ينوع ويزين

ويثري... مضافًا إليه عالم الأخريات والمجتمع كله في تقاليده القديمة ـ وفيها الغريب المستغرب ـ وتطوره الجديد الذي يبدو كالطفرة، وفيه ما يبدو شاذًا...

ولا يخص هذا الكلام سميرة خاشقجي (من مواليد ١٩٤٠ كما يذكر د. نصر محمد عباس) كثيرًا ـ أو قليلا ـ فقد رأيناها في «المعجم» وكأنها من عالم آخر، تكاد تحتوي المراهقة أركانه وزواياه فتتلقفه القارئة والقارئ من المراهقين والمراهقات في المملكة وخارجها وربما زاد الخارج عل الداخل. قال نسيم الصمادي في مقالة: «دراسة أدب المرأة السعودية القصصي»، الذي نشره في مجلة «عالم الكتب» مج١، ع٤ (ربيع الآخر ١٤٠١/ فبراير ١٩٨١): (... الملاحظ على كتابات (سميرة خاشقجي) أنها كاتبة عاطفية منتمية، تعيش أجواء روائية سينمائية، وهي تظن أنها تمارس أدبًا واقعيًا حيًا، لأن الواقع في نظرها لا يزيد على العلاقات الشخصية والممارسات الروتينية التي تحكم يومها، وهي لهذا تتجرأ وتقول: (أنا أكتب القصص وأحيا الواقع، وأكتب الواقع وأنا أعيش القصص (....) وتقول: وما العيب في كتابة القصص العاطفية؟...) ـ مقالة الأستاذ الصمادي مهمة في بابها، جادة مخلصة، وسنفيد منها، ونجعلها في مراجعنا.

وسميرة خاشقجي كما في دليل الكاتب السعودي: سميرة محمد خاشقجي. اسم الشهرة: بنت الجزيرة العربية. تاريخ الميلاد ١٩٤٠/٨/١٥. المشاركات الثقافية: إصدار مجلة الشرقية، تأسيس نادي فتيات الجزيرة وجمعية النهضة السعودية بالرياض.

وقد رأينا شيئًا من ذلك خلال المعجم، وذكر الدليل لها تسعة عنوانات (قصصية) آخرها: شجرة الحب.

ويبقى الأمر ـ فيما عدا ذاك ـ ونحن في النصف الثاني من العقد التاسع من القرن الهجري/ السابع الميلادي وكأننا لا نكاد نجد ما يذكر للمرأة، وإذا ذكرناه ورد تشبثًا... وكانت في ذلك نجاة خياط بمجموعة لها صدرت بتشجيع خاص من الأستاذ محمد حسن عواد وداره المستجدة آنذاك للنشر ومن حبه لرعاية الشباب

(والشواب)، ثـم ذكرنا خيرية السـقاف اعتماداً مـا كان لها في الجرائـد.... وتفاؤلا بمستقبل قريب.

ثم اختلـفت الحال، بعد ذالك، وكثرت الـقصاصات، وتعددت مجمـوعاتهن... ولم تخلـف خيرية السقاف الظـن إذ أصدرت «أن تبحر نحو الأبـعاد» (الرياض، دار العلوم ١٤٠٢/١٩٨٢).

وتنـاثرت في الـصحف والمجلات قصص كـثيرة، لعـدد غير قـليل مـن الكاتـبات القاصات، ومـن اللائي أصدرن (روايات) (قصصاً طـويلة) نذكر ـ اعتـماداً ما وصل إلينا من الآثـار، وعلى المراجع التي سبق ذكـرها ـ: هند صالح باغفـار، ولها: «البراءة المفـقودة» ١٣٩٢، «جـروح في جبـين الحيـاة» ١٣٩٨، «الهديـة» ١٣٩٩، «العـطاء الأكبر» ١٣٩٩، الرحلة الأخيرة ـ وفي كل كتاب قـصة طويلة، ولعائشة زاهر أحمد ـ «بسـمة من بحـيرات الدموع» ١٤٠٠/ ١٩٨٠، ولـهدى الرشـيد ـ «غداً سيـكون الخميـس» ١٩٧٧ ويذكر لهـا «دليل الكـاتب السعـودي» كذلك: «عبـث» (رواية)، ويذكر الدليل لهيام محمد أحمد الكيلاني: «الليل والغرباء» (قصة).

وإزائي: «غداً أنسى» للدكتورة أمل محمد شطا والمؤلفة (طبيبة سعودية من مواليد مكة المكـرمة... تعتبر الأدب هوايـتها الأولى... نشرت فـعلا مجموعة من قـصصها القصيـرة في بعض الصحـف المحلية. «غداً أنسـى» الرواية الأولى للمـؤلفة تلقي فـيها الضوء على جانـب من صور حياتنا الاجتماعية، وتـعتبر الكاتبة على حد تعبير الناقد الكـبير الأسـتاذ عزيـز ضياء (مـفاجأة لـي... وستكـون مفاجـأة للقـارئ حين يعـيش أحداث روايتها، وحين يتذوق أسلوبها السهل المـتدفق مع سلامته من الخطإ واستقامة عبارته)... ـ تهامة، الكتاب العربي السعودي (٨) ١٤٠٠/ ١٩٨٠).

ولقد تـهيأ لي أن أقرأهـا واستمتع بـها شكلاً ومضـمونًا، فرأيت ـ وعجـبت ـ ولم أعجب للتقدم الذي أحرزته المرأة، بل (الروايـة) كلها فإذا كان حامد دمنهوري أمس حدًا جديدًا في تـاريخ الرواية السعودية فـإن أمل محمد شطا حد جـديد جديد، في

روايتها عمق وتشابك، ولغة وطواعيـة.، وفن القصة ـ أو الرواية القصيرة إذا أردنا إلى الدقة ـ خطوة متقدمة في تاريخ القصة (الرواية السعودية) ينسجم شكلها ومضمونها انسجامًا ملحوظًا، وتديرها المؤلفة بحذق وتمكن وكأنها أطالت من قبل ألفة الروايات العالمية وتأمل بنائها كما أطالت تخمير التجربة التي تعرضها، فجاءت سلسلة جذابة يتعاطف معها القارئ وينسجم ويرى في قناعة ووضوح ورضا مكان الحنان من النفس الإنسانية، ومدى ما يمنح صاحبه من قوة تحمل، ومدى ما يغير في سلوكه من قساوة إلى دماثة ولطف ولين ـ والحنان قرين الحب أحيانًا.

وأحسب أن الأستاذ عزيز ضياء وهو الأديب السعودي البارز، من الشيوخ الذين واكبوا الحركة منذ بدايتها، وفقه اللغة الانكليزية وما احتوت من أدب وقصص؛ أحسب أنه قد وضع (الرواية) في مكانها اللازم ـ ولا يجامل.

نفدت الطبعة التي صدرت بحجمين... وهي تحت الطبع في إصدار جديد... ولا استبعد طبعة ثالثة...

وصدر في القصة القصيرة مجموعة «الزحف الأبيض» للطيفة إبراهيم السالم ١٤٠٢/ ١٩٨٢.

وذكر الدكتور نصر محمد عباس قصاصات أخريات نشرن ـ وينشرن ـ في الصحف، ومنهن من تعد مجموعة للطبع، أولها مجموعة تحت الطبع: جميلة فطاني، جواهر عبد الله العسعوس، جوهرة المزيد، رقية الشبيب، شريفة الشملان، عهود الشبل، فوزية البكر، قماشة الجابر...

ولا بد من أن يكون قد صدر لهن مطبوع... ولا بد من أن تدخل الميدان قصاصات أخريات.. وذكر الصمادي: حصة التويجري، وختم مقاله القيم بتفاؤل كبير. ويذكر «دليل الكاتب السعودي» فيمن يذكر: هالة محمد الكيلاني لها مجموعة تحت الإعداد، وفاطمة داود حناوي وتحت اسمها: «أعماق بلاد بحار» (؟) (قصص قصيرة)، و«الرجل الظل»، ولم ينص الدليل على الطبع، ولم يعين النوع

الذي ينتمي إليه الكتاب الثاني.

وفي العدد الأكبر من القصاصات من جمعن القصة إلى المقالة والعمل الصحفي -مباشرة وغير مباشرة ـ وقد يجمعن القصة إلى الشعر، ونكرر السؤال عمن تبقى وتستمر منهن فضلا عمن تجيد وتتقدم؟ وطبيعيٌ أن يبقى القليل، ويفسح الكثير المجال لجيل يطلع.

وخلاصة القول أن القصة في السعودية في تكاثر وتنوع لها مجالاتها للنشر وفي مقدمتها الصحف المتعددة المتنافسة، وتبقى الدرجة في الجودة والابتكار رهنًا بالمثابرة والاستفادة الجادة من التجربة المحلية متصلة بالتجربة العالمية (والعربية) ـ وبالانتظار، وقد تطورت فعلا، وزاد حظها من العنصر الفني في الأداء والعنصر النفسي في المضمون، ولعل قصة الشواب التقت ـ ولو قليلا ـ بمنهج قصص الشباب السبعيني، جاء في «عالم الكتب» ـ ذكر أعلاه، ص ٥٢٥: (رد المحرر الأدبي في مجلة اليمامة على رسالة وصلته من (قماشة السيف) قائلا: (أسلوب يشف عن مغامرة ابداعية (..) تملكين قدرة عجيبة على خلق الجمل الشعرية.. لكن عن طريق التداعيات غير المنظمة، والأحلام المبتورة، حتى أن لغتك تتحول إلى لغة تجريدية تميل إلى طرح الحكمة، ورغم كثافة الصورة، وحضور الشعر مما يساهم في غياب الموضوع.

كتابتك تنطلق من اعتبار الحلم كأساس، ولذلك يأتي الواقع بما فيه من قسوة وجهامة كشيء عارض...).

الخلاصة: والذي لا شك فيه أن في البلاد جيلا من الشباب والشواب، لهم فنهم في الشعر والقصة، ولهم فكرهم فيما هو الأدب وما يكون، وبهذا الحاصل حاجة إلى دراسة علمية ناقدة، ويمكن أن يكون الدارس من الشباب لقربه منهم ومعرفته بهم، ويمكن أن يكون من جيل، سبق له ثقافة حديثة واسعة وفكر مرن وأفق واسع، وإذا كنت قد رشحت الدكتور منصور إبراهيم الحازمي فلمعرفتي الخاصة به، وإلا فقد يكون في البلاد ـ ولا بد من أن يكون ـ آخرون.

ومناسب أن نذكر هنا ما يعده عبد العزيز بن صالح التميمي (من مواليد جدة ١٣٨٦) من كتاب (يضم حوارات مع الشعراء والقصاصين من الجيل الجديد) وهو كتاب وثائقي يمكن أن يمتد مع الزمن وفي محاورات جديدة أو إعادة حوار سابق...

مرة أخرى ـ وليست أخيرة: القصة في تقدم وتطور، ولا بد لها من ارتكاز متين من الثقافة والفكر والمتابعة والجد لكي تحقق درجة أخرى... تحول دون التوقف أو الفتور أو الاجترار... أو التراجع.

مع رجاء لمن يجمع ـ أو تجمع ـ قصصًا متناثرة في كتاب، مراعاة تثبيت تأريخ النشر ومكانه للقصص المجموعة؛ وفي ذلك خدمة للدارس والناقد.

[المسرحية وكتابها:]

وتذكر المسرحية مرتبطة بالقصة أو ملحقًا لها، لأنها ما زالت في البداية وإن اكتسبت مع الوقت مشروعيتها بعد أن كانت صفرًا أو حلمًا أو غيابًا متصلاً بغياب المسرح نفسه، وربما النظرة غير المحللة له... ولن تبقى كذلك بعد اليوم...

ليست السعودية بعيدة جدًا عن أخبار المسرح العربي (المصري) وأخبار المسرحيات العربية (المصرية) ولم يصعب الوقوف على هذه المسرحية أو تلك، ولا سيما عندما كانت شعرية بقلم أحمد شوقي، ومشاهدة هذه المسرحية أو تلك وللسعوديين ـ بدءًا من الحجازيين رواح إلى القاهرة ومجيء...

بل إن شباب النهضة الأولى في الحجاز رأوا بين ظهرانيهم من أدباء العرب المرموقين من كان على علم بالمسرحية والمسرح، وفيهم المتخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت مثل فؤاد الخطيب، والأديب الذي عاش في سورية ومصر مثل خير الدين الزركلي..

وإذا ذكرنا الزركلي ذكرنا صلته المباشرة بالسعودية وأدبائها حتى عاد سعوديًا... وإذا فاتنا اسمه عند الحديث عن القصة وله فيها أثر، فلا يفوتنا اسمه هنا وله (قصة تمثيلية نثرية... «وفاء العرب» مثلث أكثر من مرة، ابتداء من سنة ١٩١٤ ببيروت). وسيؤلف فؤاد الخطيب ـ في مقبل السنين ـ مسرحية شعرية بعنوان «فتح الأندلس».

أتمر أحاديث الخطيب والزركلي كلها دون ذكر للمسرحية والمسرح؟!.

ويأتي الشيخ أحمد السباعي - الفتى السباعي - رائدًا لا يكذب أهله في الأدب والمجتمع، في التعلم والفن... ألم يدع إلى تعليم المرأة؟ ألم يدع ويطبق الدعوة إلى الكتاب المدرسي... وأشياء كثيرة يهمنا منها هنا، وأعجبها، دعوته إلى المسرح وخطواته المبكرة فيه، ولكنها كانت إزاء ما جد في البلاد وكأنها في غير أوانها أو ظروفها، ولا بأس فيبقى للفتى - الشيخ فضله، وما أحسبه سكت تمام السكوت أو أن تكون بذرته من غير نبات وثمر... وكثيرًا ما احتفظت التربة بالبذرة حتى الوقت المناسب.

وبقي حقه محفوظًا في الأجيال، حتى إذا توفي (يوم الثلاثاء ١٤٠٣/١٢/١٦ - ١٩٨٤) تردد مع ذكر اسمه: المسرح، وقرر النادي الأدبي الثقافي في مكة المكرمة أن يطلق على مسرح النادي: مسرح أحمد السباعي تقديرًا للدور الذي قام به السباعي نحو تأسيس أول مسرح سعودي في مكة المكرمة.

ثم كان حسين سراج* ومسرحيتاه... بل مسرحياته الثلاث.

وأحمد عبد الغفور عطار في ترجمته لمفتش كوكول، وللزنابق الحمر لطاغور في طبعتين ١٣٥٢/ ١٩٧١، ١٣٩٨).

ولم تغفل «المنهل» هذا الجانب من أنواع الأدب الجديدة. وقد جاء في المنهل الفضي (ص ١٣٨) أن في العدد السابع من السنة الأولى (١٣٥٥/١٩٣٥) (أقصوصة تمثيلية بعنوان الاتفاق الأخير)، وفي العدد العاشر من اعداد ١٣٦٥/ ١٩٤٥ (رواية ذات فصل واحد) للأستاذ عبد الله عبد الكريم الخطيب) - ولم يكن مصطلح (المسرحية) قد بدأ أو استقر، فكانوا يسمونها رواية، وربما ميزوها بالرواية التمثيلية، شأن الحال في مصر وغيرها وربما سموها قصة وميزوها بالتمثيلية.

ثم كانت «الشياطين الخرس» لعبد الله عبد الجبار، وأمكن أن تعد مسرحية رائدة، قال إبراهيم هاشم فلالي في «المرصاد» ج٢: (إن القصة والمسرحية بالمعنى المفهوم

حديثًا، دخيلتـان على الأدب العربي، وناشئتان فيه، (...) ومما لا شك فيه أن بلادنا (...) لم تحاول أن تسهم في أدب المسرحية محاولة جدية، حتى جاء الأستاذ عبد الله عبد الجبار (...) وأخرج لنا مسرحيته «الشياطين الخرس» في جرأة وحماسة... وقد تأثر الأستاذ محمد حسن عواد بهذه الجرأة بعد قراءته المسرحية وانفعل انفعالا شديدًا، وطلب أن يقدم هذه المسرحية، ولم يمانع الأستاذ عبد الله - طبعًا - في ذلك (...) ولا يمتلك النقد الأدبي في «المرصاد» إلا أن يعتده رائدًا جريئًا موفقًا، ويستحثه على مواصلة كتاباته المسرحية الحقة، فإنه - إلى الآن - أقدر كتابنا على معالجة هذا اللون المسرحي الجريء (...) ولعل الأصداء التي تجاوبت بها النفوس من مسرحيته هذه تكون حافزًا له على كتابة مسرحية أقوى فما أكثر المواد الصالحة للمسرحيات في بلادنا).

لم يكن الأستاذ عبد الله عبد الجبار الأول في تاريخ المسرحية السعودية، ولكنه الأول في الجرأة على تناول موضوع حساس خطير في صميم المجتمع. ولم يكن الأستاذ فلالي مالكًا لزمام النقد المسرحي، وإنما تعامل مع المسرحية على أنها قصة... وأنها جريئة... ومن ثم خيَّب الأستاذ عبد الله عبد الجبار المعجبين به، فلم يستجب للنداء ولم يواصل المسيرة.

وقال الفوزان ٧٠٢/٢: (وقد كتب أدباء الحجاز الكثير من المسرحيات الشعرية والنثرية، مثل مسرحية «أصدقاء الظروف» للعامودي و «الهجرة» للعطار، و«في غار حراء» لإبراهيم فودة، وغيرهم. ولكن الجميع بقي رهن المؤلفات لم يمثل...).

ولو رجعت إلى المعجم لوجدت مادة لموضوع المسرحية عند حسن عبد الله القرشي، وعبد السلام هاشم حافظ..

ولا بد من الانتظار، فما زلنا بعيدين عن العوامل الحقيقية والمفهوم المدني المتدرج... ويكون للخليج مسرحياته ومسرحه، في البحرين والكويت... فضلا عن العراق، (والبصرة)... وتأتي الإذاعة، ويأتي التلفزيون... ولا بد من مناهج محلية

تجمع بين التسلية والموعظة... فكانت...

ولعل هذا أقصى ما بلغته الحال ونحن في أواسط ثمانينات القرن الهجري - أواسط ستينيات القرن الميلادي - ولتلفزيون جدة أثره وفضله، وما زلت أذكر مسرحية شعبية يتردد فيها اسم «مشكاص»، وهكذا تبدأ الأشياء، فالمسرحية كائنة ما كانت سعودية، والممثلون.. سعوديون (حجازيون أول الأمر)....

ولا تنس رمضان ومتطلبات مناهجه، وهنا تبرز «أم حديجان» وهي - أي هو أبو حديجان عبد العزيز الهَزاع - أعجوبة أحكمتها الحاجة، لا بد من التمثيل في إذاعة الرياض، ومن أين لك بالممثلين؟ والممثلات؟! إن رجلا نجديًا موهوبًا في التمثيل، وتقليد الأصوات وتأليف المسرحيات من الحياة اليومية ومن لا شيء... يتولى المهمة كلها فيجيد ويجتذب ويدل على قدرة في الابتكار... وما زال مستمراً... ولكنه لم يتطور... وقد مضى عليه ما يقرب من ربع قرن... وكان يمكن أن يتطور لو كان في غير ظرفه وحسبك أنه كان يمثل وحده فرقة كاملة فيها الزوج والزوجة والجد والجدة والأطفال... على اختلاف في الأصوات والعقليات والأحداث.

ولا يطول الانتظار - بعد اليوم - فالمظاهر المدنية تأخذ طريقها وتتزايد، وتثبت ما فيها من امكان الخير. وإذا لم يكن في البلد دور للسينما بمعنى الكلمة، ففي الألوف وعشرات الألوف من البيوت أجهزة صغيرة للسينما، تعرض مايشاء أهل البيت من الأفلام، ثم جاء (الفيديو)... - والسينما حاجة فنية قائمة بذاتها، ولكنها تمثيل أيضًا...

ويزداد السفر إلى الخارج، والدراسة في الخارج، والاتصال بمناهج التعليم، وأساليب شغل الفراغ ومنه المسرح والتمثيل... والكويت قريبة جدًا بمسرحها وأكاديميتها وما تنقل إلى العربية من روائع المسرح العالمي.

وهكذا... تتطور الأشياء في هدوء.... ولا بأس هنا حتى بالبطء...

وتبقى المشكلة الأساس في الممثلين: المرأة، العنصر النسائي، وتحل مؤقتًا كما حُلّت

في بدايات المسرح في كل مكان، بالرجل، بالولد الذي يتنكر بزي المرأة، أو البنت، كما يمكن الاستعانة بأقطار خليجية سبقت في هذا المضمار، على سبيل الاستعارة...

وكان مناسبًا أن نذكر ضمن السعي الفردي أو الطموح الفردي الذي يعبر عن شعور غير فردي بالحاجة إلى الفن المسرحي على وجه سليم... نذكر عبد العزيز الربيع، وقد قصد مصر للدراسة العالية - في الأدب والتربية - ولكنه انحاز - مع ذلك - فرديًا ذاتيًا إلى المعهد العالي لفن التمثيل العربي في القاهرة... فأخذ الذي استطاع أن يأخذه - والعبرة في العملية نفسها. وسيعود الربيع إلى التعليم في المدينة ويصل منصب مدير التعليم فيها لسنوات... ولك أن تتصور مكانًا للمسرح والتمثيل في أحاديثه ومشروعاته... وتعليمه... - والبقية تأتي.

- تأتي متى؟

[الفنون:]

- الآن إن شئت... مع قليل من الصبر... وتذكر أولا أن النوادي الرياضية ذات علاقة بالموضوع وتذكر مسارح جامعية، ومدرسية... وتذكر أكثر من ذلك قيام الرئاسة العامة لرعاية الشباب.... وصدور قرارها بتأسيس (الجمعية العربية السعودية للفنون) في عام ١٣٩٢هـ... ثم تعديل الاسم في غرة عام ١٣٩٨ إلى (الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون). مقر الجمعية الرئيسي: الرياض، ولها فروع في جدة، الطائف، الدمام، الأحساء - وتتزايد، وفي مدة قصيرة جدًا لتأسيسها أصبح يلتف حولها أكثر من ثلاثة آلاف أديب. فنان)، كان ذلك عام ٩٨ - ٩٩ كما جاء في «الدليل الإعلامي» للجمعية فكيف وكم هم - وهي - الآن؟ ومهم أن نقف عند الجمعية مع (رئيس مجلس) إدارتها الأستاذ محمد أحمد الشدي في لقاء لمجلة «المجالس» الكويتية معه (١٩٨٤/١١/٢٤) قال:... ما قدمته الجمعية خلال الأحد عشر عامًا التي مضت قل أن يتحقق في زمن قصير هو عمرها (...) ... تأسس نادي القصة السعودي... البدء بثلاثة أعمال موسوعية:... الألفاظ المصطلح عليها

عند أهل الفن،... النباتات في الجزيرة العربية... الألحان الشعبية في الجزيرة العربية هذا إلى جانب كتاب عن الرسم الإسلامي والتعبيري... تنظيم موسم ثقافي منبري يشتمل على المحاضرات والندوات... إصدار ملف الثقافة والفنون.. إنشاء مكتبة.. إصداراتها زادت على ٦٠ كتابا.. شاركت في معارض للكتاب.

من مشروعاتها المقبلة إصدار مجلة تعنى بالثقافة والفنون التي يعد الملف نواة لها.

تهمنا الجمعية كلها في دلالة وجودها استجابة طبيعية لشعور حي وحاجة قائمة، وتهمنا بمركزها الرئيسي الذي تفرع إلى ست لجان: الثقافية، لجنة الفنون التشكيلية، لجنة الفنون المسرحية ، لجنة الفنون الشعبية، لجنة الموسيقى والغناء، لجنة الإعلام والنشر...

و(تعد لجنة الفنون المسرحية العدة لنشاط مكثف من أجل تقديم العديد من العروض المسرحية ذات المستوى الجيد، وعلى هذا الأساس فقد حصلت... على ثلاثة نصوص لثلاث سهرات... تنتجها بالتعاون مع التلفزيون في المحطات الثلاث: الرياض، جدة، الدمام ويشترك فيها أعضاء اللجنة في الجمعية وفروعها في المنطقة الغربية والشرقية).

وكان من نشاطات اللجنة أن قدمت في المركز الرئيسي في الرياض مسرحيتي «طبيب بالمشعاب» ، و«آخر المشوار»..

وفي فرع جدة (بتاريخ ٩٨/١/٢٥ هـ تم تسجيل حلقة من مسرح الإذاعة الذي اشترك فيه عشرة من الفنانين...) في برنامج (بطاقة دعوة) وحلقة أخرى لفنانين آخرين في الشهر التالي.

وفي فرع (الدمام) (كان أول عمل... هو... مسرحية بعنوان (رقم ٣)... من إعداد وإخراج ناصر المبارك وشارك فيها عدد من الفنانين البارزين في المنطقة) وقد انشأ الفرع ـ فيما أنشأ ـ قاعة (لعمل بروفات التمثيل والأعمال المسرحية).

وفي (الأحساء) (أجريت التجارب والبروفات اللازمة لعرض مسرحية اجتماعية

من ثلاثة فصول بعنوان «عقاقير وعقارات» يشارك في تمثيلها عدد كبير من ممثلي الفرع من الشباب السعودي، إضافة إلى أن فرع الجمعية بالأحساء يشارك الأندية الرياضية الموجودة بالمنطقة في حفلاتها المسرحية).

كان هذا في عام ٩٨ ـ ٩٩ وسارت الأمور بعده وطيدة، ينظر حديث الشدي في «المجالس» وفيه تعمل الجمعية على تقديم مسرح سعودي جاد...) ـ ومضى يعدد العروض... ولا بد من تطور في المسرح والمسرحية... وقد تتبنى رئاسة رعاية الشباب تأسيس معهد للفنون الجميلة لتأتي الأشياء جامعة بين الهواية والمهنة، وقائمة على الأسس العلمية... وقد تبتعث شبابًا إلى مواطن المسرح والمسرحية، وقد تنتدب مختصين بشؤون المسرح والمسرحية...

وماذا بينها وبين المعهد المقترح؟

وعلى ذكر الفنون التشكيلية فقد تطورت الأمور كثيرًا، وكنا قد رأينا في بداية الغيث الفنان عبد الحليم رضوي... وقد ابتعدنا عن الحرام... وعن رسم الجسم من غير رأس أو بوضع خط قاطع للحياة بين الرأس والجسد... واعترفت المدارس بالرسم وعنيت به وصار الأطفال يدخلون المسابقات ويدعون فيفوزون بالجوائز..وانظر مثلا «دليل المعرض الجماعي الأول» للجنة الفنون التشكيلية بالجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ٩٨/٥/٢٤ ـ ٩٨/٥/٣٠ ثم الأدلة الأخرى، والمعارض الأخرى المتوالية جمعية وفردية ـ والأدلة كتب... بانتظار كتب خاصة، وكتب نظرية وكتب في فلسفة الفن، وقد بدأت البداية بعبد الحليم رضوى وقد صدر له في ١٩٨٣/١٤٠٤؛ الحياة بين الفكر والفن.. ونترك الفنون التشكيلية، ونتعدى الموسيقى.

ولا نترك الفنون التشكيلية، ولا بد من النص على التقدم الذي أحرزه الفن التشكيلي، وما صار للبلاد من معارض في الداخل والخارج، ومن هذه المعارض ما يرعاه المسؤولون أنفسهم بافتتاحها وتشجيع العارضين فيها واقتناء اللوحات والآثار بأسعار مشجعة..

ثم نذكر دخول المرأة في هذا الميدان، وقد دخلته من أوسع أبوابه. جاء في «عالم الكتب» ع٢ مج١ ص ٢٤٧ - ٢٥١ عرض الكتاب ألفته الفنانة السعودية صفية بن زقر بالانكليزية بعنوان «نظرة فنانة للماضي» وفيه: (شهد الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية خلال النصف الثاني من القرن العشرين انطلاقة تقدمية ملموسة، حيث نهض نهضة لحتمية تاريخية.. يضم الكتاب مجموعة كبيرة من أعمال الفنانة التشكيلية صفية بن زقر(....) والفنانة صفية بن زقر لها دور لا ينكر في دعم الحركة التشكيلية المعاصرة في المملكة العربية السعودية، فهي أول فنانة تقيم معرضًا خاصًا مع زميلتها الفنانة منيرة موصلي في مكة المكرمة عام ١٩٦٨م، افتتحه الأمير مشعل بن عبد العزيز آل سعود أمير مكة المكرمة في تلك الفترة(...).

الفنانة صفية بن زقر ولدت في جدة... أقامت ثلاثة معارض شخصية في جدة... ومعرضًا في الظهران، وأقامت معرضًا دائمًا في لندن...

وأصدر «المنهل» عددًا ممتازًا لمناسبة بلوغه السنة الخمسين، خاصًا بالفن (شعبان - رمضان ١٤٠٤/١٩٨٤) فيه ما لم نكن نتصوره عن الرسم والنحت والمسرح والموسيقى والفلسفة (علم الجمال). ممن كتب فيه (الكاتب الإسلامي الكبير أحمد محمد جمال) في موضوع (الفن وموقف الإسلام منه) فكان مما قال: (إن الإسلام كما يحرص على تقديم المعاني والمضامين عن العقيدة (...) يحرص أيضًا على أن يكون أسلوب عرضها لافتًا للأنظار، ولافتًا للأفكار ومؤثرًا في القلوب... وهذا هو (الفن) أداة جمال ريشته ولوحته وموسيقاه)، ومضى (الكاتب الإسلامي الكبير الآخر: الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار خطوة أبعد في تفصيل أكثر. هذا غير كلمة طبيعية جدًا كتبها الفنان د. عبد الحليم رضوي - رئيس الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، بجدة عنوانها: الفنون في العالم المتحضر.

وفي «المنهل» الخاص بالفن مجال للمرأة، تقرأ فيه مفهومها للفن، والتزاوج بين الأدب والفن؛ وتقرأ: (الأزياء تاريخ وتطور) و(مسرح العرائس)؛ وتقرأ (لقاء وحوار مع الفنانة فوزية عبد اللطيف - من مواليد جدة، شاركت في عدة معارض في

الداخل والخارج - وقد تحدثت عن لوحاتها الجديدة، ورأيها في الفنانات السعوديات): (الأخوات الفنانات صفية بن زقر وسلمى الكثيري ونوال موصلي يعبرن في لوحاتهن عن تراثنا القديم، وهن يتبعن الفن الكلاسيكي (...) أما الفنانتان دينا رشدي واعتدال عطيوي فهما تتبعان الفن التجريدي (...) أما الفنانة منى القصيبي فإن اتجاهها هو إحياء التراث الإسلامي الزخرفي... تحياتي لكل فنانة تشكيلية أعطت وكرست حياتها لهذا الفن العريق...).

ونرى في «المنهل» - وورق العدد صقيل - صورًا عالمية ومحلية وإسلامية أجيد نقلها بألوانها ودقائقها. وتذكرنا هذه الصورة بما صار شائعًا مألوفًا في الصحافة السعودية، وفي المجلات خصوصًا (تنظر «الفيصل» مثلا.... و«سيدتي» مثلا) ثم ما كان من فن الكاريكاتير، وتزيين الكتب، والأغلفة خاصة.. (تنظر مطبوعات تهامة - مثلا).

ونعود مع «المنهل» إلى المسرح لنقرأ فيه: (المسرح الوطني إلى أين؟) بقلم الدكتور عبد الله محمد الزيد مدير عام التعليم بالمنطقة الغربية: (لقد شاهدت نماذج [من الأعمال المسرحية] في الجامعات والحفلات السنوية المدرسية، ووجدت أن وضعنا يبشر بخير حقيقي) ودعا جادًا إلى إنشاء (المسرح الوطني)، وقال الأستاذ محمد سعيد العامودي: (أول ما نبدأ به هو تكوين فريق مسرحي متوفر الكفاءات) تمهيدًا لقيام المسرح الوطني و(مهم جدًا قيام المسرح الوطني)، وقال الأستاذ غالب حمزة أبو الفرج: (إن المسرح في عالمنا اليوم هو مدرسة جديدة يمكن أن نمنح عن طريقه للرأي العام ثقافة وطنية وتاريخية كبيرة، واعتقد أن الوقت قد حان لأن يبرز المسرح إلى الوجود).

وطبيعي أن يدخل شيء من شؤون المسرح والمسرحية في درس النقد الأدبي من كليات الآداب ولكن الحال الخاصة للبلاد قد تستدعي تعاون الجامعة مع (الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون) فيكون فيها - غير الفرق الجامعية القائمة فعلا - درس خاص للمسرحية والمسرح ينهض به أستاذ متخصص....

ويهمنا في «المعجم» الكتاب، ولا بد من وجود للنص المسرحي، والتقدم به في الاحتفاظ بالنصوص القائمة وطبعها في كتب وتشجيع الكتابة ورصد الجوائز للفائزين مع تشجيع خاص للمسرحية التي تكتب بالفصيحة ـ وقد حصل شيء من هذا.

نعود لنذكر (المؤتمر الأول للأدباء السعوديين)(١٣٩٤)، ولا نذكره لذاته لأنه لم يتعرض للمسرح أو المسرحية وإنما لنرى الشيخ حسين سراج. وقد رأى نفسه منسيًّا، فتألم واستشاط ثم كأنه مر بالبيت القائل:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخرًا يكون كصالح الأعمال

وللرجل ثلاثة أعمال سابقة هي ثلاث مسرحيات: «الظالم نفسه» (١٩٣٢)، «جميل بثينة» (١٩٤٢)، «غرام ولادة» (١٩٥٢) فلينبه إلى وجوده بها، وليعتب على من نسيه أو نسيها، ثم إن إدارة تهامة للنشر حاضرة ولكن ليبدأ أولاً بجديد، وهكذا كانت «الشوق... إليك» مسرحية شعرية (١٤٠٢/١٩٨٢) ثم ليرجع إلى الذخائر، وها هي ذي تهامة تصدر «غرام ولادة ـ مسرحية شعرية» في طبعة ثانية (١٤٠٢/١٩٨٢)، ونبقى ننتظر المسرحيتين الأخريين وقد نفدا، واستحال العثور عليهما.

ثم نذكر عصام خوقير ـ وهو قصاص لم نورد اسمه هناك ادخارًا لموضوع المسرحية ـ وهو صاحب «في الليل لما خلي» بمسرحياته الإحدى عشرة. ثم «السعد وعد» التي سماها «مسر ـ واية» ولا بد من أن يكون له غير هذا...

ينظر عن المسرحية، الفوزان؛ وتحيل مجلة «عالم الكتب» على مقالة لعبد الله الماجد بعنوان: المسرحية في الأدب السعودي ـ «قافلة الزيت» مج ١٨، ع ٨، شعبان ١٣٩٠ ص ص ٤٢ ـ ٤٤.

وتذكر في عدد ربيع الآخر ١٤٠١/ فبراير ١٩٨١ ص ٥٥٦ لعبد الله بوقس: «المتنبي شاعر العرب»: مسرحية من ثلاثة فصول، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ ـ ٧٧ ص.

وتذكر له: «الزاهد »(درامة تاريخية) عن حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز، جدة، دار الشروق ١٣٩٧/ ١٩٧٧، ١١١ ص - من المسرح الإسلامي.

وفي نظرة في «دليل الكاتب السعودي» مايزيد العلم بشؤون المسرح والمسرحية، ففيه - مثلا - لسليمان الحماد (مواليد الرياض ١٣٦٣): (النص والانتاج مسرحية النادي الأدبي بالرياض)؛ وفيه لعبد الرحمن الشاعر (مواليد حائل ١٣٥١): «آخر المشوار»، مسرحية عرضت على المسرح المحلي، و«حلو ياحنظل» لم تعرض؛ ويؤكد الدليل ما ورد عن آثار عبد الله بوقس (مواليد مكة ١٩٣٠).

إذا عددت هذه المسرحيات بدايات فهي كذلك، وهي طلائع وأول الغيث، ولكننا نطلب ما هو أكثر فنًا وأصلح للتمثيل ولا يأتي ذلك دون تفرغ وتخصص وابتعاث إلى الخارج وانتداب من الخارج... فقد صار الأمر واقعًا، وجد الجد. وننتظر من النوادي الأدبية التفكير الجازم بإنشاء النص المسرحي، ولا بأس من أن ترصد جوائز له... لتضافر جهودها مع (الجمعية)... وكان الأستاذ عبد العزيز الربيع - رئيس نادي المدينة المنورة - يدرك جيداً مثل هذه المهمة، وقد رأينا عوامل الإدراك في مجرى حياته الدراسية في مصر ثم رأينا أدلتها في مقدمته لكتاب صدر عن النادي بعنوان: «الفنون التعبيرية - المسرح، الموسيقى، السينما» - وإذا كان الرجل قد توفي، فلن يموت أثره، ويمكن للنوادي أن تستزير المحاضرين المختصين... أو تتعاون هي والجمعية على ارسال من يدل على (موهبة) في الكتابة أو التمثيل إلى مواطن المسرح ليطعموا الاستعداد بالعلم، حتى لو كان الابتعاث لمدة محدودة لا تشترط الشهادة...

[الأدب الشعبي–الشعر العامي–القصص–الأمثال:]

وفي منهج (الجمعية) و (النوادي) العناية بالتراث الشعبي... ولهذه العناية في (المملكة) تاريخ... وبداية... لم تخف على (متصفح) «المعجم»... فلقد (تجمد) الإبداع الأدبي في الجزيرة قرونًا طويلة، بعد عصور الريادة الرائعة والازدهار العجيب، لقد غاض الشعر، وقل غاضت الشاعرية لأن النظم لم يمت، والذين

يملكون المفردات الفصيحة ويعرفون البحور ويقدرون على الرصف الموزون المقفى موجودون على أية حال، وهم في الغالب العلماء (في الدين) والشيوخ (في النحو واللغة)، ولا تعدم مع ذلك انفعالا يدخل الموزون المقفى لحزن أو فرح أو حماسة لمذهب أو دعوة إلى معركة... ومن ذلك ما صار دواوين، ومن الدواوين ما طبع، ومنها ما سيطبع، ويبقى الأساس في قيمته: التاريخ.

أما السائد من النظم، في نجد والبادية خصوصًا، فهو باللهجة العامية وقد عرف بالشعر النبط، وفي هذا النظم وقل الشعر النبط (أو النبطي) يمكن أن تجد تجويدًا وأصالة ودلالة على الشاعرية والموهبة، ثم إنه عزيز على أهله وسامعيه، كائنًا ما كان، لأنه مفهوم ولأنه يعايشهم وفيه أحداثهم ومواقفهم وأنسابهم ومشاعرهم... فهم يحفظونه ويتوارثون روايته وكثيرًا ما صحب إنشاده إعجاب المنشد وإعجاب السامعين، ويبرز فيه أعلام تذكرهم المجالس وتفخر بهم القبائل...

ومن هنا ترى عناية العصر الحديث به، فتجرد المؤلفون لجمعه وحفظه ودراسته وإخراج الكتب التي تقيه الضياع... وكانت الكتب غير قليلة، وعني الشيخ عبد الله ابن خميس به عناية المعجب الواثق من قيمة ما يجمع ويدرس.

ونذكر له كتابه «الأدب الشعبي في جزيرة العرب» - وقد أعيد طبعه، ثم «راشد الخلاوي: حياته وشعره - حكمه - فلسفته»، الرياض، دار اليمامة ١٣٩٢/ ١٩٧٢ - ٣٨٢ ص، وكتاب «أهازيج الحرب وشعر العرضة» الرياض، ١٤٠٢ - ٣٦٨ ص، ولن يقف الشيخ ابن خميس من الشعر الشعبي عند حد.

وإذا كان سباقًا في الدراسة فقد وجد قبله روادًا في الجمع والاستقصاء، منهم خالد الفرج وعبد الله خالد الحاتم ومحمد بن يحيى ومحمد العمري ثم «الدرر اليتيمة في أشعار النبط القديمة» لناشر مجهول، و«الأزهار النادية»...

ولم يقف الأمر عنده وعندهم وتستمر سلسلة «الأزهار النادية من أشعار البادية» التي يصدرها محمد سعيد حسن كمال* صاحب مكتبة المعارف بالطائف، ونذكر

مكتبة النهضة، وما يؤلفه سعد بن عبد الله بن جنيدل وتصدره له جمعية الثقافة والفنون عن شعراء العالية خاصة ـ من أعلام الأدب الشعبي، وعبد العزيز الأحيدب، وفهد الرشيد... وبرز أبو عبد الرحمن بن عقيل في العناية (الصارخة) بما هو عامي وشعبي، وفي مقدمته الشعر.

وللشعر النبط غير ما يستعذبه فيه أهله من إحساس بالتجويد... ما يكون مصدراً للدراسة التاريخية، وهذا ما نادى به الشيخ الجاسر وكرر النداء بشرط الدقة في ضبط الرواية والحرص عليها كما هي في لفظها وتركيبها دون زيادة أو تغيير أو تصرف.

ومن إعجاب القوم بالشعر النبط أو من الاستجابة لهذا الإعجاب والاهتمام كان له في إذاعة الرياض برنامج خاص دائم.

ولي على هذا وذاك تعليق قصير ونصيحة صغيرة... أما التعليق فهو أن ليس كل ما كان نبطيًا كان جيدًا أصيلا، فلا بد من نقده ومن أن يتولى ذلك صاحب ذوق ومراس... خدمة لجيل جديد يسمع الشعر النبطي ويرى الإعجاب... دون أن يرى مواطن الإعجاب أو أن يرى مواطن للإعجاب.

ثم إن الجيد من شعر النبط عندما يوجد، يوجد في قديمه أولا، يوم كان سائدًا وله شعراؤه الذين يعدلون شعراء الفصيحة بوجه من الوجوه أو هكذا ينظرون إلى أنفسهم، وينظر المجتمع إليهم... أما هذا الذي ينظمه معاصرون لنا، وفي أغلبهم مثقفون... فهو ليس شعرًا نبطًا بمعنى الكلمة، وأولى أن يميز باسم الشعر العامي أو ما أشبه ثم إنه كله ـ أو جله ـ فاقد للنكهة الفطرية التي يتمتع بها الجيد من شعر النبط. وها هي ذي النصيحة تختلط بالتعليق....: التمييز، والتذوق الصحيح، والحكم العادل... وإني كثيرًا ما استمعت إلى برنامج الإذاعة وقلما وقعت على الجيد المستجاد، ولكني كنت دائمًا أسمع الإعجاب يكال بغير مكيال... للجديد المتكلف المصنوع فضلا عن القديم لأنه قديم أو مشهور أو يسجل حادثة غريبة في الحرب أو

في الغرام...

كاد جمع الشعر النبط يستنفد غايته ومنجمه وإن بقيت بقية على الأيدي أن تصل إليها قبل ضياعها...

ومن التراث الشعبي الأمثال وكان للأستاذ عبد الكريم الجهيمان والشيخ محمد ابن ناصر العبودي في جمع الأمثال المذكور المشكور... قبل ١٣٩٠/ ١٩٧٠ وبعده طبعًا وإعادة طبع ـ ومدارها الأول: نجد.

ثم يدخل الشيخ أحمد السباعي الميدان فيكون له: «الأمثال الشعبية في مدن الحجاز» (تهامة ١٤٠١/١٩٨١) وهو تحت الطبع لدى تهامة ثانية. ويلحق به حسين عبد الله محضر بـ «الأمثال العامية في مكة المكرمة» ـ مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، مطابع مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ١٣٩٩، يحيى إبراهيم الألمعي ـ «الأمثال الشعبية في المنطقة الجنوبية» (عسير)، مطابع الرياض ١٤٠١.

ومازال الموضوع يحتمل الزيادة في الجهد... والمملكة أوسع من نجد والحجاز... فهناك الشرقية وأمثالها، وجازان وأمثالها وعسير وأمثالها...

ومع الشعر والأمثال: الحكايات... ورأينا في المعجم من تنبه إليها، ونذكر مرة أخرى الأستاذ عبد الكريم الجهيمان مع محمد سعيد حسن كمال مع فهد المارك... وما زال الباب مفتوحًا...

ونذكر هنا مما وصل إلينا العلم به من ثمرات (جمعية الثقافة والفنون) في سلسلة «المكتبة السعودية»: «حكايات من الماضي» تأليف محمد بن زين بن عمر ـ الرياض، مطابع الفرزدق ١٤٠٢ ـ ٢٢٨ ص. و«مأثورات شعبية» تأليف محمد العبودي ـ الرياض، مطابع الفرزدق ١٤٠٢/١٩٨٢ ـ ٣٨٨ ص.

وستقوم ـ وشرعت تقوم ـ على التراث الشعبي دراسة ودراسات في فنونه المختلفة وفي دلالته التاريخية... وفي لهجاته وصلتها بالفصيحة... إلى جوار جمع التراث نفسه في مواقع ما زالت غير مشبعة.

ونذكر هنا: «الأدب الشعبي في الجنوب» (تهامة ـ جزءان) للأستاذ محمد بن أحمد العقيلي، أشرفت على إصداره دار اليمامة، و«معجم اللهجة المحلية لمنطقة جازان» له، ج ١، صدر في منشورات «تهامة» بجدة...

وللمرأة مكان ما من التراث الشعبي، الشعر، ومن هنا كان كتاب «شاعرات من البادية» للأستاذ عبد الله بن رداس...

وفي المعاصرات من تقول الشعر بالعامية ويرد هنا اسم سلطانة السديري التي رأيناها شاعرة بالفصيحة كذلك ـ فهي (نداء)، ولها ديوان في الشعر الشعبي، يقول «دليل الكاتب السعودي» إنه (تحت الطبع) ويزيد أن لها كتاب «صور من المجتمع» يتضمن حكايات من واقع البيئة السعودية، وقد ذكر (ساعاتي) هذا الكتاب وقال: إنه طبع في بيروت، دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٥، ١٤٢ ص.

وطبيعي أن يقع الاهتمام ـ ومنذ البداية ـ بالأدب الشعبي على أنه نشاط قام وحدث والحرص عليه كالحرص على غيره من مظاهر الحياة، فضلا عما قد يكون فيه من جمال وجودة... ولا يمر ببال المعنيين به منافسة اللغة العربية الفصيحة أو الجور عليها أو الدعوة إلى العامية بديلا عنها...

[اللغة–المجمع اللغوي:]

هذا هو الطبيعي، ومع ذلك لا تعدم من يضيق بالعامية حرصًا منه على الفصيحة وغيرة، وإذا لم يعلن الضيق عن نفسه صريحًا في هذه الأيام، فإنه لا بد من أن يحسب حسابه، بل إنه صرح في الماضي القريب يوم كانت السيادة للعامية ـ والجهل ـ وكان المخلصون في بداية النهضة تهمهم يقظة الأمة والفصيحة جزء لا يتجزأ من الأمة ويقظتها فكيف إذا كان القائمون بالنهضة أدباء ويريدونها نهضة أدبية كما هي نهضة سياسية واجتماعية...

أجل، هي نهضة باللغة الفصيحة بعد كبوة وخمول وضمور، ولا يكفي هذا الذي يدرسه (الشيوخ) فقط فهم مهما بلغوا في العدد، فئة محدودة مقفلة، واللغة كيان حي،

يراد لها العموم، ويراد لها النص الأدبي المبدع الجديد، ومجالات التأليف الواسعة...

ولك أن تلم بما كان يكتب في مطلع النهضة في الحجاز قبيل العهد السعودي وبعيده لترى الغيرة على اللغة، ولغة الأدب والكتابة والتأليف... وكان من آثار ذلك في «المعجم» كتاب لمحمد سرور الصبان: (ولا تعدم من أن تستشف خلاله من يمنح العامية أهمية خاصة)، وكتاب عبد القدوس الأنصاري: «إصلاحات في لغة الكتابة والأدب»...

وقد نجح السعي - مع عوامل أخرى - في لغة أدبية تناسب النهضة وتدل على الجدة ولك من أمثلتها ما ورد في كتاب «أدب الحجاز» و«وحي الصحراء»... ومن يدري فقد يكون في التنبه إلى حماية الفصيحة ما ورد عن مصر من دعوات إلى العامية... ولكن مصر لم تصدر تلك الدعوة وحدها، وإنما أصدرت الجيد من الفكر والإبداع... والسليم من اللغة في الشعر والنثر... والتأليف والصحافة... والعرب في كل مكان يتأثرون بذلك وينتفعون... وتحسنت اللغة الأدبية على وجه ملحوظ، سبقَتْ إليه الحجاز، وشتان بين الشعر والنثر قبل النهضة، وبعدها، ثم لحقت نجد والشرقية... والموازنة بين لغة عهدين قائمة والفروق لا تخفى...

وفي مصر - كما في الشام - مجمع للغة العربية... فليكن للسعودية مجمعها اللغوي واعلنت الدعوة إليه - وربما كان الأنصاري الأول - أو من الأوائل - في الدعوة مع كثير من الثقة بالنفس وبالنتيجة، ولكن مجمعًا للغة ليس أمرًا سهلا، ولا بد له من عدد من العلماء باللغة يفيه حقه، ويقوم برسالته. ولم يكن هذا العدد بالمتهيئ، ومن هنا تصدى للدعوة من لم يقبلها على إطلاقها... وقد يكون الأول في التصدي! أو من الأوائل - الشيخ حمد الجاسر، ووقفت المسألة عند هذا الحد وظلت تتردد بين حين وحين، وربما أسيء فهم موقف الجاسر فعد مضادًا للدعوة جملة وتفصيلا، وما هو بذاك، وحانت فرصة إلى أن يوضح ما هو عليه وكأن الدعوة سابقة لأوانها وأن تقوم الزمن بمصلحتها، وسواء كان هذا أم ذاك فليكن المجمع، مجمعًا علميًا - على غرار المجمع العلمي العراقي، مثلا - فيه اللغوي واللغويون ولكن فيه - مع ذلك المؤرخ والجغرافي والفقيه... والطبيب والفيزياوي... يتعاونون ويتكاملون وقد صار للبلد -

بعدما قطع من خطوات علمية ـ العدد الذي يفي بالمطلوب ويوفي القصد.

وفي اللغة يذكر من جيل (الشيوخ) الذين أولوها عناية خاصة ـ وقد فقدنا الأستاذ الأنصاري ـ: أحمد عبد الغفور عطار، أبو تراب الظاهري، عبد العزيز الرفاعي، محمد سعيد العامودي، عبد الله بن خميس ـ مع الاعتذار عن الجهل بالأعلام الآخرين.

ثم جاء جيل جديد، جامعي، طليعته الدكتور حسن شاذلي فرهود... وآخرون... ومن الأكثر شبابًا الدكتور محمد حسن باكلا... وآخرون ممن لم تتهيأ لي معرفتهم أو تسعفني بهم الذاكرة، ولا تنفصل الدراسات الأدبية عن اللغة، وللبلد في هذا خير وفير... ولا تستغني اللغة العربية عن متخصص بلغة أجنبية... وستجد في عزيز ضياء من يجمع الحسنيين ثم يكتمل «المجمع العلمي» ببارزين من العلماء في الفروع المختلفة، ويتمكن الدكتور عبد الله الدفاع تمكنًا مرموقًا مؤيدًا بالمؤلفات اللازمة في مادة التراث العلمي للعرب... وهكذا يتوزع المختصون إلى أعضاء عاملين، وإلى أعضاء لجان يدعو العاملون إلى إنشائها.

لم يبق عذر للتأخر ـ إذن ـ وقد كثرت المجامع العربية، ولا بد من التعاون ولا عجب بعد ذلك أن يرفع الشيخ الجاسر صوته مطالبًا بالمجمع العلمي، وأن يخطو الخطوة الرسمية بتقديم الطلب... وأفلحت الجهود من حيث الشكل إذ صدر الأمر الملكي بإنشائه (في رمضان ١٤٠٣) وبقي الشروع بالتنفيذ، وذلك آت، وسيكون مجمعًا لا يقل عن نظائره في الأقطار العربية، إن لم يزد على بعضها من بعض الوجوه... وتلتقي المجامع في الخطوط العامة لوحدة العرب، وتفترق قليلا لدن توجه المجمع منها لخصوصية القطر الذي ينهض فيه.

ويبدأ حينئذ نشاطه في الدرس والبحث والنشر والتحقيق... وستكون له مطبعته ومجلته ومطبوعاته ونرجو له سلفًا استمرار النشاط والترفع عن الركون إلى (الهدوء) الذي يحدث لدينا عادة عندما نبلغ هدفًا ما، وكأن بلوغ الهدف ـ القريب ـ غاية في نفسه، وكل شيء.

[رابطة للأدباء:]

واقترنت دعوة الشيخ الجاسر بدعوة أخرى، هي دعوة إلى رابطة الأدباء السعوديين، لم تتحقق شكلا مع حصول وجه من مضمونها قبل الدعوة، ومن ثم لا يستحيل مزج الشكل بالمضمون فلا يوجد بلد متقدم من غير جمعيات أو أندية، وقد كانت للجمعيات (بوادر) قبل العهد السعودي على شكل أهلي من منتدبات ومجالس (ودواوين) بيوت ثم كانت جمعيات، منها ما رأينا من جمعية الإسعاف... ولكن لم تكن ذات مفعول ودوام... ثم سادت النوادي الرياضية أولا (وأخيراً) ولم يعد بد من توجه خاص للأدب ومن اتحاد للأدباء أو رابطة، فالأدباء يريدون ذلك، والدولة لا بد لها من أخذ زمام المبادرة... ولا يخلو قطر عربي من مظهر من هذه المظاهر... زيادة إلى مجلس لرعاية الآداب والفنون في عدد منها، ومن هنا كان ونحن في أخريات ١٣٨٣/ ١٩٦٣ قرار مجلس الوزراء رقم ٢٥٨ بتشكيل مجلس أعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب، ومن ثم قرر وزير المعارف (الشيخ حسن آل الشيخ رئيس المجلس) الموافقة على اللائحة الداخلية، وتم تشكيل المجلس وعين له أمين سر دائمًا، ولم يسمع مؤلف «المعجم» عما حقق المجلس، وربما كان ذلك لأن المجلس لم يصدر مطبوعات أو لبعد صاحب المعجم عن مجرى الأحداث.

والأدباء في تكاثر وتجويد، ونشاط واطلاع على ما لرصفائهم في الأقطار العربية من عوامل الاجتماع والالتقاء، وتلحظ المملكة ذلك وتدركه ولا بد من تحقيق الرغبة بوجه من الوجوه وتصريف الشكوى بطريق من الطرق، وكان أقرب ما قام، دعوة كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة إلى (المؤتمر الأول للأدباء السعوديين) فعقد فعلا خلال ١ ـ ٥ ربيع الأول ١٣٩٤، وقال الرئيس الأعلى للجامعة وزير المعارف ـ الشيخ حسن آل الشيخ: (الأدباء هم الأمناء على التراث، والعاملون بكل طاقاتهم وجهودهم، لكيما تبلغ أمتهم ووطنهم المنزلة التي تليق بهما...).

ومرت الأيام الخمسة في نشاط وحماسة يتعاقب في أثنائها الأدباء على المنصة شعراء وباحثين ومفكرين... وكانت التوصيات من منهج اليوم الخامس... وفي

التوصيات أن المؤتمر يوصي بحصر مصادر الأدب السعودي، وإنشاء كرسي لمادة الأدب السعودي، وإصدار دليل شعري، وإحداث مؤسسة تتولى النشر ـ غير التوصية بإنشاء مجمع علمي سعودي.

ولم تكن في التوصيات إشارة إلى مؤتمر ثان، ولم يعقد مؤتمر ثان. وكان من محاسن المؤتمر الأول إصدار وقائعه عن جامعة الملك عبد العزيز بخمسة مجلدات، تكون مصدرًا مهمًا لدارس الأدب السعودي، وأطرافًا من هموم الأديب السعودي، وربما كان في التوصيات نص على إنشاء نظام (الإيداع).

ولكن (المؤتمر) كائنًا ما كان لا يشبع الرغبة ولا يحقق الطموح.... وإذا كانت النوادي الرياضية مرتبطة بالرئاسة العامة لرعاية الشباب، فلْتنشأ (وقد أنشئت عام ١٩٧٥/١٣٩٥) مؤسسات خاصة بالأدب في طول البلاد وعرضها ـ قدر الإماكن ـ ولترتبط بالرئاسة العامة ـ إلى جوار النوادي الرياضية والجمعية العربية السعودية للفنون (وقد تأسس في ١٣٩٣/١١/٢٦ = ١٩٧٣) حتى لو كان في أعضائها شيوخ ورواد من أمثال أحمد سباعي ومحمد حسن عواد وعزيز ضياء وحمد الجاسر، على أن تسمى نوادي، فهذا النادي الأدبي بالرياض وهذا في المدينة المنورة، مكة المكرمة، جدة، الطائف، جيزان (جازان)... بانتظار فروع أخرى، القصيم، أبها، الباحة. وقد تكون ذات يوم في تبوك والأحساء أو القطيف ـ تنظر في المعجم مادة نادي، جمعية... وللجمعية (وقد عدل اسمها في غرة عام ١٣٩٨هـ إلى (الجمعية العزبية السعودية لفنون والثقافة)، ثم عدل إلى... للثقافة والفنون) مطبوعاتها، وللنوادي مطبوعاتها، وهي كثيرة العدد، ليست قليلة الشأن مع طموح إلى الأحسن وطمع بالأعمق.

أقول: في هذه النوادي والجمعيات شيء غير قليل من مضمون دعوة الشيخ الجاسر، ولكنه ليس المضمون كله، ولا بد من مزج المضمون بالشكل، وللشيخ الجاسر آراؤه في تلك الدعوة وتجاربه، وقد أذاعها صريحة حرصًا على المملكة نفسها، فقد رأى الأقطار العربية (كلها) تتمتع بما يسمى رابطة الأدباء كـ(الكويت)

أو اتحاد الأدباء (العراق)... وهذه الرابطات (الاتحادات) ذات كيان متميز، وتجري فيما بينها المراسلات والمزاورات ثم إنهم ليجتمعون من حين إلى حين على شكل منظم - أو طارئ - باسم المؤتمر، ومؤتمر أدباء العرب ويكون للاتحاد منها كيان متميز ضمن الإطار العام للأدب العربي، فلم وكيف تبقى المملكة غريبة على هذا التنظيم، معزولة عن اخواتها من الأقطار العربية الأخرى، ألا يوجد فيها العدد الكافي من الأدباء؟ بلى يوجد، ألم يكن أدباؤها مجيدين؟ بلى، مجيدون. لم تبق - إذاً - إلا الدعوة إلى إنشاء رابطة للأدباء السعوديين وأن يعلن الشيخ الجاسر هذه الدعوة ويكررها مقرونة بالأسباب الموجبة - والشيخ الجاسر حريص على سمعة المملكة، مؤتمن فيما يقترحه عليها.

وقد يكون في دعوة الشيخ الجاسر استجابة لإحساس يلمسه لدى الشباب خاصة في طماحهم إلى مثل هذه الرابطة (الاتحاد) وكأن النوادي - متفرقة - لا تعوض عنها ولا ترفع اسمهم إلى الدرجة التي ينشدونها بين أسماء أدباء الأقطار العربية الأخرى، ولا تقع لدى المفاتحات موقع الرابطة - الاتحاد ولا تسد مسدها.

وأحسب أن خطوة أولى سهلة التحقيق نحو هذه الرابطة - الاتحاد، هي أن تتكون من النوادي القائمة لجنة عليا تدرس الموضوع وتضع النظام الرابط بينها، ولتكن هذه اللجنة - أو لجنة منتخبة نظيرتها - الرابطة أو الاتحاد، وتكوّن النوادي بعد ذلك الرابطات أو الاتحادات الفرعية...

وتكون للرابطة - الاتحاد - المطبعة والمجلة والمطبوعات...

ولا بأس في أن يبقى اسم (الرئاسة العامة لرعاية الشباب) هو هو أو أن يتحول إلى (الرئاسة العامة لرعاية الآداب والفنون والرياضة)... أو أي شيء من هذا... كوزارة الثقافة التي دعا إليها الشيخ عبد الله بن إدريس أو وزارة الثقافة والشباب...

ونعود فنقول المهم المضمون وليس الشكل، والمهم الأعمال لا الأقوال... وأسمع خلال الإذاعة السعودية وأقرأ في الصحف... ما يدل على أن (الجمعية العربية

السعودية للثقافة والفنون) بدأت أكثر نشاطًا، وأن النوادي الأدبية بدأت أكثر نشرًا... وأن صلة إداراتها بالأدباء تضعف شيئًا فشيئًا، وإنها لم تعمل على استقطاب الجمهور، فإذا صح ذلك، ولا بد من أن يصح شيء منه، ويطلب الشيء الثاني تحقيق الطموح والرعاية الصحيحة، فليس بالصعب تدارس الموقف وتدارك الحال، والرابطة–أو الاتحاد–آتية على أية حال.

[الترجمة والمترجمون:]

وإذ نصل المجمع اللغوي العلمي والرابطة ـ الاتحاد... نتذكر أمرًا قد يكون تأخر مكانه من هذا الاستعراض: هو الترجمة، ومفروض بنا أن نقدر خطرها ونمنحها حقها من الاهتمام إذا شئنا زيادة في التقدم، وإستدراكًا للفائت، واستفادة من تجارب الآخرين، واختصارًا للوقت وإدلاء على الإبداع في الأدب والفن والعلم... والفكر...

ونبدأ بالبداية...

وكان في (العرب) الذين عملوا مع الملك حسين من يجيد لغة أجنبية أو أكثر، ومثلهم الذين عملوا مع الملك عبد العزيز، ومنهم من تكرر وجوده في العهدين....

وتفخر «المنهل» وهي تستعرض فتوحاتها في الكتاب الفضي لها (١٣٦٩/١٩٦٠) بعنايتها بالترجمة وتذكر بين الأسماء الأولى في هذا المضمار محمود عبد الوهاب (ولد بمكة المكرمة وتعلم بمدارسها. وقد أسهم مدة من الزمن في الصحافة المحلية بمقالاته الأدبية والتاريخية، ثم تفرغ للعمل التجاري بمكة المكرمة ـ المنهل الخاص).

ثم جاء (نصر) من خارج البلاد: الجزائري أحمد رضا حوحو وما ترجم فيها من قصص...

وربما كان في «المنهل» آخرون... ولا بد من أن يكون آخرون ونحن نعرف من أدبائها محمد علي قطب.

وكأن الصحافة تهمل أمر الترجمة إهمالاً تامًا، إن لم تكن قد أهملته، فهكذا هي كما رأيتها في ثمانينيات القرن الهجري، ستينيات القرن الميلادي، ومضى الأمر على

ذلك... ولكنه بدأ أخيرًا ـ وربما منذ ـ خمسة الأعوام الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري/ ١٩٧٥م يستيقظ فانك واجد المترجمات في هذا العام في مجلات: الفيصل، الخفجي، إقرأ، اليمامة، المجلة العربية. وربما عنيت بالترجمة الأعداد الأسبوعية من الجرائد.

وكنت أدعو ـ وأنتظر ـ أن تستخرج تلك الترجمات من قلب المجلة (أو المجلات) لتكون كتبًا، وليعم النفع ولم أكن على ضلال، ولا بد من أن يكون آخرون على هذا الرأي، ومن هنا كان طلب الأستاذ عبد الرحمن المعمر (وهو أديب، مؤلف وصاحب دار ثقيف للنشر والتأليف) إلى الأستاذ محمد علي قطب (أن يسمح بجمع ونشر ما نشر له بمجلة المنهل من قصص مترجمة فاستجاب، فكان الكتاب الذي صدر في شوال ١٣٩٨/ سبتمبر ١٩٧٨ باسم (كانتفرستان وقصص أخرى). أترى هذه كل ما ترجم الأستاذ محمد علي قطب؟ لم لا يترجم لنا جديدًا؛ لم لا ننشر القصص الأخرى التي ترجمها غيره في المنهل أو في غير المنهل؟ فتلك ثروة وفائدة وكتب.

ورأينا في المعجم (أحمد عبد الغفور عطار) ومن ترجماته «الزنابق الحمر» لطاغور، و«المفتش» لغوغول (جوجول)... ولكن الأستاذ عطار ابتعد عن الأدب ـ إنشاء وترجمة ـ شيئًا فشيئًا تحول إلى اللغة والإسلاميات والتاريخ والسياسة. وفي هذا التحول كانت ترجمته لبروتوكولات صهيون ـ وقد بلغت ط ٨.

ويقفز إلى الذهن في خفة ورصانة اسم الأستاذ عزيز ضياء وقد تكرر الحديث عن علمه الجيد باللغة الانكليزية، وربما زيد على الانكليزية: الفرنسية والتركية، ولا غرو فهو أديب مرموق بالعربية، وتهيأ له أن يعيش اللغة الانكليزية ويغرم بأدبها وفكرها وما نقل إليها من آداب أخرى...

الأستاذ عزيز ضياء ما باله لا يترجم؟ ولا ينشر ما يترجمه في كتاب، إنه من مواليد ١٩١٤ وقد تقدم شيئًا في السن ونال من الشهرة الأدبية ما نال... أما تراه قد ترجم ونشر هنا وهناك دون أن يبلغ علمي ما ترجم أو نشر؟ ممكن... حتى إذا قارب

القرن الرابع عشر أن ينتهي وقامت دار تهامة للنشر والتوزيع استشارته فكان أن أصدرت له النافع والطريف والممتع، وكان قلمه متميزاً بين ما صدر في الأقطار العربية، لا بد من أن يكون في الذي نشره بعد ١٤٠٠/ ١٩٨٠ ما كان ترجمه من قبل... والذي صدر له كثير جليل استدركناه في المعجم رغم تأخره عن الحد المحدود للنهاية، وعزيز ضياء، سيدخل قبل ١٣٩٠/ ١٩٧٠ دون شك، ولقد رأيت له في المعجم: «عهد الصبا» «في البادية»، و«النجم الفريد»، و«قصص من سومرست موم»، و«قصص من تاغور» ج١ ثم رواية جورج أورويل: «العالم عام ١٩٨٤» قد صدرت ونحن (في شعبان ١٤٠٤/ مارس ١٩٨٤) ـ وبانتظار المزيد، فما قلم الأستاذ بقاصر وما دار تهامة بمقصرة، ولا تنس ما نشر له من حكايات مترجمة للأطفال وما ستنشره منها، وهي في حدود عشرين قصة وتزيد.

وتهامة نفسها نشرت لحمزة بوقري: «بائع التبغ» (مجموعة قصصية) سلسلة الكتاب العربي السعودي (٢٩)، جدة، دار الأصفهاني للطباعة بجدة ١٤٠١ ـ ١٩٨١ ـ ١٣٥ ص. (وبالمناسبة، مناسبة أسف، وقد فقدنا الأستاذ حمزة بوقري مرتين، وكانت الثانية النهائية بعد أن استأنف نشاطه الأدبي في التأليف وأصدر: «محمود تيمور والقصة القصيرة» عام ١٤٠٠ عن دار الرفاعي).

وزادت (تهامة) بأن أسهمت جادة في طبع مؤلفات سعودية باللغة الانكليزية، فكانت لها في ذلك سلسلة خاصة؛ ومما نشرته كذلك: Who's Who in Saudi Arabia

(وقد أفدنا منه في طبعته الثالثة).

وأحسب أن المثقف السعودي لم يطمئن تمام الاطمئنان إلى جدوى الترجمة وإلى مفعولها في إذكاء الفكر، وإثراء الإبداع، وتقريب المعرفة.. أحسب لأني أرى كثيراً من الشباب المثقف المتخصص يعود من جامعات أوربا وأمريكا ومعه الشهادات العالية والعليا، وفي تخصصات مختلفة، منها ما لا يكاد يمر ببال... ولكن الترجمة وكأنها هي هي تراوح في مكانها فضلا عما في البلاد من جامعات، وما في هذه

الجامعات من أقسام للغة الانكليزية... وأساتذة للأدب الإنكليزي نفسه...

وأستطيع أن أعدد من الأسماء الكثير المجيدين بدءًا من زملائي الكرام الأوائل في جامعة الملك سعود: أحمد محمد الضبيب، منصور إبراهيم الحازمي، محمد عثمان الصالح، عبد العزيز عبد الله الفدا، محمد عبد الرحمن الشامخ... ثم من جاء بعدهم وأذكر الدكتور عبد الله محمد الغذامي (مواليد عنيزة ١٣٦٥/١٩٤٦)، وغيره وغيره وانتهاء بما لا نهاية له.

أتلفت فلا أجد إلا القليل، على ما في هذا القليل من جودة تزيد في الأسف وتضاعفه. وفي الكثيرين منهم لم يترجم رسالته، وقد ترجم الحازمي قسطًا منها ـ فيما يبدو ـ وترجمها الشامخ. أقساطًا موفقة... ثم أصدرها كاملة موسعة، وتكرر طبعها (ط٣، ١٤٠٣/ ١٩٨٣)، ولم يخيبنا الضبيب إذ ترجم عن ت. م. جونستون كتاب «دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية» (١٣٩٥/ ١٩٧٥).

ذكرنا الزملاء العائدين من أنكلترة، وليست الانكليزية وحدها المقصودة بالترجمة، ومن الزملاء الدكتور أحمد خالد البدلي الذي حصل على الدكتوراه من جامعة طهران في ١٣٨٦/١/٢٤ في «دور الشعر الفارسي في الدعاية المذهبية من منتصف القرن الخامس الهجري إلى أواخر القرن السابع في إيران».

[رسائل جامعية (بغير العربية):]

وأنظر في المجلد الأول من السنة الأولى من «مجلة كلية الآداب» بجامعة الرياض (١٣٩٠/١٩٧٠) فأرى من الرسائل الأدبية: رسالة الدكتور عزت عبد المجيد الخطاب: دراسة التاريخ النقدي لقصيدة روبرت براوننج المعروفة باسم «الخاتم والكتاب» في الفترتين ١٨٦٨ ـ ١٨٨٩ و١٩٥١ ـ ١٩٦٨ ـ من مدرسة الدراسات العليا، جامعة نيومكسيكو، أغسطس ١٩٦٩م/ ١٣٨٩هـ.

الدكتور محمد صديق العوضي ـ «أبو نواس وفارسياته وتأثيره في الأدب الفارسي». جامعة طهران ١٣٨٩.

ولو سرنا أكثر لوجدنا المزيد ففي الجزء الثالث (١٣٩٤/١٩٧٤): الدكتور محمود إسماعيل صيني: «نظم الجملة في لهجة الحضر بالحجاز» (من جامعة جورج تاون) الدكتور محمد حسن باكلا: «دراسة القوانين الصرفية والصوتية» وبخاصة في اللغة العربية (من جامعة لندن).

والمسألة تطول، وقد حصل المطلوب وهو بيان غزارة العالمين بلغات أجنبية وتوافرهم... مقابل قلة تقرب من الجدب في الترجمة (الأدبية - هنا).

وتدخل المرأة عالم اللغة الأجنبية، ويجب أن تدخل، وإذا دخلت حوسبت قليلا، وكنا في «المعجم» تشبثنا بالسيدة فاطمة المنديل منتظرين المزيد، وقد حصلت على الماجستير، ولم تترجمها أو تترجم غيرها، ثم حصلت على الدكتوراه بـ «الصراع بين الأسطورة الشعبية والواقع: دراسة بطلات المسرحيات عند جون ميلنجتون سينج» (من جامعة القاهرة ١٣٩٧) فزدنا انتظارا.. وفي ميدان المسرحية خصوصاً.

وتحصل الدكتورة مريم البغدادي على الدكتوراه من فرنسا (فيما يبدو) ويكون لها نشاط أدبي ملحوظ (يقترن بمؤسسة تهامة... بجدة)، وتقدم لنا - مما يدخل في الترجمة: (شعراء التروبادور) وأصله Trobadors et. Cours d'Amour:

من تأليف Lafitte - Houssa في سلسلة Que Sais - Je ? ، باريس.

وكنت أود لو أنها قدمت الترجمة محضًا، وتحتفظ بدراستها التمهيدية لكتاب خاص بموضوعها - ونبقى ننتظر ترجمة رسالة الدكتوراه.

أملنا بالترجمة كبير، وترجمة رسائل الماجستير أو الدكتوراه في مقدمة ذلك، ونقرن الأمل هذا بتأليف في موضوعات أجنبية مختارة في خدمة الفكر العربي وثقافته وتقدمه... والذي حصل في هذا المجال قليل، لم يبلغ علمنا منه إلا ما صدر مقترنًا بتهامة للنشر في جدة، وقوامه كتابان: الأول، للدكتورة مريم بغدادي بعنوان «المدخل في دراسة الأدب» (١٤٠٢/ ١٩٨٢ - ١٦٨ ص في سلسلة الكتاب الجامعي رقم ١٥)... وفصوله السبعة تقوم في الأصل، وفي حدود ما يحتاج إليه

القارئ العربي، على ما حققه الفكر الأدبي الغربي في مسيرته الثرية ولكن الأستاذة المؤلفة لم ترجع فيه إلى المصادر الأجنبية.

الثاني: كتاب الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي - «الأدب المقارن» (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) - تهامة، جدة، ١٤٠٣/ ١٩٨٣ - ١٢٨ ص، في سلسلة الكتاب الجامعي (١٩)... وهو في جملته لا يشبع حاجة القارئ إلى الموضوع، وربما خرجت بعض مواده عن صميم عنوانه ثم إنه ليس على مستوى شهادتي الأستاذ الحكمي: (سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تحصل على ماجستير في الأدب الانجليزي، وحصل على درجة الدكتوراه في الأدب الانجليزي والأدب المقارن) ولا بأس، فالكتاب يطمعنا برؤية الرسالتين مترجمتين راجين ألا يجور العمل الإداري (عميد القبول والتسجيل بجامعة أم القرى بمكة المكرمة) على الفعل العلمي ثم التأليف والترجمة والنشر وإلا فما تقصر الأيدي - لا مالاً ولا علمًا - عن النشر وإثراء المطبوعات، وقد جار العمل الإداري قبله على كثيرين، وسيجور كذلك بعده.

وورد للأستاذ عزيز ضياء، في كتابه «جسور إلى القمة» استثمار خاص للعلم بالفكر الغربي عن طريق اللغة الأجنبية مباشرة، ويذكر الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري مادة أجنبية في ثنايا كتبه - ولا سيما: «لن تُلحد»، ولكنه يصل إليها عن طريق المترجم إلى اللغة العربية.

[الجامعات السعودية]:

ومسألة الترجمة تطول ومتفرعاتها تطول، ونقف عند هذا الحد... لقول كلمة في الجامعات السعودية، فمكانها من الكتاب - المطبوع مرموق... وقد صارت سبعًا نرجو لها التوطد والتركز والرصانة المتصلة وبلوغ السمعة العلمية المطلوبة، وأكثر ما عني المعجم ضمن حدّيه بجامعة الملك سعود ١٣٧٧/ نوفمبر ١٩٥٧ (الرياض) ثم جاءت فكرة جامعة الملك عبد العزيز الأهلية بجدة والسعي إلى تحققها، ثم كلية البترول

والمعادن في الدمام، وكليات هنا وهناك للغة العربية والشريعة في الرياض ومكة والمدينة مرتبطة بالشؤون الدينية أو بوزارة المعارف ومنها ما كان قبل نشوء الجامعة.

وما نودع الحد الأعلى لمدى المعجم (١٩٧٠/١٣٩٠) حتى تتزايد الجامعات وتتزايد كلياتها من كل نوع وتكون:

جامعة الرياض (وقد عاد إليها اسمها الأول: جامعة الملك سعود) لمناسبة الاحتفال بربع قرن على تأسيسها.

جامعة الملك عبد العزيز ـ جدة (وقد صارت رسمية).

جامعة البترول والمعادن ـ الدمام(١) .

جامعة الملك فيصل في الأحساء والدمام.

جامعة أم القرى في مكة المكرمة.

وتكون لهذا وزارة جديدة، هي وزارة التعليم العالي.

وتكون جامعتان أخريان إسلاميتان (دينيتان): الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض، وهي وإن سميت (جامعة) بهذا الاسم عام ١٩٧٤/١٣٩٤ إن نواتها الأولى وعدداً من كلياتها ومعاهدها سبقت التسمية، ففي عام ١٣٧٠/ ١٩٥٠ تأسس معهد الرياض العلمي (للغة العربية والشريعة)، وفي عام ١٣٧٣هـ أنشئت كلية الشريعة في الرياض وأعقبها في عام ١٣٧٤هـ إنشاء كلية اللغة العربية، وقد أدّى ذلك إلى إنشاء جهاز مشرف على الكليتين والمعهد أطلق عليه: الرئاسة العامة للكليات والمعاهد. وفي عام ١٩٧٤/١٣٩٤ تحولت الرئاسة العامة إلى جامعة...

وتضم الجامعة حالياً كليات ومعاهد عليا هي: كلية الشريعة...وكلية اللغة العربية... والمعهد العالي للقضاء الذي أنشئ عام ١٣٨٥هـ، والمعهد العالي للدعوة

(١) «جامعة الملك فهد».

الإسلامية، وكلية أصول الدين، وكلية العلوم الاجتماعية، وقد افتتحت ثلاثتها في عام ١٣٩٦. وجميع هذه الكليات في الرياض. وللجامعة فروع في أبها والقصيم والمدينة المنورة والأحساء ـ عن عالم الكتب مج ٥ ع ١ رجب ١٤٠٤/ أبريل ١٩٨٤.

وكانت المرأة تلتحق بالجامعة انتسابًا من الخارج ثم تأسست لها كليات أو أقسام خاصة بها من الجامعة.

ورأت الرئاسة العامة لمدارس البنات حاجتها ـ ضمن ظروف البلد وتقاليده ـ ماسة إلى كليات خاصة بها في الآداب والتربية والعلوم ففتحها في الرياض وغيرها كالأحساء وأبها والقصيم.

وصار لعدد من الكليات دراسات عليا لماجستير أو للماجستير والدكتوراه...

ولعدد آخر ـ وكأن هذا تميز للمملكة بين الأقطار العربية ـ عمادات خاصة بشؤون المكتبات تشرف، وكما هو طبيعي، على المكتبات وتصدر الفهارس والمجلة، ولها مطبعة خاصة بها، ومطبوعات ـ تزيد أو تقل ـ حسب نشاط الجامعة عمومًا وعميد المكتبات خصوصًا، وقد ذكرنا بصدد جامعة الملك سعود أمثلة من هذه المطبوعات ومنها من تأليف الأساتذة، ومنها رسائل للدراسات العليا للطلاب ـ وللطالبات كذلك.

وجاء في «عالم الكتب»: إن جامعة الإمام محمد بن سعود تهتم بالدراسات العليا.... فهناك معهدان تقتصر الدراسة فيهما على مرحلتي الماجستير والدكتوراه فقط هما المعهد العالي للقضاء والمعهد العالي للدعوة بالرياض. و.... جميع كليات الجامعة فتحت باب الدراسات العليا... إن جامعة الإمام محمد بن سعود تعد أول جامعة في المملكة العربية السعودية تهتم بالدراسات العليا، وقد بدأ الاهتمام منذ إنشاء المعهد العالي للقضاء في عام ١٣٨٥هـ.

وللجامعات الأخرى ـ بما فيها جامعة البترول والمعادن ـ دراساتها العليا، ودرجة الماجستير... وفيها ما يستعد لمنح الدرجة الأعلى.

وقد عمل الأستاذ يحيى ساعاتي قائمة بالرسائل التي نوقشت في الجامعات

السعودية ومنح أصحابها درجة الماجستير أو الدكتوراه (١٣٨٩ - ١٤٠٠هـ) - تنظر في عالم الكتب مج ٢، ع ٢ شوال ١٤٠١/ أغسطس ١٩٨١، بانتظار قوائم أخرى - في المجلة نفسها - للأعوام التالية....

ويفهم من الجدول والتعليق عليه أن ليس في جامعة الملك فيصل دراسات عليا، وأن الجامعات التي منحت الدكتوراه هي: جامعة الإمام محمد بن سعود(٤)، جامعة الملك عبد العزيز فرع مكة (٣)، الجامعة الإسلامية(١).

ونلتقط من رسائل الدكتوراه - فيما يتعلق بالأدب واللغة: علي بن المقرب العيوني - حياته وشعره، حاز بها الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية اللغة العربية علي بن عبد العزيز الخضيري[١] سنة ١٤٠٠ - وقد طبعت الرسالة في السنة التالية ببيروت، مؤسسة الرسالة ١٤٠١/١٩٨١ - ٤٥٩ ص.

وللمرأة حصتها من هذه القائمة، وأكثر ما كان لها ورد - كما هو طبيعي - في التربية والتعليم وكلية التربية بمكة (التي كانت تابعة لجامعة الملك عبد العزيز بجدة): هند بدر، ريما الجرف، نوال رواس... نادية عبيد - والموضوع العام لهن درس اللغة الانكليزية في مرحلة المتوسطة.

وفي جامعة الرياض: نورة صالح الشملان - «شعر أبي ذؤيب الهذلي» ١٣٩٨، وقد طبع كما طبعت رسالة سعاد عبد العزيز المانع، «سيفيات المتنبي» - تنظر جامعة الرياض. ومن رسائل كلية الآداب فيها رسالة وفيقة عبد المحسن الدخيل - «وصف الحيوان في الشعر العربي» - القرن الثاني (١٤٠٠).

وسنرى رسائل للمرأة في قسم التاريخ... والتربية... وفي غير الرسائل ورد في إصدارات تهامة، سلسلة مطبوعات: «التخلف الإملائي» للأستاذة نوال عبد المنعم قاضي.

---

(١) ولد في البكيرية عام ١٣٦٦ وتنقل عدة مناصب آخرها وكيلا مساعدا للإذاعة ثم وكيلا للرئاسة العامة لتعليم البنات، من مؤلفاته التي لم تنشر دراسة عن حياة الشاعر العرجى وشعره، وله مشاركات في محاضرات وبحوث ومقالات صحفية.

وللجامعات، فيما يذكر - مراكز بحث، تنشر وتحقق ولك أن ترجع على سبيل المثال إلى مطبوعات مركز أم القرى، ومركز الإمام محمد بن سعود... ومركز المدينة. وبين إصداراتها وتحقيقاتها كتب مهمة.

وتبقى ملاحظتان صغيرتان: الأولى، ضرورة الحرص الدائم على المستوى العالي؛ الثانية، إيصال المطبوع - وقد بذل عليه ما بذل - إلى من يهمه أمره بالشكل المناسب...

وإذا كان في بداية الأمر ما يدعو إلى شيء من العجلة وقليل من التسهل... فقد زال ذلك الدافع اليوم ولا بد من التشدد لدى القبول ولدى التخرج، ولدى منح الماجستير أو الدكتوراه... وقبول الكتاب للطبع... وفي قبول البحوث التي تنشرها المجلة فهي وجه مباشر من وجوه الكلية - أو القسم. وكانت مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض منذ عددها الأول ١٣٩٠/ ١٩٧٠ وجهًا نيّرًا ومثالاً يقتدى... وما زالت كذلك... وفي المجلات الأخرى ما يجدي وينفع ويرضي... ولكن فيها ما يدعو إلى إعادة النظر والتأمل والتريث - ورب توقف خير من تعجل!

[الصحافة:]

هذه المجلات الجامعية، وقد تكاثرت. ومثلها المجلات الأخرى أهلية أو رسمية، ووقف المعجم عند ١٣٩٠/١٩٧٠ وأبرز ما فيه مجلتان أهليتان محترمتان الأولى، «المنهل» وقد أنشئت سنة ١٣٥٥/ ١٩٣٧ وظلت تغذ السير من شيء من عناء وتعب يبدو عليها، وفقدت عميدها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري وهي تقترب من عامها الخمسين وعمل ولده الأستاذ نبيه على تنشيط المجلة بعده، وإعادة الشباب إليها، وهو ماض في ذلك، وظهر التقدم محسوسًا، وبانتظار نتائج أكبر قبل إصدار الحكم، ويربط الأستاذ نبيه بالمجلة سلسلة منشورات وكأنه يريد أن يجعل من «المنهل» مجلة ودارًا... إلى جوار المكتبة العامة التي خصص لها ركنًا مهمًا من عمارة «المنهل»، والثانية، «العرب»، مجلة الشيخ حمد الجاسر وقد صدر عددها الأول في رجب ١٣٨٦/ تشرين الأول ١٩٦٦، وهي نشطة غنية عجيبة في عالم المجلات، وإذا قلت

إنها مجموعة كتب وقلت إن مؤلف أكثر تلك الكتب هو الشيخ الجاسر صاحبها نفسه لم تخطئ ولم تبالغ، وإنه ماض في سبيله ويقترب بها من عامها العشرين[1].

ثم مجلات أخرى ذكرت في مكانها مثل قافلة الزيت (وقد صارت: القافلة)، ومجلة الحج وقد صارت «التضامن الإسلامي»[2]... ومن المجلات ما لم تطل مدتها....

ثم قامت بعد الـ ١٣٩٠/ ١٩٧٠ مجلات محترمة منها المتخصصة، وللأدب مكانه من تخصصها وهي مجلة «الدارة» ـ مجلة دورية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض، العدد الأول، ربيع الأول ١٣٩٥/ مارس ١٩٧٥ وما زالت توالي الصدور، أربعة أعداد في العام الواحد، محافظة على مستواها.

ومنها وفي رأس ما يذكر منها: «المجلة العربية» ـ شهرية، بلغت العدد الـ ٧٧ في شهر جمادى الثانية ١٤٠٤/ آذار (مارس) ١٩٨٤م من سنتها الثامنة من مسيرة لم تخل من عثرات.

و«الفيصل» ـ وهي شهرية، أكثر رواجًا، وتنوعًا ـ بلغت العدد ٨٧ في رمضان ١٤٠٤/ رجب (يونيو) ١٩٨٤م من سنتها الثامنة، واستطاعت أن تجد لها سوقًا خارج المملكة قراء وكتابًا وقد يكون لرئيس تحريرها الأديب القاص: علي طه الصافي فضل لا ينكر في ذلك[3]....

وتصدر المجلتان عن قاعدة رسمية دون أن يبدو الوجه الرسمي عليهما، وهذا من الحسنات التي تضاف إلى أمثالها.

ثم أطلت علينا في المتخصصة، مجلة نادرة المثال كبيرة الأهمية في عالم «المعجم» هي مجلة «عالم الكتب» ـ مجلة متخصصة تصدر أربع مرات في السنة تهتم بالكتاب وقضاياه. المؤسسان: عبد العزيز الرفاعي وعبد الرحمن المعمر. رئيس

(١) هي الآن في عامها الثاني والثلاثين.

(٢) ثم صار اسمها «مجلة الحج» مجلة اسلامية شهرية تصدرها (وزارة الحج) وهي الآن في سنتها الـ(٥٢).

(٣) تجاوزت أعدادها الـ(٢٤٤) في سنتها الـ(٢١) ويرأس تحريرها الدكتور زيد بن عبد المحسن الحسين أمين عام مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية).

التحرير: يحيى محمد ساعاتي. (الدكتور فيما بعد). العدد الأول، رجب ١٤٠٠/ مايو ١٩٨٠ ومازالت توالي الصدور... ونتمنى لها التغلب على العقبات من أجل الدوام ومن أجل الكتاب.

والمجلات كثيرة أسبوعية وشهرية وفصلية... أذكر منها: إقرأ، الخفجي، الشباب، الشرق، المكتبات والمعلومات العربية، المنار، رابطة العالم الإسلامي، الجيل، المجلة، السعودية، اللقاء العربي....

وما لا يكاد يحصى من المجلات المتخصصة التي تصدر عن مؤسسات متخصصة جداً علمية وإدارية وتجارية... إلخ، وللسكك مجلتها، وللطيران، وللوزارات... إلخ.

ومن هذه: ابن سينا، أطلال، الاقتصاد، الأمن، أهلا وسهلا (للخطوط الجوية)، البحوث الإسلامية، البناء، البنوك الإسلامية، التأمينات الاجتماعية، التجارة، تجارة الرياض، التجارة والصناعة، التوثيق التربوي، التوعية الإسلامية، الجندي الإسلامي، حماة الأمن، الخليج العربي للبحوث العلمية، الدفاع، الصقور، عالم الصناعة، عالم السعودية (الخطوط الجوية)، عالم الكتب والمكتبات، الغرف التجارية...

وللمكفوفين حظهم من الصحافة.

ولك أن تعد نحواً من عشرين مجلة سنوية متخصصة أو أخبارية نصف شهرية تصدر عن كليات الجامعات.

ولم يكن الطفل منسيًا، وقد رأينا طاهر زمخشري يصدر في جدة: الروضة ١٣٧٩/ ١٩٥٩ دامت نحواً من ثمانية أشهر، ثم جرت محاولة أخرى قامت بها مؤسسة عكاظ في جدة إذ أصدرت «حسن» ١٩٧٥/١٣٩٥ دامت أكثر من ثلاث سنوات وتوقفت، ولن تقف المحاولات ولن يستحيل النجاح، وتعوض عنها في الوقت الحاضر سلاسل من الكتب تلقى نجاحًا تميزت بها «تهامة» و«الشروق» ـ ينظر يعقوب إسحق في «عالم الكتب» مج١، ع٤، ص ص ٥٥٢ ـ ذدد.

وللمرأة مكانها من المجلات (الجديدة): الضياء مجلة جمعية النهضة النسائية

(١٩٧٧/١٣٩٧)، والشرقية ورئيسة تحريرها: سميرة محمد خاشقجي (منذ ١٩٧٨/١٣٩٨)، وسيدتي ورئيسة تحريرها الدكتورة فاتنة أمين شاكر (منذ ١٤٠١/ ١٩٨١).

ومع المجلات تأتي الجرائد، وقد شهد صاحب المعجم للسنة الأولى من عمله في الجامعة ١٣٨٣/ ١٩٦٣ مولد نظام المؤسسات وجرائد المؤسسات وقد بدأت بحماسة ملحوظة: المدينة المنورة، البلاد، عكاظ، الندوة، اليمامية (اسبوعية)، الرياض، الجزيرة، اليوم، الدعوة (أسبوعية) وزاد العدد بعد ١٣٩٠/ ١٩٧٠ فكان - فيما كان - المسائية (يومية عن مؤسسة الجزيرة). الشرق الأوسط... ولكنه لم يزد كثيرًا وإنما الذي زاد هو الفن الصحفي في الإخراج وتعدد الأبواب وتعدد الصفحات وزيادة النسخ المطبوعة والملاحق، ومنها ما كان للجزيرة وللرياض ولليمامة. وللملحق «اليوم» اسم خاص هو «المربد»... وتولى حديثًا الأستاذ خليل الفزيع رئاسة تحرير اليوم، والأمل به - وهو الأديب القاص - كبير في نهضتها... ومما زاد كذلك: المطابع التي استوردتها المؤسسات.

وفي خبر أن إمارة عسير تستعد لإصدار صحيفة باسم: «السراة».

(ينظر عن المجلات والجرائد كتاب «الدوريات الخليجية» بغداد، مركز التوثيق الإعلامي ١٤٠٢/ ١٩٨٢).

وفي مقابلة إذاعية جرت (في ٢ رمضان ١٤٠٤) مع الدكتور حمود البدر (من مواليد الزلفي ١٣٥٨، صدر له «الصحافة السعودية في ثمانين عامًا» وهو فصل من كتاب، ١٣٨١هـ، وله مما لم ينشر: (البلاد.. دراسة لإخراجها وتبويبها وتحليل محتوياتها من حيث الكمية...، يشغل منصب وكيل جامعة الملك سعود المتخصص[1] بالصحافة) أورد ما يشير إلى رضاه عن الصحافة السعودية في ناحية الإخراج (الشكل)، وما يهيب بالصحفي السعودي إلى أن يكون أكثر حركة ومتابعة شخصية... من الاعتماد على ما يصل إليه جاهزًا وهو وراء مكتبه، ومن هنا كان التشابه الكبير بين جريدة وجريدة. ولعله يشير بذلك إلى حاجة من حاجات العمق (المضمون).

---

(١) وهو الآن الأمين العام لمجلس الشورى منذ أنشئ منذ أربع سنوات.

[النقد الأدبي:]

وما قاله عن مجموع النواحي.... يرد عن الناحية الأدبية - وأولى أن يرد - وصحيح أن هناك أخبار الأدب والأدباء وتعريف بالصادر، وملاحظات تريد أن تكون نقدًا... ولكن الموجود أقل من المطلوب، ولا يؤهل لوصف الصحافة الأدبية بالنشاط والابتكار، وما يرد فيها على أنه نقد بالنقد الأدبي - وهو ما يقال في الصحافة العربية كلها.

ومعلوم أن المجال الأول للنقد الأدبي هو الصحافة، هو مايكتب على صفحاتها ثمرة لدراسة الدارس، وتخصص المتخصص، وعلم الأستاذ.... على أن يأتي رصينًا، موضوعيًا... فيه عمق وتحليل، ودلالة الذوق السليم... والهدف البناء - على كل حال.

ولعل النقد الأدبي في حاله الحاضرة يعمل على أن يحقق شيئًا من ذلك، ويسعى، ويدّعي، ويتكثر... ويخطو خطوة... إلا أن ناتج الجمع يبقى ضئيلا، ولم يبق عذر - ولم يعد طفلا... ولك أن ترجع بميلاده (الحديث إلى ما قبل العهد السعودي أيام كانت «القبلة» (ومن حرر فيها من العرب) و«بريد الحجاز» والشباب المتوثب الساعي إلى المجد في الإبداع الأدبي والعمل على النهضة بعواملها ومراميها.

ثم كان العهد السعودي - وما زال الكلام متصلا بالشباب الحجازي - فلم تنقطع الحركة - وإن توقف بعضهم، ووجد بعضهم موضوعًا جديدًا - وظل الشباب في جده، وفي الجد ينظم الشعر ويحرر المقالة ويبث الفكر الأدبي في المعنى والمبنى كما تلقاه من التجربة العربية إذ يقرؤها في الصحف أو في الكتب... ولم تكن قليلة الشأن، ولم يكن تلقفه إياها من دون مناقشة وشخصية وإضافة تتناسب مع الظرف الخاص والبيئة الخاصة مع الشعور العربي العام... - ولك أن تقرأ أطرافًا في ذلك في كتابين تكرر ذكرهما هما: «أدب الحجاز»، و«وحي الصحراء»... وليسا وحيدين في بابهما ولكنهما مما يمكن تيسره والوقوف عليه، خصوصًا بعد أن أعيد طبعهما، وفي جريدة «صوت الحجاز» صور أخرى.

لقد غاص الشباب في الموضوعات كلها: اللفظ، التركيب، اللعب اللفظي ومحاربته، الخواء الفكري والسخرية منه، السلاسة مع المتانة، الوطنية، القومية، التجديد... وربما اختلفوا في جزئيات من التجديد، وربما اختلف مجددون متطرفون مع قدماء متطرفين ـ كما هي طبيعة الأشياء، وكثيرًا ما أذكى النار شاب مندفع جدًا كمحمد حسن عواد... يريد أن يكون للأدب الحجازي ـ ثم السعودي ـ زعيمًا يشار إليه بالبنان، وقد يكون العقاد قدوة له. والحق أنه يمتلك عناصر كثيرة تؤهله، وكتابه «خواطر مصرحة» وإن كان (ثورة) وعراكًا... فإنه ليس بالحدث العابر في حياة فتى مثله، وحياة حركة فتية كالتي كانت... على أن العواد لا يصلح مثلا في النقد الأدبي لأنه ينطلق من انفعال ويبقى عند الانفعال ـ ينظر كتابه: تأملات في الأدب والحياة (١٣٥٢ ـ ١٣٥٥).

الأدباء ـ الشعراء ـ هم هم النقاد... ويتبادلون الإطراء مرة، والذم مرارًا، ويشتد التناوش، ويتحزب هذا لهذا أو ذاك وذاك فيكون العواد في واد مثلا، وحمزة شحاتة في واد آخر ـ مثلا... ولك أن تسمي ما يجري معارك، وهي غير قليلة تكون موضوع بحث في الدراسة مع تنبه خاص للتواقيع المستعارة ولا غرو أن غابت أسماء من «أدب الحجاز» كان حقها أن تذكر، وأسماء من «وحي الصحراء» كذلك... وحتى من كتاب عبد السلام طاهر الساسي: شعراء الحجاز في العصر الحديث ـ وتنظر مقدمته.

وكان الأدباء كثيرين... ولك أن تعيد نظرة إلى هذه الكتب الثلاثة، ومنهم من كان ينتظر أن يبقى في الرأس (وأذكر مثلا) عبد الوهاب آشي... ولكنه انزوى وأدار آخرون وجوههم عن الأدب إلى الإدارة مرة، وإلى التجارة مرات.... وممن كان اسمه يرد مقدمًا: عبد اللطيف النشار.. واختفى اسمه.

ويذكر للعواد ثباته الأدبي... حتى تأسيسه النادي الأدبي بجدة....حتى الموت ومن رأي العواد أن خير من يوصف بالناقد الأدبي الحق بين أدباء المملكة هو (عزيز ضياء) ـ وآسف أني لم أقف على نقد للأستاذ ضياء.

كان الشباب ـ وهذا شأن الشباب ـ حركة دائبة وطموح ونشاط، وانعكس ذلك

على نتاجهم الإبداعي وعلى نتاجهم الفكري والنقدي. ولا بد من تطرف وحماسة... ومن ثم حدة وتعصب وشدة... وخروج عن المقصود ودخول فيما ليس من الأدب نفسه إلى أمور شخصية وإلى حزازات خاصة....

ويبلغ الأمر حد التنبه إلى الخطر المحدق وضرورة التعقل... وإذا كانت «المنهل» قد فتحت صدرها للنقد الأدبي، وصارت فيه مصدراً لا يستغني باحث عنها... فإن من مفاخرها قولها إنها دعت إلى وقف هذه الحملات، والمهاترات.

ولبيان مكانة «المنهل» من (النقد) خصص الكتاب الفضي للمنهل (١٣٦٩/ ١٩٦٠) فصلا بعنوان «بحوث النقد» (ص ص ١٣٣ - ١٣٥) قال: (لمجلة المنهل أسلوب خاص في النقد... ويخال بعض من لا يدققون في الأمور أنها خالية في أكثر الأحيان من النقد.... ولكن الحقيقة الواقعة أنها مليئة بألوان النقد... نقد الأدب.. نقد المجتمع.. نقد الحياة... ولكن بأسلوبها الخاص... والنقد فيها أخفى من دبيب النمل.. وقد تستعمل (أدب التقية) فيما تريده من نقد... وهي لا تجابه المنقود بالنقد المر المثير، وذلك لضمان حسن توجيهه وحسن تنبيهه.. وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ وبعداً بالنقد عن المهاترة التي كثيراً ما رأينا النقد وصل إليها حتى ولو كان نقداً موضوعياً.. ومع ذلك لم يسلم المنهل من عقارب المهاترات...).

ثم شرع يستعرض البحوث: (وأول نقد لأثر أدبي حديث في الحجاز كان موجهاً لكتاب «وحي الصحراء» (...) فقد أشار المنهل في استعراضه للكتاب إلى أن (هناك بعض مقالات وقصائد ومقطوعات لم تسمُ إلى أوج الكمال والنضج في الكتاب)، نشر ذلك في العدد الثاني من السنة الأولى الصادر في محرم ١٣٥٦ - مارس ١٩٣٧.

وثاني نقد فيه كان موجهاً إلى صميم (الأدب الحجازي) يومئذ (...) وثالث نقد وجه من المنهل إلى الأدباء (...) بعنوان «أدب النفس وأدب الدرس» (...) ونقد المنهل كبار الأدباء المصريين: إبراهيم عبد القادر المازني، زكي مبارك، طه

حسين(...) ولأول مرة في تاريخ الأدب السعودي الحديث يوضع الأدباء (في قفص الاتهام).. نشر في ذلك سلسلة مقالات بدأت بعدد صفر ١٣٦٥ ـ يناير ١٩٤٦ بقلم الأستاذ عبد الله عبد الكريم الخطيب...).

ويمضي «المنهل» يستعرض بحوثه ويفخر بموضوعيته وترفعه عن المهاترات، ويمكن لفخره أن يعكس ظاهرتين غير محمودتين في الجو الأدبي، وفي النقد الأدبي: الذاتية والمهاترات. وعد المنهل من أولياته (ص ٨٩): أنه (أول صحيفة وطنية قاومت نزعة أدب المهاترات بكل ما أوتيت من جهد قولا وعملا، حتى أطفئت جمرة هذه الجرثومة الوبيلة، أو كادت من صحافتنا وأدبنا (أخيرًا)... فلا يصح إلا الصحيح).

وأشك في أنها ماتت بمعنى الكلمة... ولكنها خفَّت، وكادت تطفأ.. ويسير تاريخ النقد الأدبي في هذه الطريق، وهو دليل حيوية ـ على أية حال، وتبقى الحدة سائدة فيه وكأنها شرط في النقد مع محاولات لتخفيفها أو إخفائها ومع البعد الممكن عن المسائل الشخصية...

ولا أدل على بقاء الشدة من «المرصاد» الذي كتبه إبراهيم هاشم فلالي في نقد أدباء متقدمين في الصدارة مثل: القنديل، ضياء الدين رجب، محمد حسن فقي، حسين سرحان، حسين عرب، محمد حسن عواد.... الخ.

ويذكر أن الفلالي اعتدل في الجزء الثاني ومال إلى الثناء... ـ ينظر المرصاد ومرصاد المرصاد ونقد المرصاد وقد صدرت في كتاب واحد عن النادي الأدبي بالرياض ١٤٠٠ في طبعة جديدة.

وتكون صحيفة «الأضواء» بجدة والقائمين عليها صفحة أخرى من تاريخ النقد الأدبي، وكان على القائمين نضج وفيهم حيوية... ولا بد للدارس من وقفة عند عبد الفتاح أبو مدين هذا القادم من ليبيا ومعه ثقافة أخرى ولغة أخرى... وتقف عند كتاب «أمواج وأثباج» كما تقف عند «المرصاد».

ولا بد من عودة جادة إلى الصحف، مع وقفة متأملة لمعرفة أصحاب التواقيع

المستعارة.... وإفادة مما صدر متأخرًا من مقالات مجموعة في كتب وملاحظة أن الشباب الذين صاروا كهولا ـ وشيوخًا ـ لم يتوقفوا عن (مناوشة) بعضهم، ولم يتوقف الطالعون بعدهم عن مناوشتهم... والفلالي مثل من هؤلاء وكأن الأذواق تتغير والأماكن تضيق بأهلها... ولا يلبث المتقدم أن يسوءه المتأخر، وها هو ذا حسين سرحان يكتب في جريدة «البلاد السعودية» (١٣٦٩): نفسية جديدة لجيل جديد: (... أتيح لي مرات وكرّات بلا قصد مني أن أتصل بفئات من شباب هذا الجيل من موظفين وغير موظفين فلم أشهد فيهم خلة تمدح أو تستطاب (...) جيل جديد يريد أن يساير زمنه، وأن يسبقه أيضًا في أكثر الأشواط، بلا أهبة تامة، ولا استعداد كامل...).

وتجد مثل هذا لدى محمد حسن فقي في مقال: (الحالة الأدبية عندنا) ـ «وحي الصحراء» ص ص ٤٤٢ ـ ٤٤٤: (ألمح بين عدد يسير من الشباب ظاهرة خطرةعلى كيان نهضتنا الأدبية الحديثة، هذه الظاهرة هي حبهم للظهور وتكالبهم على الشهرة الكاذبة...).

وما نحن بصدد التأريخ الكامل للحركة...

ولكنني أدركت الصحافة السعودية في ثمانينيات القرن الهجري/ ستينيات الميلادي فلم يلفت نظري شيء اسمه النقد الأدبي على وجه صريح... مع أن الحياة الأدبية قد تطورت وتوسعت وجدت فيها أجيال ولم يبق الحجاز وحده في الحداثة فقد لحقت به المناطق الأخرى في الشرقية والوسطى... والجنوبية وصدرت عنها وفيها الكتب والدواوين...

ومن يدري فلعله الهدوء النسبي الذي أعقب عاصفة من جدال وربما نزاع بين شيوخ وشباب، وحرص على المكانة وسعي إلى الصعود ثم كان عمودي وشعر حر... وكان غموض وسمات من السريالية والرمزية...

من يدري.. (ينظر الفوزان ج٣) وربما كان لصدى هذه المذاهب ودلالتها على الجديد والتجديد أثر في بناء كتاب «شعراء نجد المعاصرون» على اهتمام خاص بالرومانتيكي والواقعي... والرمزي والسريالي...

ولا يعدم المتتبع دليل على (الحساسية)... وكأن ناقدك الأدبي يمس كرامتك، رأيت ذلك في موقف للأستاذ عبد الله بن خميس من الأستاذ عبد الله نور؛ أما الخلاف على جيم جدة بين الجاسر والأنصاري فكان يخرج بأصحابه عن الهدوء المطلوب منهما والمنتظر من عملهما....

وربما كان الغالب على النقد ـ في غير ذاك، إن وجد ـ عين الرضا، والوقوف عند الحسنات، وتكبير هذه الحسنات أحياناً، ولا تعدم أن تحس أن وراءها صاحب الأثر المنقود نفسه.

يمكنك أن تصف حال النقد عمومًا بالهدوء... وإذا لم تلمح وراء الهدوء تحفزًا لخطوة جديدة، ونشاط جديد... فإنك ستقتنع بالخطوة الجديدة عندما تقع، وبالنشاط الجديد عندما يقع... وإذا كنت قد بعدت عن البلد... فلك من كتاب الأستاذ يحيى محمود ساعاتي ما يعوضك شيئًا في الاستدلال، نقصد كتابه: «الأدب العربي في المملكة العربية السعودية ـ بيليوجرافيا» ـ الرياض، دار العلوم ١٣٩٩/ ١٩٧٩ فإنك واجد ذلك في عنوانات المقالات التي يلتقطها ويعين تاريخها ومكان نشرها من مجلة أو جريدة أو كتاب... وربما لمحت وراء ذلك ـ مع متابعات متقطعة بعيدة ـ نضجًا أكثر، ،عمقًا نسبيًا، وجديدًا من الثقافة الواردة من قراءات لأدباء عرب ولترجمات...

شرع النقد (يلم نفسه)، ويثبت مكانه، ويعرب عما يجب أن يكون عليه، وشرع يتابع الأنواع المتعددة، وقد يبدو (منظرًا)... وقد يميل عدد من أصحابه إلى ضرب من التخصص، وتنال القصة في ذلك نصيبًا وافيًا...

وتكون «الصمت والجدران» لسباعي أحمد عثمان دليلا آخر (لبوادر) النضج والوقفة المتأملة وقل المسؤولة... وحسنًا فعل الأستاذ عثمان إذ ألحق بالطبعة الثالثة من مجموعته ما قيل فيها من كلمات، ولم يدل في مقدمته القصيرة على الخطوة المشار إليها في تاريخ النقد، وإنما دل كذلك على الخطوة التي تحققت في موقف المنقود،

فلم يعد ذلك المستشار المستشاط وكأنه مجروح الكرامة، النادم على أنه لم يأخذ للأمر أهبته. قال: (... والواقع... أن اهتمام الأقلام الناقدة، أو غير الناقدة ـ بمثل هذا الحرص ـ على العمل الأدبي الذي يطرح في الساحة... أمر يدل على عافية فكرية، وصحوة أدبية، في كثير من مثل هذه المناسبات... وقد حرصت على أن أستفيد من كل كلمة... معي، أو ضدي...).

ولشهادة الأستاذ عثمان لدي ذات دلالة خاصة فقد كان ـ وما يزال ـ محرراً في جريدة المدينة يوم كنت في الرياض... وعليه فقد رأى ما رأيت ـ أو رأيت ما رأى ـ من سير الأحداث في عالم النقد الأدبي... وقل عافيته وصحوته...وإذا قرأت كتاب الدكتور منصور إبراهيم الحازمي: «فن القصة في الأدب السعودي الحديث» قلت: كم نحن بعيدون ـ أي متقدمون ـ عن نقد محمد حسن عواد لمرهم التناسي ـ لقد تقدمنا كثيراً، فهذا نقد قصصي بمعنى الكلمة.

وحصل في نقد الشعر شيء من هذا، فقد تطور ـ كما تطور الشعر ـ ولكننا نبقى ننتظر كتاباً مناظراً لفن القصة من الدكتور الحازمي (أو من غيره)! وحال الشعر أكثر عنفاً وأدعى إلى الجدال! والصراع بين قدماء وجدد يكاد يكون صارخاً.

ولا أشك في أن الذي في الساحة أكثر قليلا مما استدللت عليه رغم ما ينتظر أن يكون من سلب مع الإيجاب، وما ينتظر أن يصدر لدى خلاف ـ ولا أريد أن أقول: عراك أو صراع ـ بين جيل وجيل،وبين شباب يبلغون في مفهوم التجديد درجات مختلفة يداخلها ادعاء وفراغ وسعي لاحتلال مكان ليس لهم... رغم وجود من يمتلك الثقافة والأصالة... ومن ثم تهدأ الأحوال ويأخذ كل حقه... ويذهب الزبد جفاء، ويبقى ما ينفع الناس...

لا أشك...

ولا بد من أن أذكر الباب الذي فتحه الشيخ الجاسر على مصراعيه في مجلة «العرب» لنقد المؤلفات والتحقيقات، خاصة ما كان منها قائماً على تاريخ المملكة

وأدبها وقبائلها ومواقعها ـ وعلمه في ذلك عـجيب غزير يصعب أو يستحيل أن يتهيأ لغيره.... ويلج الباب معه باحثون آخرون.

ثم: الدراسات الأدبية... وقد رأينا أطرافًا منها، أي من تقدمها...

[تحقيق التراث:]

ثم: التحقيق، ولا بد من وقفة خاصة عنده ـ ولنتذكر أننا هنا نتابع تيارات الأنواع الأدبية، وهـي أهم ما تقوم عـليه الخاتمة لأن البـحث الأدبي كان الدافـع الأساس إلى المعجم... ولأنه ـ بعد ذلك ـ يمكن أن يكون مثالا لـغيره من مظاهر الحياة الفكرية في التأليف والطبع، نكتفي من الوقفة عندها بالاشارة اللماحة.

وتأخـر التـحقيـق العـلمي فـي الأدب (واللغـة) ولم يـدخل في مـهمـات الأديب السعودي الأساس وكـأنه اكتفى بما كان يتهيـأ منه في العالم العربي الـواسع، والعالم الإسلامي، بعد الذي عمله المستشرقون ومعه...

والشيخ الجـاسر سباق في أشيـاء كثيرة وكان يعنـى خصوصًا بشعر يـلاقيه خلال بحثه وقراءاته فيسـجله ويبوبه، ويصدره ـ في «العرب» تباعًا في مـجلته «العرب» منذ السنة الأولى: عبد الله السلولي، الصمة القشيري، جحدر العكلي، يزيد بن الطثرية، القحيف، عروة بن أذينة... ـ ينظر كتابه «مع الشعراء».

وقد نال حسن شاذلي فرهود الدكتوراه من جامعة لندن في يوليه ١٩٦٦/ ١٣٨٦ بتحقـيقه كتاب «الإيضاح» لأبـي علي الفارسي ـ مع مقـدمة تحليلية ـ فـي جزءين، ثم عاد وعين فـي قسم اللغـة العربية من كـلية الآداب من جامـعة الرياض (الملـك سعود) فطبع الجزء الأول، ثم الثاني وبينهما تحقيقات أخرى، وبعدهما كذلك ـ ينظر.

وحقق الدكتـور أحمد محمد الضبـيب كتاب «الأمثال» لأبي فيـد مؤرج بن عمر السدوسي ونشره فـي العدد الأول من مجلة كلية الآداب بـجامعة الرياض (١٣٩٠/ ١٩٧٠) ـ وله اليـوم تحقيـق لكتاب الميداني: «مجـمع الأمثـال» معد للـطبع. ويعـنى الدكتور حسن محمـد باجودة ـ إلى عنايته بالتفسير والتـأمل الحديث في سور القرآن

الكريم ـ بتحقيق الشعر، فكان له في ذلك أكثر من كتاب، عرفت منها: «ديوان عبد الله بن رواحة» ـ دراسة وجمع وتحقيق ١٣٩٢/ ١٩٧٢ ـ ١١٦ ص.

«ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي» الجاهلي ١٩٧٣ ـ ٩٩ص.

«ديوان أحيحة بن الجلاح» ـ دراسة وجمع وتحقيق ١٣٩٩/ ١٩٧٩ ـ ٩١ ص.

وأصدر د. محمود حسن زيني: «قصيدة البردة» لكعب بن زهير، شرح أبي البركات ابن الأنباري ـ دراسة وتحقيق، جدة، تهامة ١٤٠٠/ ١٩٨٠ ـ ١٤٨ ص.

وعني الدكتور عبد العزيز محمد الفيصل بالقشيريين فجمع «شعر القشيريين» وأصدره محققًا سنة ١٣٩٨ باسم «شعراء بني قشير»[١].

كما أصدر «ديوان الصمة بن عبد الله القشيري» الرياض، النادي الأدبي ١٤٠١/ ١٩٨١ ـ ١٩٢ ص.

ولعلاء الدين أغا: «ديوان أبي النجم العجلي»، صناعة وشرح، الرياض، النادي الأدبي ١٤٠١/ ١٩٨١ص ٢٨٥.

وتوجه الدكتور عبد الله بن عبد الرحيم عسيلان إلى الحماسة «حماسة أبي تمام» فحققها وصدرت في الحلقة (١٤) من منشورات المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ ٦٢٤ ص.

ثم حقق كتاب «معاني أبيات الحماسة» للحسين بن علي النَّمري (المتوفى سنة ٣٨٥، عوَّل فيه على شرح أحمد بن أبي رياش القيسي، وقد صدر عام ١٤٠٣ (١٩٨٣) عن مطبعة المدني بالقاهرة في ٣٢٨ ص ٥ ـ وللدكتور عسيلان في التحقيق: «أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز»، ١٤٠٠، و«الاجتهاد في طلب الجهاد» لابن كثير ١٤٠١.

وصدر عن دار العلوم بالرياض: حسن عيسى أبو ياسين ـ «شعر همدان وأخبارها» ١٤٠٣/ ١٩٨٣ ـ ٤٥٥ ص.

(١) ثم عنّي بشعراء بني عقيل فجمعه وحققه عام ١٤٠٨ باسم «شعراء بني عقيل وشعرهم».

وتوجه باحث آخر هو عبد الحميد محمد المعيني فجمع وحقق «أشعار بني تميم في الجاهلية». بريدة، نادي القصيم الأدبي ١٤٠٢/ ١٩٨٢ - ٤٩٥ ص، الكتاب في الأصل رسالة دكتوراه.

وللدكتور ناصر بن سعد الرشيد: «شعر يزيد بن الطثرية»....

وللأستاذ عمر بن محمد سليمان القطان: «شعر معن بن أوس المزني»...

وهناك تحقيقات مهمة في الشعر والأدب وفي غيرهما، صدرت، خصوصاً، عن مراكز البحث في الجامعات، ومن أساس رسالتها: إحياء التراث.

ونرجو أن يفيد المحقق السعودي من خبرة تجارب سابقيه من عرب وغير عرب، وأن يحذر أن يقع فيما وقع فيه سابقون من عجلة وتكرار ومن تدليس ومن بذل الجهد فيما لا يستحق الجهد... وتحقيق المحقق - إن عالم التراث واسع وغني؛ والمنافسة والسرعة والكسب الحرام لا تجدي صاحبها نفعاً.

أما الجهد الذي بذله الأستاذ محمد بن أحمد بن عيسى العقيلي في «ديوان السلطانين» و«ديوان القاسم... ابن هتيمل» فهو مشكور ولكنه ليس التحقيق المطلوب لأنه اختار واختصر وحذف.... وكأن غرضه التاريخ أولا.

وللمحقق السعودي مجال خاص في تراثه القريب.

وقد رأينا الخدمة التي أداها السعي إلى جمع ديوان بجمعه «العقد الثمين من شعر ابن عثيمين» (١٣٧٥). وعلمنا خبر تحقيق محمد بن سعد بن حسين لديوان ابن بليهد، وهناك من يحقق ديوان سليمان بن سحمان.. ولعبد الرحمن بن إبراهيم زين العابدين الحفظي (جمع وتحقيق): «شعر آل الحفظي بعسير ومعاصريهم»، أبها، النادي الأدبي.

[دواوين شعر لم تنشر:]

وأحسنت دار تهامة بجدة إذ أصدرت لحمزة شحاتة «الرجولة والخلق الفاضل» بعد أن كدنا نفقد الأمل في الظفر بها، ولعل الدار تعمل على إصدار شعر شحاتة

مجموعًا في ديوان، ومقالاته وكلماته النثرية في كتاب، كما أصدرت له «رفات عقل» و«رسائله» إلى ابنته - إن تراث حمزة شحاتة تراث إبداع وفكر.

وأحسب أن نشر التراث القريب واجب... وما زالت آثاره مخطوطة، وكم من مرة أشير إلى دواوين شعراء المدينة مع بيان مكان وجودها... ديوان الأسكوبي، ديوان الزللي، ديوان البيتي، الجداوي، محمود شويل... وشعر برادة، والصحاف، والعمري وغيرهم ممن يعرفهم الدكتور الفوزان والدكتور عبد الله الحامد - جيدًا في سلبهم وإيجابهم.

وليس من الصحيح أن يبقى شعر الغزاوي - وقد غادر صاحبه الدنيا - من غير جمع وتحقيق (وشرح المناسبات). فإن هذا الشعر - والشاعر - مَعْلَم من معالم الأدب الحجازي - السعودي في خيره وشره، وسلبه وإيجابه، رضينا أم لم نرض، ولا ندري - وندري - لِمَ لَمْ يصدره صاحبه في حياته وهو المتمكن مالا وجاها ومنزلة!

يحدثنا الأستاذ الشاعر محمود عارف في «المنهل» (ذو الحجة ١٤٠٣/ ١٩٨٣) فيقول: (إنه ولد أوائل القرن الرابع عشر بمكة المكرمة، توفي يوم الاثنين الموافق ١٤٠١/٦/٢٢، ويعتبر طليعة شعراء الجيل الأول، وأن ورثته أهدوا مكتبته إلى (جامعة أم القرى) وقد ترك زهاء أربعين صندوقًا من الكرتون الورق مكتظة بالثروة الأدبية وهي عبارة عن آلاف الصفحات مطبوعة بالآلة الكاتبة تحتوي على مختلف الموضوعات في الأدب واللغة والتاريخ والتحقيقات والشذرات، ومعظمها قد نشر في الجرائد والمجلات المحلية، ويقال إن هذه الكنوز الأدبية موجودة حاليًا لدى سعادة السيد ياسين علاف ابن أخت الغزاوي وشقيق الشاعر إبراهيم علاف (...) وربما يكون حجم الشعر الغزاوي يزيد على عشرة دواوين ضخمة، وحجم النثر يتجاوز اثني عشر مجلدًا...).

وآن الآوان لجمع ما تناثر من شعر حمزة شحاتة في ديوان جامع مانع.... وجمع دواوين أحمد قنديل، مع ما لم ينشر له، في ديوان واحد، وشرع محمد حسن عواد

في صنع ديوان موحد أصدر منه المجلد الأول، ومضى قبل أن يتم المشروع، وأحسب أن بشعر (محمد عمر عرب) الذي صدر في طبعتين من «الشجرة ذات السياح الشوكي» حاجة إلى الإكمال أو التحقيق.

وفي الحديث الأسبوعي الذي يعده الدكتور محمد بن سعد بن حسين بعنوان «المكتبة السعودية» علمنا أن الأديب عبد الإله جدع (وهو شاعر على النمط الحديث) أصدر المجموعة الشعرية الكاملة لدواوين أبيه: محمد إبراهيم جدع، وهي خمسة: «وحي الشاطئ»، «الإلياذة الإسلامية الجديدة»، «أهازيج»، «نبع الصفا»، «نداء الحب»، وأشار الدكتور محمد بن سعد إلى المجموعة الكاملة لشعر محمود عارف كذلك، كان الحديث، الجمعة مساءً ١٤٠٥/٣/٧ = ١٩٨٤/١١/٣٠ والبرنامج نافع جداً في باب (المطبوعات السعودية).

وحسناً فعل عبد الوهاب آشي إذ عاد مؤخراً إلى شعره فأصدر في «شوق وشوق»، وحسناً يفعل حسين عرب إذ (يقوم حالياً بإعداد مجموعة من قصائده ليصدرها في أول ديوان له)[1] حسناً فعلا وإن جاء العمل متأخراً ـ ولد الآشي سنة ١٣٢٣، وولد عرب سنة ١٣٣٨ ـ والمهم العمل والجمع والإصدار.

ومهم كذلك الجمع التام، وتذييل القصائد بتاريخ النشر ومكانه، والأمانة المطلقة، ورد التواقيع المستعارة إلى حقيقتها، ولا خوف في ذلك ولا ضير، ومن حق الشاعر أن يشرح المواقف ويبين ملابستها وأن يعترف حيث يكون تناقض وحدوث ما لم يعد يرتضيه أو يخشى أن يذكره... من حقه وواجبه لأنه لم يفعل اليوم فسيخفي حقيقة أو يضيعها، ولن يعدم ـ غداً ـ محققاً مدققاً يظهر المخفي، كما لا يعدم من يفسر الأشياء بغير ظروفها وحقائقها فيخسر صاحبها من حيث قدر الربح!

ثم لِمَ لَمْ يكمل محمد حسن فقي ما بدأ الخطوة الأولى منه بـ «قدر.... ورجل»؟

(١) صدر بعنوان «المجموعة الكاملة-ديوان حسين عرب» في جزءين (٣١٥+٣٠٢=٦١٧) بطباعة حسنة مزدانة بالرسوم في (شركة مكة للطباعة والنشر) بدون تاريخ الطبع وبمقدمة ضافية للدكتور عبدالله بن محمد الغذامي مؤرخة ١٤٠٣/٨/٢٣.

ولِمَ لمْ يجمع حسين سرحان دواوينه... في ديوان واحد؟! ويبقى مشروع متكامل ليتجرد له محقق أمين هو «ديوان الشعراء المقلين» من طلائع النهضة الحجازية: محمد صبحي[1] ، محمد صلاح خليدي، عبد القادر عثمان، عبد الوهاب النشار، عبيد مدني[2] ، حامد دمنهوري، محمد سعيد العامودي (في غير الرباعيات). ويمكن أن يتعاون على هذا المشروع المجدي أكثر من محقق، وقد يؤدي التعاون إلى تعليل علمي للقلة في الشعر، أو في ترك الشعر والتوجه إلى غيره وغير الأدب من شؤون الحياة وسُلّم مراقيها، ويحسن المباشرة العاجلة بالعمل لوجود عدد من هؤلاء الشعراء في الأحياء، وقبل أن تضيع الجرائد وتختفي المعالم - ولهم في كتب «أدب الحجاز» و«وحي الصحراء» و «نفثات من أقلام الشباب الحجازي» منطلق أول.

وفي غير الحجاز شيء مما في الحجاز لشعراء ممن كانوا قبل المملكة... أو بعدها، في نجد وفي غير نجد: الشرقية، الجنوبية.... فأين ديوان حمد الحجي[3] ، ولم لم يصدر مقبل العيسى - شعره في ديوان؟ وأين دواوين محمد سعيد الخنيزي؟ وغيرهم وغيرهم!.

والقائمة تطول، ولسنا بصددها وإنما هي تذكرة للمحققين... وللشعراء الأحياء كذلك، والدكتور محمد بن سعد بن حسين عارف بالمخطوطات النجدية ومظان الدواوين منها.

وليست المسألة مسألة الشعر وحده، وإنما النثر، والكتب المؤلفة وما زالت مخطوطة هنا وهناك عرضة للضياع، وقد ذكر - مثلا - الفوزان: «اللآلئ الثمينة في أعيان شعراء المدينة» و«تراجم علماء جدة»... ولمثلهما مثلهما الكثير في أنحاء المملكة المترامية الأطراف، وللمحققين فيها ندحة عن التنافس أو التدليس، وعليهما واجب لا يقع على من سواهم.

[جمع مقالات المقلّين من الكُتّاب:]

ونذكرهم بجمع المقالات في كتب بأسماء أصحابها المكثرين؛ فإذا كانوا مقلين

(١) هو محمد صبحي طه حلبي الأصل، غادر البلاد بعد زوال حكومة الشريف حسين إلى (الحديدة)وتوفي هناك.

(٢) نشر ديوانه باسم «المدنيات» كما تقدم في ترجمته

(٣) طبع باسم «عذاب السنين» عام ١٤٠٩هـ.

ألفت بين مجموعة منهم في كتاب واحد، وبعودة عابرة إلى «أدب الحجاز» يجدون عبد الوهاب آشي، محمد جميل حسن، حامد كعكي، عثمان قاضي، محمد البياري، محمد علي رضا، محمد عمر عرب، عبد الوهاب النشار، عبد الله فدا، محمد شيخ حمدي، محمد سرور الصبان؛ ونظرة أخرى إلى «وحي الصحراء»: حسين خزندار، عمر صيرفي، عبد السلام عمر، عبد الحميد عنبر، محمد حسن كتبي....

وتجد أسماء أخرى في المناطق الأخرى من المملكة.... وعلى الأحياء منهم واجب (المبادرة) إلى الجمع والنشر؛ أما الأموات فينوب عنهم المحققون.

ولا بد خلال هذا وذاك من جمع ديوان خاص بالشعر المنثور فيه: أحمد سباعي، عزيز ضياء، عبد القدوس الأنصاري، محمد حسن عواد،... ويمكن أن يكون هذا الجمع جزءاً من رسالة للماجستير ـ مسبوقًا بدراسة الظاهرة في سماتها وعواملها وحياتها وموتها...

وزاول الأدباء ـ والكتّاب ـ أنواعًا أدبية صغيرة تلتقي مرة مع المقالة، ومرة مع القصة ولا تخلو أحيانًا من نكهة شاعرية في حدود ما لصاحبها من قلم سيال وخيال، وما يمكن أن يسكبه فيها من عاطفة أو تأثر... زاولوها على قلة، ولكنها تذكر، وقد تتقدم مع الزمن.

[السّير الذاتية:]

ومن هذه ما يعد من السيرة الذاتية (الكلام عن النفس في مسرد حياة صاحبها)، ويرد هنا اسم الشيخ أحمد سباعي وقد رأينا له «أبو زامل» الذي صار في طبعة ثالثة: «أيامي» ـ وفي تعدد طبعاته ما يدل على أهميته مضمونًا وشكلاً، ويعرض الشيخ السباعي أطوارًا من حياته مرتبطة بمجتمعها في مؤلفات أخرى وهو جريء نقاد، ذو قلم وملاحظة...

ويذكر لمحمد حسن فقي كتاب ما زال مخطوطًا يتحدث فيه عن نفسه وحياته على ما يشبه منهج طه حسين في «الأيام» ـ ياحبذا لو طبع!

وينشر عبد العزيز الربيع: «ذكريات طفل وديع»، ولو عاش لكتب ذكريات الكهل وذكريات الشيخ - وكان لديه الكثير من شؤون الحياة والفكر والعلم والأدب مما يقوله.

ويؤلف كتاب أحمد قنديل «الجبل الذي صار سهلا» ضربًا من السيرة الذاتية مختلطة تمام الاختلاط بالأحوال الاجتماعية في مرحلة من مراحل حياته ومراحل التاريخ، والجبل هو جبل (كرا) الذي كان يعترض (الصعود والنزول من الطائف وإليه) ثم شق طريق عبره ذلله....

قال المؤلف في صدره: (ليس هذا الذي تقرأ هنا - قصة ولا هو رواية - بالمعنى الحديث، ولعله.. نوع من.. حكاية مطلقة (..) هو سوانح مبعثرة... ذكريات متناثرة.. (...) إنه أوراق خريف تتحاتٌ... وتتساقط من شجرة عمر مكتوب!!).

وفي هذه الكتب المؤلفة في السيرة الذاتية ما يعرض عرضًا تاريخيًا فقط، كما يكتب أي تاريخ دون قصد إلى الإخراج الأدبي لأن المهم الأول - والأخير - هو الحدث.

ومن أوائل ما يذكر في هذا «هذه حياتي» لمحمد حسن كتبي (أو حسن محمد كتبي)، وقد أعاده في طبعة ثانية موسعة.

ويدخل في هذا «ذكريات» أحمد علي التي نشرها في «المنهل» أولاً ثم جمعها في كتاب - ياحبذا لو زاد فيه. ثم «ذكريات مدرس» لعبد الرحمن بكر صبَّاغ...

وفي المذكرات ترد «مذكرات طالب» للدكتور حسن نصيف - وقد طبع ثلاث مرات، دليلا على اهتمام القارئ به وإشارة إلى طراوة أدبية فيه، ويمكن أن يمت إلى قائمته ما ألفه محمد عمر توفيق في كتابيه: «٤٦ يومًا في المستشفى» و«من ذكريات مسافر».

ترى أيكتب شيوخ الأدب ذكرياتهم؟ ولم لا، وفيها نفع عميم ومتعة عميمة.

ولا تعدم في طول الصحافة وعرضها، قديمها وحديثها، وفيما حصل من مقالات مجموعة في كتاب من صفحات من الحياة ومن الذكريات منها ما عرض صرفًا،

ومنها ما سعى صاحبه إلى التلوين الأدبي.

[كتب الرحلات:]

وإذا ذكرنا «من ذكريات مسافر» تذكر للجاسر «رحلات»، ولعبد الله الحقيل «رحلات وذكريات» - طبع مرتين، والكتب - هنا - يغلب عليها التسجيل، وقد يسعى صاحبها لاصطياد حادثة تلفت النظر بغرابتها.

ومن أوائل ما يذكر من ثمرات الرحلات كتاب فؤاد شاكر «رحلة الربيع» وقد طبع مرتين، وكتاب محمد عمر رفيع: «في ربوع عسير».

ويُقيِّم الشيخ حمد الجاسر كتبه عن مناطق المملكة ومواقعها على المشاهدة العينية والرحلة إلى المكان نفسه، وفي هذا (التاريخ) تذكر ما كان لمحمد بن عبد الله بن بليهد في «صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار» - إلا أن هذه تاريخ وجغرافية ولاحظ يذكر للطابع الأدبي... في العرض وإن كان ذا قيمة أدبية بما أورد فيه من شواهد الشعر، وما بيَّن لما ورد في هذه الشواهد من مواقع ما زالت قائمة، أو درست...

[الرسائل الأدبية:]

و(الرسائل) ضرب آخر يُعْنَى بها الدارس الأدبي - فضلا عن المؤلف المعجمي والباحث، والمقصود بها ما يتبادله أهل القلم من رسالة أو جواب رسالة تكوّن مصدراً لا يستهان به في الدراسة قد عُني الغربيون بجمعه في كتب خاصة، أما إذا صدرت الرسالة عن أديب يسعى إلى التلوين الأدبي فإنها تكتسب أهمية خاصة في الأدب الإنشائي - الإبداعي...

ولا شك في أن لأدباء السعودية حظًا وافرًا من هذه وهذه... ولكن ليس لدينا منها على هيئة كتاب إلا رسائل لحمزة شحاتة، كان يكتبها إلى ابنته، أصدرتها تهامة - بعد وفاته - بعنوان «إلى ابنتي شيرين» - وقلم حمزة شحاتة قلم أديب يجمع الرأي إلى عمق لغة عرضه.. ووصف للأحوال والأشياء والعواطف.... مما يدخله في النوع الأدبي.

[الدراسات الفلسفية:]

وفي عودة متأخرة - لا بد منها - إلى كلمة (الفلسفة) نلاحظ أن الكلمة لم تكن غريبة عن ألسن - وأقلام - الرعيل الأول والثاني من أدباء الحجاز، وهم يغترفون من الكتب - والمجلات - الواردة إليهم من مصر والشام وغيرهما، وحسبك أن يكون من ذلك مجلة «المقتطف» فضلا عمن كان يرد عليهم من أدباء العرب ومفكريهم، أو ماكان يتهيأ لهم لدى سفر أو معرفة للغة أجنبية.

وقد يكون محمد حسن فقي أكثر الأدباء استعمالا للكلمة - غير ما يغلب من روحها عامة شعره - ولو رجعت إليه في «وحي الصحراء» لرأيت له قصيدة بعنوان «فلسفة الطيور» و «كلمة صغيرة في فلسفة التشريع».

وصدرت له حلقة في سلسلة المكتبة الصغيرة في يولية ١٩٨٠/ شعبان ١٤٠٠ فإذا عنوانها «فيلسوف» وإذا به يقول في تقديمها: (... مجموعة، مما استطعت العثور عليه من مقالات كنت أنشرها في الصحف المحلية تحت عنوان «فيلسوف»... وإن كنت لم استطع أن أستخرج منها إلا القليل...

ولقد كنت بدأت في كتابة هذه المقالات منذ أكثر من عشرين عامًا بجريدة «البلاد» (...) ومنذ سنوات قلائل، طلب مني الكثيرون من أصدقائي، وقراء المقالات الأقدمين - طلبوا إليَّ بإلحاح، أن أعاود كتابتها، فاستجبت لرغباتهم وعاودت كتابتها...).

ولا تعدم أدلة أخرى عند كُتَّاب آخرين... والذي قرأه حسين سرحان كثير... ومثله معاصروه.

ثم تتوالى الكتب المصرية (خاصة) بين مترجمة أو مؤلفة أو معدَّة عن أصول غربية...

وتصل إلى المملكة دون شك، ومن ذلك: «قصة الفلسفة اليونانية، قصة الفلسفة الحديثة»... مؤلفات عبد الرحمن بدوي... الأهواني... «الفلسفة الإسلامية» لديبوير... مؤلفات في الحضارة الإسلامية في طليعتها آثار أحمد أمين، وفي الفلسفة الإسلامية... غير ما نشر وحقق من آثار الفلاسفة المسلمين بمن فيهم ابن رشد..:

و«التهافت»و «تهافت التهافت».

تصل هذه الكتب بأساليب شتى، ويقبل عليها القُرَّاء، ومن القُرَّاء من يستطيبها أكثر من غيرها... فالإنسان الواثق من نفسه - ومن دينه - لا يخشى الاطلاع وإشباع نهمه إلى المعرفة - ولا أقول: كل ممنوع متبوع، فما علمت منعًا لهذه الكتب، وحين ألَّفَ الشيخ عبد الله بن خميس كتابه «راشد الخلاوي» لم ير ما يمنع من دراسة ما سماه: فلسفته، ولم يكن الخلاوي فيلسوفًا، وإنما المهم استعمال الكلمة (الفلسفة).

وفي الأدباء - والمفكرين - من يجيد لغة أجنبية، ومنهم من تهيأ أن يدرس خارج المملكة وفي جامعات حديثة... منها الجامعة الأمريكية ببيروت مثل أحمد عبد الجبار، حسين سراج... ولا تسل عن عزيز ضياء فنظرة واحدة إلى كتابه «جسور إلى القمة» وتلتقي بديكارت، وروسو والدوس هكسلي... وابن سينا والفارابي... ناهيك عن عشرات ومئات وألوف الشباب الذين درسوا مبتعثين أو على حسابهم في أوربة وأمريكة... وتخرج بهم ما هو أوسع من الحجاز إلى المناطق كلها...

وأبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري - وقد رأيناه ورأينا اسمه: محمد بن عمر - ظاهرة خاصة في موضوع الفلسفة، في الفقه إن أردته فلسفة، وفي الفلسفة الفلسفة إن خرجت إليها من الفقه والفكر، وله في ذلك: «ديكارت بين الشك واليقين» الرياض، مطابع الشرق الأوسط ١٣٩١ - ٥٦ ص؛ وله (بالاشتراك): «الغناء الباقي في رباعيات الخيام » وغرامه أو فلسفة الكوز ١٣٩٨، غير «النظرات اللاهثة»، و«النظرات اللاهية».

ولعل أبرز ما تبرز به الظاهرة كتابه «لن تُلحِد» (١٤٠٣/١٩٨٣) - وقد رأيناه - وقد كان مقالات موزعة في الجرائد قبل عشرين سنة. وجعل مداره إذ جمعه: الإيمان والإلحاد، وقال: (لم يكن الغرض من هذا السفر ملاحقة شُبَهِ الملاحدة، وإنما كان الغرض تحرير العقل من أغاليط الفكر وإقناع الناس بثمرة الإيمان بالله وبشرعه.

ولهذا كان العنوان «لن تُلحِد»، تفاؤلا وثقة باستجابة العقول المنصفة لموجبات الضرورات الفكرية).

تقرأ في الكتاب فتلتقي بأرسطو، وهيوم، ومل، وباركلي، ومالبرانش، وسارتر، الديكالتيك...

يدهشك بسعة المعرفة، وغزارة المقروء ويثير عجبك للثقة بالنفس وبالعقيدة التي لا يخشى عليها أن يزلزلها أي فيلسوف، فضلا عن انتفاعه أحيانًا بما كان (للمؤمنين) منهم من أدلة...

وإذا كان ديكارت لديه فيلسوفًا كبيرًا، فإنه لا يلبث أن يعصره ويضيّق عليه الخناق على مرأى منك ومسمع صدقته أم لم تصدقه، وهنا، هنا سر أسلوبه وخروجه من التعليم إلى التأثير الأدبي بالمقالة: الاستفزاز. يبدو وكأنه مع الفيلسوف حتى في مفارقته العقيدة، وما هي إلا أن يضرب عنه فإذا هو في صميم العقيدة، وأنت تتابعه مجتذبًا إياك بالإثارة العقلية والانفعال الذهني... وطمعًا بآخر المطاف.

من أين لأبي عبد الرحمن بن عقيل هذه الفلسفة (الغربية)؟ لقد قرأها مترجمة ومعدة، مقالات وكتبًا، وكان عثمان أمين دليله البارز إلى ديكارت... لقد قرأ أكثر مما تتصور... وتأسف أنه لم يكن ذا علم بلغة أوربية.

لقد قال في كتابه ما قال على النهج المناسب لتركيبه العقلي... وعلل لتسمية كتابه بالذي رأيناه، ولو أردنا أن نتدخل ونتوسع لقلنا إن «لن تلْحد» تعني أنك لن تُلْحد إذا قرأت الفلسفة... حتى ما كان فيها من فلسفة الملحدين والماديين.

ولم يكن مرتاحًا من المعري...

ولعلك واجد خلاصة موقفه من الفلسفة في مطلع مقالته (ص٤٧): الفكر المعتزلي حيث قال: (لا يزال شعور العامة الإيمان الشديد بعدم جدوى الفلسفة (...) وفلاسفة المسلمين الذين دخلوها من أوسع أبوابها(...) فإذا كان رأيي أن في الفلسفة خيرًا كثيرًا وكنت شديد الإيمان بجدواها فإنما اصطدم بشعور شعبي، بيد أن هذا لا يهمني، إذا كانت براهيني على حدود الفلسفة ضرورية، فأول ما أستند إليه في هذه الدعوى أن الفلسفة الحديثة دفعت بأوربا إلى حياة عملية، فالمذهب التجريبي فتق

آفاقًا بعيدة في مضمار الاختراعات والمصنوعات والطب والتشريح، والاتجاهات العقلية محّصت الكثير من الخرافات في الآداب والتصورات ومروريات التاريخ، وإن للمنهاج الديكارتي يدًا بيضاء في التآليف العلمية المعاصرة، التي اتسمت بطابع التجرد والاستفاضة في البحث والارتباط بالموضوع، والترتيب والتنسيق والأصالة الفكرية، وما الفنون النظرية الجديدة والتنظيمات الإدارية والاقتصادية التي تعيشها الدول الراقية اليوم إلا نتاج فكر فلسفي عتيد.

والبرهان الضروري الآخر الذي اعتمد على أهمية الفلسفة أن الذين حملوا عليها قديمًا وحديثًا لم يقف على ثنيتهم إلا بتعقيدات فلسفية، فالتفلسف أمر لا بد منه، قال أرسطو ـ حسبما نقل عنه المترجمون ـ: إذا لزم التفلسف وجب أن نتفلسف، وإذا لم يلزم التفلسف وجب أيضًا أن نتفلسف حتى نثبت عدم لزوم التفلسف).

ولأبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري حساب خاص مع القصيمي ـ وقد مر معنا في المعجم أنه عبد الله بن علي النجدي، وأنه حين ألف «هذي هي الأغلال» لقب بملحد القصيم ـ إن القصيمي باختصار نجدي يتفلسف وكأن أبا عبد الرحمن يتبع معه مقولة أرسطو.

لقد أطال حسابه مع القصيمي بدءًا من ص ٢٨٣، وجاء في التوطئة (ص٢٨٤): (منذ نشر القصيمي كتابه «العالم ليس عقلا» يبرهن فيه على أن ألهه المادة العمياء، ثم أتبعه بخطاب مفتوح إلى المادة، نشر في كتابه «كبرياء التاريخ في مأزق» ثم أخذ يهدم أدلة الواجب الوجود فقدم كتابه «هذا الكون ما ضميره»... أخذ شعوره يتكاثر بخطورة الأمر).

وفي ص ٣٠١ (بعد كتاب «هذه هي الأغلال» استقر فكر عبد الله بن علي القصيمي في المجموعة التالية من كتبه: «الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات» «فرعون يكتب سفر الوجود»، «كبرياء التاريخ في مأزق» «هذ الكون ما ضميره»؟ «أيها العار إن المجد لك»، «العرب ظاهرة صوتية»، «العالم ليس عقلا» أو صحراء بلا

أبعـاد... «عاشـق لعار الـتاريخ».. «أيـها الـعقل مـن رآك».... ولي مع هـذه الكـتب وقفـة... وفي ليـلة ١٣/٠١/١٩٧٤ أهدى إلـيّ المؤلف جـملة مـن كتبـه بمنزلـي في (جاردن سيتي) بالقاهرة...).

وفي ص ٣٠٢: (ولـقد قرأت كتـب القصيـمي بعد ذلـك بتمعـن فلم أجد فـكرًا جديدًا متحررًا من بصمات أساطين الفكر والإلحاد، وإنما وجدت طراوة أسلوب ـ مع ضعف اللغة ـ والقدرة على المغالطة والإثارة).

وبعـد، فأبو عـبد الرحمـن بن عقيل الظـاهري ظاهـرة تكاد تكـون خاصة فـريدة وكنت ذكـرت في صلب المعـجم أنه يتشـبه بأبي تـراب الظاهري ودافعي إلى ذلك الغـرابة عـمومًا والإغراب الـلغوي خـصوصًا، أمـا هنا فـأقول إن الفـرق بين الأديبين الظاهريين كبير، ويـبدو لنا أن أبا عبد الرحمن أوسع أفقًا وعلمـا، وأعمق في أشياء لم يطرقها أبو تراب، وربما في أشياء طرقها أبو تراب ومنها الظاهرية ممثلة بابن حزم ـ وأبو عبد الرحمن أصغر سنًا، وبمثابة الابن، من أبي تراب.

ومع أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ونحن في الفقه والفلسفة نقف عند (القائمة) التي مر ذكرها خـاصة بالرسائل فنجد في رسـائل الماجستير: «أسس النظـرية الماركسية» ـ عرض ونقـد في كليـة أصول الدين بجـامعة الإمام محـمد بن سعـود (١٤٠٠)؛ و«الدين والفلسفة المادية»، فـي كلية الشريعة بمكة المكرمة ١٣٩٦)؛ و«المدرسة العـقلية الحديثة في ضوء العقيدة الإسلامية»، في كلية أصول الدين أيضًا (١٣٩٩).

ولا بد مـن أن يكـون قد جـد بعـد الـ ١٤٠٠ جـديد، ويـكون الـشيـخ أبو عـبد الرحمن بن عقيل ـ على هذا ـ جزءًا من حركة عامة قد يعد هو طليعتها... ورائدها.

ويسـلمنا أبـو عبد الرحـمن إلى الفـلسفة بمـعناها الـعام، وإلى ما اشـتقته الحـضارة الإنسـانيـة منـها عـلى مـر الزمـن، ومن ذلك: عـلم الـنفـس، علـم الاجتـماع، عـلم الاقتصاد، علم السياسة... التربية...

وإذا جئنا إلى هذه (العلوم) على أنها فلسفـة أو من الفلسفة رأينا آثارها في المملكة

لدى مبتعثين أو دارسين على حسابهم في أوربة وأمريكا وبعض من البلاد العربية... وإذا كان الأمر كذلك - وهو كذلك - نظرت إلى السعوديين أساتذة في الجامعات وفي المؤسسات، ونظرت إليهم في المؤلفين، وإنهم ليجدون مكانهم في «معجم للمطبوعات» يبدأ بعد ١٣٩٠/١٩٧٠ وكنا تشبثنا تشبثًا بالدكتور حسن علي خفاجي في علم الاجتماع، ثم لم يلبث أن ألف وأصدر وثنَّى عليه الدكتور عبد الله الخريجي. ولا بد من مثلث ومربع، ومخمسة ومسدسة...

والأمور في تطور وازدياد... ومعها الكيمياء والفيزياء والطب والصيدلة.. والطاقة... والفلك...

نكتفي - هنا - بهذا القدر من الخطوط العريضة للمسيرة الأدبية بما تيسر لنا من موادها على القرب والبعد، لنقول كلمة - على وجه الاختصار - عن الجوانب الأخرى من الحياة العلمية ومطبوعاتها، وربما كانت خطوط من المسيرة الأدبية تفسر أمورًا من الجوانب الأخرى وتلتقي وإياها، وتسير معها متوازية، متلاصقة أحيانًا... ضمن تطور جملة الحياة الحديثة في العصر الحديث.

[التاريخ وعلم الأنساب:]

وأقرب ما يذكر إلى الأدب: التاريخ، وإذا بدأنا بنجد، وتذكرنا النواة الحية في أدبها: شعر النبط، ذكرنا أن النواة الحية من التارخ تركزت في الأنساب، والعناية بالنسب جزء لا يتجزأ من الحياة ما سادت القبلة ولصق الناس بأرض معينة محدودة لا يكادون يبرحونها فيبعدون إلى الاختلاط بغيرهم ويذوبون في مجتمع حضري للمدن... ولا يكادون يفتحون أبوابهم لغريب... ومع النسب نسابة يحفظون ويروون ويستشهد بهم. ويظل النسب الهاجس الأول مع الإسلام؛ ومع ﴿إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ لأنه لدى أهله ليس نقيضًا للإيمان أو غفلة عن الإسلام، ولكنها التقاليد والأعراف وطبيعة العيش.

ويمكن نقل علم النّسابة من الحافظة إلى الورق، ولا تعدم في المخطوطات ما يدل على

هذا ـ وستطبع هذه المخطوطات وطبع الكثير منها الذي رأيناه في «المعجم» باسم التاريخ.

والنسب ذو صلة بالتاريخ... فإذا قامت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت هي وما صحبها من اتفاق مع آل سعود، وما تخللها من غزوات... عاملا للتاريخ قد يقف عندها ويتوسع فيها ويزيد عليها. ومن هذا وذاك كانت المخطوطات التي خلفها الفاخري، وابن غنام، وابن بشر، وابن عيسى... بانتظار من يتنبه إليها، وينشرها كيفما اتفق أو محققة، وهذا ما حصل على مر الزمن خلال الحدين المحدودين للمعجم وبعد الحد الثاني فيما يخص الفاخري وما زال العمل مستمرًا وربما عثر على مخطوطات عدت في المفقودات، وربما صرَّحت الأسر التي تدخر منها ما تدخر وراثة فقدمتها لمن يهمهم أمرها خاصة بعد أن يطمئنوا إلى ما تكسبهم من مجد... ولا تفضح أسرارًا لقوم لا يناسب فضحهم في أبنائهم...

النسب، وتاريخ المنطقة خلاله، وتاريخ الدعوة... أولئك شاغل أهل نجد.

وشغل أهل الحجاز بتاريخ الإسلام والنبوة والخلفاء، وكان من أبرز المؤرخين قبل ١٣٤٤/ ١٩٢٥ ودخلوا المعجم تمهيدًا حينًا، وأصلا حينًا لدخول طبع كتبه في منطوق المعجم: أحمد زيني دحلان. وتجد في (التمهيد) أسماء أخرى....

ثم جاءت التجربة العلمية في النشر على يد أديب ـ باحث فلسطيني هو رشدي ملحس، إذ حقق ـ وجوّد في التحقيق ـ: «تاريخ مكة» للأزرقي.

وتقدم في التأليف أحمد سباعي فأحسن في «تاريخ مكة» وقد تكرر طبعه دلالة على مكانته، ولكن المؤلف لم يستطع ـ السير بتاريخ مكة، فيدخل العهد الذي عاصره جيدًا و(عاشه) ولو استطاع لسد فراغًا كبيرًا، حتى لو عرضه بهدوء ولباقة لما يعرف عن المؤلف من أمانة وثقة بالرأي والنفس، مع تمكن من القلم وقدرة على اللغة ـ فهو أديب شيخ في الأدباء كما هو شيخ في التاريخ...

وألف حسين محمد نصيف «ماضي الحجاز وحاضره» فأصدر جزءًا ولم يصدر الثاني.

ولو ألف والده الشيخ محمد حسين نصيف وهو الذي عاصر العهدين على جانب كبير من النفوذ والوجاهة لأدى خدمة كبيرة، ولكن المطلب صعب... وفي مذكراته ومقالاته بعض الغنى.

ويا حبذا لو نشرت مذكرات ظلت مخطوطة، معلومة أو مجهولة، منها ما كان لخير الدين الزركلي، ومنها ما كان لفؤاد الخطيب، ولا بد من أن يكون لغيرهما ما لهما.

وخدم التاريخ المعاصر آخرون ذكر منهم المعجم: فؤاد حمزة (لبناني الأصل) وحافظ وهبة (مصري الأصل) ومحمد عمر رفيع... وفؤاد شاكر، وعبد القدوس الأنصاري، وأحمد عبد الغفور عطار.... وخير الدين الزركلي (سوري الأصل) - وكلهم عاصر الملك عبد العزيز وأعجب به غاية الإعجاب، وربما عاش في معيته.

ويرد في المؤلفين: حسين باسلامة، وأمين مدني، محمد عمر توفيق، محمد سعيد العامودي... عمر عبد الجبار... - ولد أمين عبد الله مدني بالمدينة سنة ١٣٣٠هـ، توفي أمين مدني في شعبان ١٤٠٤/ حزيران؟ ١٩٨٤ قبل أن يتم موسوعته.

ونذكر بصدد التحقيق «إعلام الأعلام ببناء المسجد الحرام» لعبد الكريم القطبي بتحقيق أحمد محمد جمال وعبد العزيز الرفاعي، ونحيل إلى ما ذكرنا من كتب التاريخ مقترنة بأسماء المكتبات ولا سيما المكتبة العلمية بالمدينة، وإن كان الذي يصدر عن المكتبات نشرًا فقط، وطبعًا لمخطوط أو طبعًا لمطبوع، ولا نبحث وراء ذلك عن تحقيق علمي - ولا بد من الانتظار...

ولو عدنا إلى نجد، ولم تعد نجد في معزل، لوجدنا الشيخ حمد الجاسر علمًا في التاريخ - تاريخ العرب كله، والجزيرة كلها - فهو علامتها، وفي تاريخ نجد بخاصة، ومن آثار عمق النجدية في هذه العناية التي لا تنفك بالنسب ولعلها ازدادت و(تفاقمت) في السنوات الأخيرة استجابة لاهتمام القارئ النجدي بها، وغير القارئ كذلك، ثم لا بد من تسجيل الحقائق قبل أن تزول شواهدها.

والجاسر (مدرسة) إلى ذلك في التحقيق القائم على العلم الرصين، الواسع

والدراية العجيبة بفك رموز المخطوط، ومن ثم نقل علم المخطوط إلى المطبعة الحديثة، وقد زال منه اللبس وصحح الخطأ... من غير لغو في الحواشي، وادعاء لما لم يكن، بعد سعي طويل في البحث عن المخطوطات.

ولكن الشيخ الجاسر شغل بما قبل المعاصر عن المعاصر، مع ثراء حياته، وعمق علاقاته ونفاذ آرائه ـ أتراه يحتفظ بمذكرات يقول فيها كل شيء، مما يرضي أناسًا ويسخط آخرين، ولكنه يرضى الحقيقة على كل حال، مع التحليل الذي يعرفه امرؤ عرك الأيام، وخبر الأحداث عن قرب، وسمع الروايات عن أفواه طاهرة... ورائدة الحقيقة.

وشغله (النسب) في الأيام الأخيرة، ولقى كتابه «أنساب الأسر المتحضرة في نجد» نجاحًا لم يكن يتوقعه، وفي ذلك دليل على أن مسألة النسب ما زالت حية.

والقائمة تطول، ونذكر ـ مع هذا ـ مؤرخ جازان: محمدبن أحمد العقيلي، ومؤرخ عسير هاشم سعيد النعمي، ولسنا بصدد الفهرسة قدر ما نكون بصدد النقاط الأساس والمراحل الرئيسة أو ما أشرنا إليه من الخطوط العريضة...

[البحوث التاريخية]:

وتقدم في البحث التاريخي جيل جديد تلمذ في العموم على الجيل السابق وانعكست عليه اهتماماته، ولكنه اختلف ـ قليلا أو كثيراً ـ بعد ذلك بدراسته الجامعية خارج المملكة وفي انكلترة خصوصًا...

ويأتي في الطليعة الدكتور عبد العزيز الخويطر، وفي قسم من رسالته تأليف، وفي قسم تحقيق ـ وقد طبعا متفرقين متباعدين. الثاني منهما: «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر»، والملاحظ أنه غيَّر مركز تخصصه إلى تاريخ المملكة، ثم عاصرنا من الزملاء الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري وقد عاد بالدكتوراه من جامعة ليدز سنة ١٩٦٦/ ١٣٨٦ برسالته «دراسة نقدية ومقارنة لأسماء الأعلام

اللحيانية» وأبدى من النشاط في البحث والكشف درجة عالية؛ وما زال كذلك، وكان عبد الله الصالح العثيمين ـ فيما أحسب ـ آنذاك قد أنهى دراسته في قسم التاريخ من كلية الآداب بجامعة الرياض مستعداً لبعثته إلى إنكلترة، وقد وفاها حقها وحصل على الدكتوراه من جامعة أدنبرة سنة ١٣٩٢/ ١٩٧٢ برسالته: «محمد بن عبد الوهاب وأعماله» وعاد الدكتور عبدالله بن عثيمين نشطاً، وأثنى الجاسر على جهوده مراراً تأليفاً وتحقيقاً، وقد ترجم رسالته ونشرها، ونشر غيرها.

ومن الفضلاء الذين عادوا أيام كنا نعمل في الجامعة: الدكتور محمد سعيد الشعفي برسالته: «الدولة السعودية الأولى» ـ جامعة ليدز ١٩٦٧/ ١٣٨٧.

ثم عاد الدكتور عبد الله عقيل العنقاوي برسالته: «تنظيمات الحج ودوره في عصر المماليك» ـ جامعة كمبردج ١٩٦٨/١٣٨٨.

ثم الدكتور صالح محمد العمرو برسالته «الحجاز تحت الحكم العثماني ١٨٦٩ - ١٩١٤» ـ جامعة ليدز ١٣٩٤/ ١٩٧٤.

هؤلاء (بعض) ممن وصل إلينا خبرهم، وهم في جامعة الملك سعود وحدها، وغيرهم هنا وهناك، كثيرون، ويبقى العمل والنشاط في النشر والتأليف، وفي ترجمة (الرسائل) في الأقل.

ويختلط التاريخ بالمواقع الجغرافية وبلغ في ذلك الجاسر المبلغ العجيب المدهش، ويذكر في ذلك من الباحثين الكبار عبد القدوس الأنصاري.... وعبد الله بن خميس. واختار الأستاذ عبد الله بن ناصر الوهيبي ـ الأمين العام لجامعة الرياض في أيامنا ـ هذا الميدان موضوعاً لدراسته في انكلترة للدكتوراه وقد حصل عليها من جامعة لندن في يونيه ١٩٦٩/ ١٣٨٩ وعاد برسالته: «شمال الحجاز في كتابات الجغرافيين العرب ٨٠٠ - ١١٥٠م» وبقي لنا أن ينقلها إلى العربية ويزيد بما هو أهله وما له من ذهن وقلم...

وعدد العائدين المتخصصين بالتاريخ في تزايد، وتفتح لهم الجامعات صدورها وتحاول

أن تغريهم ـ كما تغري أهل الاختصاصات الأخرى لتجتذبهم من سحر الإدارة...

وللتاريخ نصيبه الوافي من المجلات، وتكون مجلتا «المنهل» و«العرب» ضروبًا من التاريخ، ومن البحث التاريخي، والنقد التاريخي، فهما في رأس المراجع بل المصادر الحديثة... وقلت أكثر من مرة إن «العرب» ليست مجلة كما هي المجلة في أذهان الناس من شرقيين وغربيين، إنها نسيج خاص، إنها مجموعة كتب، وقل مجلدات من كتاب واحد ضخم في تاريخ الجزيرة ومواقعها وأنسابها... وتصويب لفضائح وقع فيها الباحثون الآخرون والمحققون... وثلثاها ـ وأكثر ـ بقلم واحد... لعلامة واحد.

ثم جاءت ـ بعد الحد المحدود للمعجم ـ «الدارة» ببحوثها الرصينة... ولا تنس المجلات الجامعية... بل إن دارًا للنشر هي (دار المريخ) في الرياض (ص.ب ١٠٧٢٠) تولت نشر «العصور» وهي: (مجلة نصف سنوية تعنى بالتاريخ والآثار والحضارة... تصدر عن مكتبها في لندن).

مع ملاحظة عامة، هي أن المؤرخين ومحققي التاريخ وأساتذة التاريخ عنوا ـ أكثر ما عنوا ـ بالتاريخ الماضي، والماضي القريب على وجه الخصوص، وقلما أرخوا الأحداث التي يعيشونها، والمجتمع الذي يتطور أمام أعينهم... على حين كان السلف النجدي يؤرخ زمنه، والسلف الحجازي همَّ بذلك وكاد... وكأن المؤرخين المعاصرين ـ على أصنافهم ـ تخلَّوا عن مهمة تاريخ عصرهم للصحافة اليومية لوزارة الإعلام. ومن يدري فلعلهم يؤلفون ولا ينشرون، ولعلهم يكتبون مذكراتهم التي ستستحيل غدًا تاريخًا...

قلت: لا أريد أن أقف عند التاريخ طويلا في تطور التأليف فيه والدرس والتحقيق... فلنذكر للدكتور عبد الرحمن الأنصاري فضله ـ عابرين ـ في التنقيب وما أقام للتاريخ من جمعية... ومتحف... وجهده في اكتشاف (الفاو)، مع إحالة في أمور الآثار والتنقيب على وزارة المعارف.

ولنشر إلى أن أبا عبد الرحمن بن عقيل لم يبق بمنأى فطفق ينشر (سلسلة دراسات ونصوص في البيوتات العربية الحديثة ـ آل الجرباء في التاريخ والأدب....).

وتنبه الشيخ محمد علي مغربي ـ وهو أديب معدود في جيل رائد غاب عنا مدة ثم عاد ـ إلى جانب من التاريخ، يحفظ التقاليد التي آلت إلى الزوال، ويترجم ـ عن معايشة ـ لأعلام من المجتمع قدموا خدمات لبلادهم، فأصدر ما رأينا من «ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة» و«أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة» وما أحسبه استنفد رصيده، فنحن بانتظار المزيد، وبانتظار أن يقتدي به مناظروه في أنحاء المملكة، فينقلوا إلى الورق ما في ذاكرتهم ومخزونهم عن المجتمع الذي عاشوا فيه والأحداث التي شهدوها، والأعلام الذين واكبوهم ـ وذلك من أنفع وأطرف ما يكون. فهل؟ أرجو.

ومن طرائف سبل البحث التاريخي الكتاب الذي أصدره كمال الكيلاني بعنوان: «صور من حياة الملك عبد الغزيز يرويها، طلال بن عبد العزيز» ـ الرياض، مطابع حنيفة للأوفست ١٤٠٢/١٩٨٢ ـ ١٦٠ ص في ١٦ فصلا، (يبدو أن المؤلف قد أعد الكتاب من أوراق وتسجيلات صوتية عقدها مع راويته الأمير طلال بن عبد العزيز) ـ «عالم الكتب»، المجلد الرابع، العدد الثالث، ص ٤٧٦.

وشرعت الجامعات السعودية تخرج حملة الماجستير في التاريخ، وهناك القوائم بالحاصلين على هذه الشهادة وبأسماء موضوعاتهم ـ تنظر مثلا مجلة عالم الكتب....

ويلفت النظر ـ دون أن يكون مثار تعجب ـ إقبال المرأة على التاريخ، أي التأليف في الموضوعات التاريخية للحصول على شهادة عالية داخل المملكة، ولك أن تلقي نظرة على سلسلة (رسائل جامعية) من مطبوعات إدارة النشر في مؤسسة تهامة (جدة) لترى أمثلة ذوات دلالة: « الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول »- ثريا حافظ عرفة، «الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت» ـ موضي بنت منصور

بن عبد العزيز، «العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن» - أميرة علي المداح، «تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف» - فوزية حسين مطر، «الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة »- نورة بنت عبد الملك آل الشيخ.

هذا في قائمة تهامة، وطبيعي أن يكون قد طبع لدى غيرها، وأوردت «عالم الكتب» م١ ع١ ص ٢٢٨: مديحة أحمد درويش - «تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين»، جدة دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة (١٩٨٠م) - ٢٢٤ ص.

ولقيت (الصحافة) في المملكة تاريخها ورأينا من مؤلفيها في «المعجم» - وإن جاء التأليف بدءاً من حافة المعجم الأخيرة (١٩٧٠/١٣٩٠)، فرأينا محمد عبد الرحمن الشامخ، وعلي حافظ، ومحمد ناصر بن عباس (في كتابه: «موجز تاريخ الصحافة»، الرياض ١٩٧١/١٣٩١)، ومنصور إبراهيم الحازمي، ودخلت الدرس الأكاديمي في فروع التخصص فكان كتاب هاشم عبده هاشم: «الاتجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية»، تهامة، جدة ١٤٠١/ ١٩٨١.

والذي أُلّف في الصحافة قيّم، وقيم جداً، وقد تكلم الأستاذ علي حافظ عن تجربة ومعايشة.... وننتظر من الدكتور الحازمي الاستمرار في مشروعه، وقد أومأ إلى أنه مستمر فعلا، وسوف يصدر دراسته عن «صوت الحجاز» على غرار «صحيفة أم القرى» وقد يصدر الدكتور حمود البدر دراسته عن «البلاد»، وتصدر دراسة عن «العرب» وأخرى عن «المنهل»... وفهارس وكشافات لا تقل أهمية عن الدراسات.

ثم لا بد من مواصلة الدرس وتثبيت المعاصر جداً بعد ١٩٧٠/١٣٩٠ تثبيتاً دراسياً علمياً في حينه قبل أن يصير ماضياً... شكلا ومضموناً... مع ضرورة البحث في العوامل المؤثرة بين التجارة والسياسة زيادة على الثقافة والعلم بأصول المهنة...

[تنوُّع الاختصاصات ودور المرأة فيها]:

وتتشعب المعرفة كما هو ضروري بتشعب الحياة الحديثة ومصادرها، ومراميها

وتنوع اختصاص المبتعثين رسميًا أو الدَّارسين على حسابهم الخاص، وتعدد الجامعات السعودية نفسها ولك أن تعد ـ فيما تعد ـ من هذه الاختصاصات ما بين (الإنسانيات) والعلم الصرف نظريًا وتطبيقيًا...

التربية، علم النفس، علم الاجتماع، الجغرافية. المكتبات... الكيمياء، الفيزياء، الطبوغرافيا، الصيدلة، الطب... إلخ.

وكنا قبل ١٣٩٠/١٩٧٠ لا نكاد نرى شيئًا منها، وما كان من متخرجين فهم الرواد، والبداية ولم يكن من التأليف إلا النادر جدًا، وتشبثنا باسمين أو ثلاثة من الكيمياء أو الرياضيات تشبثًا...

ونقول هنا، مع زيادة المتخصصين، وقيام الجامعات... فإن التأليف في الميادين العلمية قليل جدًا، أقل من المنتظر دون شك، وماذا لو ترجم (الدكاترة) وأصحاب (الماجستير) رسائلهم قبل أن تتقادم...؟! ولو حول الأساتذة دروسهم كتبًا؟ ويمكن أن يشمل السؤال أهل الجغرافية... ونالت المكتبات قسطًا واضحًا، وعناية متميزة، ونذكر جهود الدكتور عباس صالح طاشكندي، والدكتور يحيى محمود ساعاتي.... وغيرهم كثير...

ونالت المرأة نصيبًا من هذه التخصصات، محدودًا ولكنه يزداد.

وتمنح البلاد الماجستير في التربية، ويمكن أن تلتقط في قائمة مطبوعات تهامة سلسلة رسائل جامعية: «النظرية التربوية في الإسلام» ـ آمال حمزة مرزوقي، «الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية» ـ ليلى عبد الرشيد عطار، «دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام» ـ فتحية عمر حلواني.

ولا بد من أن يكون قد صدر في غير تهامة غيرها... جاء في «عالم الكتب» مج ٤ ع ٢: مائسة محمد حامد الأفندي ـ «المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية وتعليم المرأة»، دراسة في اجتماعيات التربية، مطبقة على المجتمع السعودي (مدينة الرياض)، الرياض، دار العلوم ١٤٠٣/١٩٨٣ ـ ٢٣٢ ص... وقد يكون المخطوط أكثر من

المطبوع... ورأينا لدى وقفة عند الجامعات حاصلات على الماجستير في قضايا اللغة والأدب.

وذكرت تهامة كذلك: «تقييم النمو والنشوء» للدكتورة ظلال محمود رضا، و«التصنيع والتحضر في مدينة جدة» للأستاذة عواطف فيصل بياري.

والخاتمة إذ تؤكد نشاط المرأة، وإذ تفرزه عما سواه، وتكاد تقف عنده في نهاية كل اتجاه من اتجاهات المعرفة فضلا عن الاتجاهات الأدبية... لا لتفرق بين جنسين... ولو كان هذا النتاج قد حصل كله ـ أو مثله ـ قبل ١٣٩٠/ ١٩٧٠ لتغلغلت أسماء النساء المؤلفات خلال أسماء الرجال حيث يحكم حرف الهجاء، كما حدث مثلا لسميرة خاشقجي، و(نداء) ونجاة خياط... أما هنا، في الخاتمة فإن التمييز يأتي للدلالة على مدى التقدم، والمرأة مقياس التقدم في مثل أقطارنا خاصة، التقدم عمومًا، وتقدم المطبوع خصوصًا وهو ما نحن فيه.

وفي الذي أوردته الخاتمة دلالة على ما لم توره، وعلامة إلى ما سيأتي ويكون، وليس من أغراض الخاتمة الاستقصاء... وإن كانت ترحب به عندما يتهيأ!

أجل، لقد تقدمت المرأة في مضمار العلم تقدمًا ملحوظًا، ومن العلم: الكتاب؛ أقول ملحوظًا، وهو أكثر من ملحوظ، وأقولها ولو تصورته قبل ١٣٩٠/١٩٧٠، وقد تصورت شيئًا منه، لما بلغت الذي تحقق.

كم نحن بعيدون عن جهلها أمس! وعن نقاش بين حلال أن تتعلم شيئًا قليلا وبين حرامه، وعجيب أن يجري ذلك، كأن لم يكن للمرأة في الإسلام مكان من التعلم والعلم، ولم تكن في الأقل (شهدة) في المحدثات اللائي تلقين الحديث عن شيوخ وتلقى رجال الحديث عنها (ينظر عنها «وفيات الأعيان» لابن خلكان).

وهي ليست غائبة في التراث القريب ولك أن تنظر ـ مثلا ـ في «المختصر من كتاب نشر النَّور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر» تأليف الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير، اختصار وترتيب محمد سعيد

العامودي، وأحمد علي، نادي الطائف الأدبي ١٣٩٨/١٩٧٨... تنظر فترى أم الحسن الطبرية ـ وطبريات أخريات كثيرات، وفاطمة الزبيرية، وما بالموضوع مجال لإطالة فقد انتهى الأمر ووصل إلى ما يحب أن نصل إليه فإذا وجب تعلم المرأة حسن مع ذلك أن تكون معلمة، والعلم لا يقف عند حد، وإنما المهم صلاحه وفلاحه، وإذا كنت في تقاليد تحترمها وتتحرج خلالها من أن تعرض زوجتك على طبيب رجل، أليس من الأجدى أن توجد المرأة الطبيبة.... وهكذا، وهذا هو الذي حصل.... وإذا لم تفتح الجامعات السعودية أبوابها للسعوديات وجدت أبوابًا في العالم كله... ولم تعد انكلترة أو أمريكا بعيدة المتناول.

هذا الذي حصل، والخير فيما حصل، وسيسير الأمر من حسن إلى أحسن، وفي شُعَب لا بد له من السير فيها.... ويكفي ما تنبهت له الرئاسة العامة لتعليم البنات من إنشاء الكليات اللازمة، وما هو من شأن الانتساب وغير الانتساب.

أجل لقد تقدمت المرأة في مضمار العلم تقدمًا ملحوظًا، ومن العلم: الكتاب؛ أقول ملحوظًا، وهو أكثر من ملحوظ، وأقولها ولو تصورته قبل ١٣٩٠/١٩٧٠ وقد تصورت شيئًا منه، لما بلغت الذي تحقق.

ونترك الموضوع، وقد نعود إليه.

[عَوْدٌ إلى الفلسفة]:

وتسأل عن (الفلسفة)؟ وأقول إنك لا تجد كتابًا واحدًا بهذا الاسم، وربما لم يكن في الجامعات كلها درس بهذا الاسم ومتخصص سعودي لهذا الاسم، وأحسب أن الحذر في ذلك يعود إلى ما ترتبط به اللفظة من شؤون اليونانية ثم الأوربية على مر العصور، وإلا فقد وجدت في التاريخ الإسلامي، ووجد معها الفيلسوف المسلم أو المسلم الفيلسوف حتى أولئك العلماء الفقهاء كالغزالي وابن حزم فإنهم كانوا (فلاسفة) من حيث يعلمون أو لا يعلمون لأنهم طرقوا موضوعاتها ولكن من وجهة نظر خاصة وقل: إسلامية.

وخير ما يقال في هذا المقام ما نفيده من وجهة نظر الشيخ - شيخ الجامع الأزهر - مصطفى عبد الرازق في كتابه القيم: «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية». الذي أثبت أن المسلمين عرفوا الفلسفة وزاولوها على مر العصور، زاولوها معنى ودلالة دون الاسم وما الفقه إلا فلسفة، وإذا شئت أن تدرس الفلسفة الإسلامية على حقيقتها وأصالتها فدونك الفقه الإسلامي....

[العلوم الدينية]:

وللفقه حظه في الدرس الديني والتأليف الديني قديمًا وحديثًا، خارج الجزيرة وداخلها، في غير السعودية وفي السعودية..

والبحث في الكتاب الديني يطول، و«المعجم» في قسط كبير منه - والقسط الأكبر من عقود تاريخه الأولى قائم على مؤلفات الشيوخ والعلماء - ولم تكن كلمة العلماء لتطلق على غير الشيوخ المتبحرين في العلم الديني: من فقه وتفسير وحديث... وقد رأينا مكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآله من الكتاب.... المطبوع، والشيوخ الآخرين. وفتح (الشيخ محمد بن عبد الوهاب فتحًا بالعودة إلى السلفية بعد أن دخل في التقاليد والعادات ما ليس من العقيدة والعودة تستدعي المحاجّة... وإطالة النظر في التراث. (أحمد بن حنبل، ابن تيمية، ابن قيّم الجوزية..) آله وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه... - وكثرت في ذلك الكتب، وكان نصيب المطبعة منها كبيرًا..).

وبدا ونحن في أوائل ثمانينيات القرن الهجري – ستينيات الميلادي –أن الكتاب الديني لم يعد على قوته، وقد يظنه ظان قد توقف أو كاد، وقد تكون الرؤية خارجية أو نسبية، وأنها حصلت - أو تحصل - لأن الكتاب الديني لم يعد وحده في الميدان - كما كان، فقد تكاثرت مطبوعات الميادين الأخرى من أدب وتاريخ وما إليهما، ثم إنك لم تعد ترى شيوخًا يوالون التأليف مثل عبد الرحمن آل سعدي، ولا تجد تفاسير للقرآن الكريم كالذي عمله عبد الرحمن آل سعدي أو عبد الحميد الخطيب المكي أو فيصل آل مبارك، أما المشروعات الضخمة التي يتولاها الشيخ عبد الرحمن بن

محمد بن قاسم في مطبعة أم القرى (الحكومة) فهي باقية ولكن ليست على النشاط التي كانت عليه، وأكثر ما في المكتبات كتيبات تبنت أغلبها مؤسسة النور للطباعة والتجليد، ولا شك في أن أكبر شيخين عالمين في المملكة هما: محمد بن إبراهيم آل الشيخ سماحة مفتي الديار السعودية، وعبد العزيز بن باز، وللشيخين الكبيرين مؤلفاتهما ولكنها في جملتها ليست بتلك التي تضيف كثيرًا إلى السياق الفقهي، وأكثر ما فيهما أجوبة عن أسئلة وفتاوى في قضايا يستفتي به الناس.... وقيل في الثناء على الشيخين إن علمهما فوق كتبهما، وأغزر من كتبهما.

وكان في البلد مؤسسات دينية ذات طابع حديث هي المعاهد والكليات، ولكنها إن كانت فاعلة في التدريس وتخريج المدرسين فإنها لم تكن كذلك في التأليف وطبع المؤلفات.

لا بد إذًا من التنبه، وملاحظة مستجدات العصر والتوجه لها بمثلها، ومن مستجدات العصر تعليم البنات فليكن إذًا، بشرط إشراف (سماحة المفتي) عليه، وهكذا تم الأمر....ومضى يتطور.... فاكتملت الابتدائية واكتملت دور المعلمات والثانويات.... وبانتظار المزيد دون انتظار لأي مظهر من مظاهر المقاومة التي برزت في أول الأمر وحصل المزيد....

من المستجدات البحوث طبق منهج للبحث... وإذا كان الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ قد توفي يوم ٢٤ رمضان من سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، وخلفه ولده (إبراهيم مواليد الرياض ١٩٢٩م، خريج كلية الشريعة ١٩٥٦، وقد صار وزيرًا للعدل منذ إنشاء الوزارةفي ١٣٩٥/١٠/٨ (١٩٧٥م) [1] فقد اسند للشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز (رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد).

ولا بد من (جامعة)، فكانت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكان مع الجامعة منهج البحث الحديث، وعمادة شؤون المكتبات، ومطبعة ومجلة، ومركز بحث، وسلاسل مختلفة من الكتب لمختلف الحاجات والأعمار غير الطبعة الكاملة

---

(١) إلى ١٤٠٩/١٠/١٠هـ.

لمؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومؤلفات ومحاضرات عنه.... ثم التدرج الحديث في سلم العلم، ومعنى ذلك الماجستير وقد أحدثت الدرجة ونالها كثيرون في الشريعة واللغة العربية والقضاء العالي.

ثم الدكتوراه وقد أحدثت كذلك.

وهكذا استأنف الكتاب الديني وجوده وحضوره ونشاطه واستعان بمنهج البحث على إبعاد ما لا يناسب عقلية العصر والقارئ الحديث... أو ما صار معلومًا وما لم تعد حاجة إليه من موضوعات تحريم حلق اللحى، والدخان، والسفر إلى بلاد الكفر... وحكم تارك الصلاة.... والرسم.... والتصوير الفوتوغرافي... وشكل الأرض.... والفضاء الخارجي... - وفي الإذاعة والتلفزيون وسائل لجواب السائلين والشيخ ابن باز يتلقى في كل مكان وزمان وعن طريق التلفون وجريدة «الدعوة» - ويجيب عنها بإسهاب وفي الإذاعة منهج يومي دائمي طويل العمر اسمه: نور على الدرب.

وقبل الشيوخ في ستينيات القرن الهجري/ ثمانينيات الميلادي التلفزيون لما فيه من نفع وما يمكن أن يستثمر عن طريقه... ومضت البرامج تتوالى بين جدة والرياض، ولقي افتتاح محطة له في القصيم (ربما في بريدة) مقاومة لم تلبث أن أحبطت لأنها لم تأت من شيخ كبير مسؤول...

وهكذا تلتقي الأمور.... وإذا قبلنا الإذاعة، وقد قبلناها فعلا لما فيها من نفع ومجالي استثمار... فإن التوقيت الذي تسير عليه المملكة لا يؤدي الغرض في الخارج الذي يسير على توقيت آخر.... فلتتغير الساعة، وقد تغيرت بشرط أن يذكر الغروبي مع الزوالي والتاريخ الهجري قبل الميلادي.

هكذا... ولم تعد حاجة إلى النص على كليات للبنات في التربية والآداب والعلوم تابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات التابعة لدائرة سماحة مفتي المملكة... مع قبول تلقيها العلم في الكليات الأخرى بأسلوب يناسب التقاليد وضمن مظاهر الحشمة والوقار... وتتقدم المرأة إلى الماجستير والدكتوراه...

وقد كان للتداول بين الحكومة والشيوخ... وقل لما للأسلوب الحكيم الذي يتفاهم به الملك فيصل مع مفتي الديار السعودية أثره في حل المشكلات واتخاذ القرارات... وتنفيذها.

[الانسجام بين شؤون الدين وتغيرات العصر]:

ونريد أن نخلص إلى تكيف ومساوقة وانسجام بين شؤون الدين والدنيا، أي بين تغيرات العصر... وأعقب ذلك ـ فيما نحن فيه من أمر المعجم ـ تجدد في نشاط التأليف وتوسع في دائرته وكان فيه التحقيق والبحث التاريخي والمناقشة الفكرية ولم يقتصر هذا على جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية... فمنه ما كان في جامعة المدينة المنورة، ومنه ما وسع الأفق خارج هاتين المؤسستين... ويحضرني هنا اسم الأستاذ محمد حسن باجودة إذ حصل على الدكتوراه من انكلترة برسالة عنوانها: «الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام». تهامة، جدة، ط٢، ١٤٠٣/ ١٩٨٣ ـ ٥٦٢ص، وكانت من الجدة بحيث استوعبت القديم والجديد، وفي القرّاء من حسب المؤلف مستفيداً من مدرسة التحليل النفسي أو متأثرًا بها... ثم كانت له سلسلة من التأملات في السور..

وكان المؤرخ أو المحقق أو المتحدث يحذر الاقتراب من كتب ذات ارتباط بالدين فيما لا ترضى عنها الدعوة أو فيما كان فيها أو في مؤلفيها من مخالفة معروفة للدعوة أو صاحبها.

وقد كان للحذر دواعيه... وخفّت تلك الدواعي، أو زالت، وجدّت نظرة لم تلبث أن حلّت محلها؛ فقد صار الرأي أن الحذر يبقى الأشياء كما هي، وخير من منه رأي المخالف مع مناقشته وبيان الخطأ والصحيح بصدده، ومثل على ذلك كتاب «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب» بخط، أو من تأليف حسن جمال الريكي، الكتاب غير مرغوب فيه لأنه يقول في (الشيخ) ما لا يرتضى، ولكن ذلك لم يمنع أن يحقق ويطبع ـ كما هو ـ خارج السعودية، وينفذ ـ بشكل وآخر ـ إلى السعودية نفسها، مع كلام للمحقق لا ترتضيه السعودية إذ وصف المؤلف بالعدالة

والموضوعية وقول الحق أكان للشيخ أم عليه.

وهنا رأت السعودية الوجه الآخر لما كانت ترى الأشياء عليه، أي أن تتبنى هي نشر الكتاب وتحقيقه مع التعليق على ما فيه من أحداث وآراء، وهو ما جرى بأمر من وزير المعارف ـ الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ ـ بأن يتولى المهمة الشيخ عبد الرحمن ابن الشيخ عبد اللطيف آل الشيخ، ففعل، وصدر الكتاب عن دارة الملك عبد العزيز (١٣٩٦).

[أعداء الدعوة ومؤلفاتهم]:

ولقيت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ في حينها على الأقل ـ الأعداء، كما لقيت الأنصار، وفي الأعداء من هم قريبون من الشيخ نفسه، نجديون كما هو نجدي، وإذا كان وجود هؤلاء الأعداء حقيقة ـ وهو ما يحصل في كل دعوة وحركة ـ فإن القائمين على شؤون الدعوة كانوا يحذرون الاقتراب من الأعداء، ويتجنبون ذكرهم وربما حرموا ذلك على غيرهم أو حظروه، وهذا يحدث ـ كذلك ـ في كل دعوة ويبدو مقبولا طبيعيًا، ولكنه لا يستمر حتى النهاية، فلا بد من يوم تتبدل الظروف ويمكن إعلان الحقيقة كاملة دون خوف أو وجل، وهذا ما حدث فعلا.

ومن أبرز المعادين: الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد صاحب كتاب «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة»، كنت أعثر ـ أحيانًا ـ باسمه أو باسم كتابه فلا أجد من يزيدني علمًا به، وأعجب من ذلك أن يذكر كتابه هنا وهناك وربما استشهد بسطور منه، ويبقى ـ مع ذلك ـ مخطوطًا، عرضة للتلف، وأكثر ما يثير الاهتمام أنه في طبقات الحنابلة، والعنوان يدل على انسجام المؤلف والمذهب، وهو حنبلي ولا شك، والشيخ محمد بن عبد الوهاب حنبلي.

وجاء الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ يؤلف كتابًا قيمًا ذا نهج حديث في التعريف بمشاهير علماء نجد، فرأيته ينقل عن صاحب السحب الوابلة، ورأيت أكثر من حاشية تقول؛ جاء في السحب الوابلة.... وهذا يعني ـ عندي ـ أن

الكتاب ليس محرمًا، وإلا فكيف يذكره الشيخ من آل الشيخ، وربما رأيت له ذكرًا كذلك عند الشيخ حمد الجاسر مع حذر ملحوظ.

ويتقدم شيخ آخر، عالم فاضل ليؤلف كتابًا ضخمًا مهمًا بعنوان «علماء نجد خلال ستة قرون» هو فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح البسام ـ (العضو القضائي في محكمة تمييز الأحكام الشرعية) فإذا به يفتح ـ منذ المقدمة ـ صدرًا أوسع من المعتاد، ويقدم رأيًا لم يكن مألوفًا، لا لأنه مقتنع بما قاله الأعداء متسهل في متابعة الأنصار، وإنما (لعلمية) في منهجه، فكتابه «علماء نجد» وأولئك المعارضون علماء على أية حال، وكل ما في أمرهم أنهم علماء معارضون، ولا يتم للكتاب المطابقة بين الاسم والمحتوى دون الوقوف عندهم، ولا بأس بعد ذلك من أن يبين موقفهم، وقد يبين الإيجاب في علمهم إذا رآه؛ وللقارئ أن يرى رأيه.

قال في المقدمة (ص٢٠ ـ ٢١): (...ثم إني في كتابي هذا ترجمت لعلماء كثيرين ممن عارضوا الدعوة السلفية (...) ترجمت لهؤلاء المعارضين المعادين لا لرضا لمذهبهم، ولا ارتياحًا لمسلكهم، وإنما ذكرتهم لأني مؤرخ يجب عليه أن يسجل ما جرى ويدون ما صار ولا يتمكن من تعديل المنحرف ولا تقويم المعوج، ثم إن اعوجاج مسلكهم وانحراف طرقهم لا يحملني على رميهم جميعًا بالجهل، وقلة التحصيل العلمي، وهم على خلاف ذلك، فقد بلغ بعضهم من العلم مبلغًا كبيرًا، ولكن استيعاب العلم شيء والاهتداء به شيء آخر...).

هذا نمط من (العلمية) فيه فتح لباب.

وسأل (ص ٢١): (لماذا خصصت التراجم بعلماء نجد؟) وأجاب : (... يعلم الله تعالى أنني (والحمد لله) من أبعد الناس عن العصبية الضيقة، والمذهبية والوطنية المحدودة، حتى خصصت هذه التراجم بالعلماء النجديين دون غيرهم من علمائنا في الحرمين الشريفين، أو في الأحساء وفي غير ذلك من أنحاء بلادي الحبيبة العزيزة...).

وهذا نمط من (العلمية) يتسق مع الباب السابق، ويتسق مع العقلية التي صار إليها

الجيل الجديد المعاصر، بل يطلبها، بعد أن زالت الدواعي على الأقل، فلو ترجم الشيخ البسام لعلماء وأهمل علماء لما رضي عنه العصر، وربما لقي الاعتراض عليه، ولو لم يبين السبب العلمي الصحيح لعنايته بعلماء نجد... لكان في المؤاخذين من يطالبه بالسبب أو يظن به الظنون.

وهنا، هنا يأتي الجواب الذي انتظرته طويلا كلما (عثرت) بكتاب «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» أو بمؤلفه (ابن حميد) فمن هو؟ ولِمَ لَمْ ينشر كتابه؟ الجواب في ٣/٨٦٢ ـ ٨٧٠: الشيخ محمد بن عبد الله بن حميد: (... نشأ في بيئة علمية فنشأ محبًا للعلم... سافر إلى مكة للتزود من العلم... ثم سافر إلى اليمن ومصر والشام والعراق، فأخذ عن علماء هذه الأقطار... ثم عاد إلى مكة... عين لإمامة المقام الحنبلي في المسجد الحرام، وإفتاء الحنابلة فيها وكان معطلا... وقد أثنى عليه علماء عصره ومن بعده....

ما تقدم هو الصحيفة البيضاء... أما الحياة القاتمة والصحيفة السوداء فهي أن المترجم بحكم وظيفته تبع الدولة العثمانية، التي حاربت العقيدة السلفية... فإنه في مؤلفه ـ السحب الوابلة ـ قد ضرب صفحًا عن الترجمة لأنصار الدعوة، بل لم يكتف بهذا القدر حتى تناولهم بالتجهيل والتضليل عند كل مناسبة.... ـ توفي بالطائف... عام ١٢٩٥...).

لم يحدد الشيخ البسام المعارضين في مقدمة كتابه، ولكنك تجدهم في درجة على حين لا تجدهم في كتب أخرى منها كتاب الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ، ومن أولئك: محمد بن عبد الرحمن بن عفالق ومحمد بن عبد الله بن فيروز، والشيخ محمد بن علي بن غريب، وقد أعاد إليه بالوجه العلمي كتابًا طبع منسوبًا ـ خطأً ـ إلى الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، هو الكتاب الذي طبع باسم: «التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق».

وهناك مسألة حساسة جدًا يتجنبها الباحثون من قبل، ويحاولون أن يصفوها

ضمن تجنبهم، وبعامل من حساسيتها بما لم تكن عليه، تلك مسألة موقف أخي الشيخ من أخيه، أي موقف الشيخ سليمان بن عبد الوهاب من الشيخ محمد بن عبد الوهاب؛ فقد كان منافيًا للدعوة، وهذا ما لا نقاش فيه، ولكن الباحثين يعرضون الحال على أن الشيخ سليمان رجع عن منافاته واعتذر إلى أخيه، وهم يرون في ذلك ارضاء لحماة الدعوة والمتنفذين فيها... أما الشيخ البسام فلم يقع فيما وقع سابقوه، وكان أكثر صراحة وجرأة فأثبت أن الشيخ سليمان ظل على منافاته، ولم يرجع عنها ولم يعتذر ـ وهذا ما كان صعبًا أن يقال كما قاله الشيخ البسام ـ ينظر البسام ـ علماء نجد خلال ستة قرون...

وكثر نقل الشيخ البسام من كتاب «السحب الوابلة» والاستشهاد بنصوصه... ولم يخالف في فعله ورأيه جهة دينية عليا، ولم يقدم كتابه إلى الطبع إلا بعد أن (أجيز طبعه من رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية... بتاريخ ١٣٩٤/١٠/٢٠هـ) والرئيس هو الشيخ عبد العزيز بن باز.

ولم يعد، إذًا، كتاب «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» للشيخ محمد بن عبد الله بن حميد في موضع الخوف من الاقتراب منه، والأخذ عنه والانتفاع به، ثم لم يعد الكلام على ممن نابذوا الدعوة أو عادوها في موقع الخوف.

ونعود إلى الشيخ حمد الجاسر وهو الذي عرف «السحب الوابلة» جيدًا، وتابع اتساع النظرة، وأعجبه «علماء نجد خلال ستة قرون»... فإنه خطا خطوة أخرى بأن استل من «السحب الوابلة» كتابًا كاملا نشره في «العرب».

وهكذا صار «السحب الوابلة» حقلا محروثًا، وصار ابن حميد اسمًا مألوفًا... ولم تبق إلا الخطوة الأخيرة في تحقيقه ونشره كاملا[1]... كما نشر الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ كتاب «لمع الشهاب»، وإذا لم يتول تحقيق «السحب الوابلة» محقق من أهل الدعوة ربما تولاه من ليس منها كما فعل أبو حاكمة في لمع الشهاب.

---

(١) سبقت الإشارة إلى أنه نُشِرَ محققًا.

والمهم المهم في هذه المسيرة بيان الأفق الذي اتسع إليه البحث الديني، والمنهج الحديث الذي أخذ به، ولو لم يفعل ذلك لصعب أن يكسب العود الذي كسبه من الأجيال الجديدة. والمهم المهم في عالم «المعجم» ما انبثق عن هذه الحال من موضوعات وكتب ورسائل... وإن كان ذلك بعد الـ ١٣٩٠/١٩٧٠ على وجه الوضوح...

[اتساع مجال التأليف (دائرة المعارف)]:

ويمضي الطموح بالمؤلف السعودي إلى حدود بعيدة، بعد أن تشعَّبت تيارات التأليف وكثر المؤلفون، ومنهم من ألف بالإنكليزية، ومنهم من ترجم عن الانكليزية، ومنهم من ترجم إلى الانكليزية، والقافلة سائرة، ورأينا النوادي الأدبية وما يرتجي منها، و(المجمع) المنتظر.. والجامعات... وكأن آن الأوان لعمل ضخم جامع، تتعدى مادته حدود المملكة جغرافية وتاريخًا، هو مشروع «دائرة المعارف العربية الإسلامية» وقد بدأت الخطوة الأولى منه بتأليف اللجنة التأسيسية من الدكتور أحمد محمد الضبيب ممثلا عن جامعة الملك سعود، والدكتور محمد الربيع عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية والأستاذين عبد العزيز الرفاعي وعبد الله بن حمد الحقيل عن دارة الملك عبد العزيز، اللجنة محترمة ينتظر منها الجد ثم لا بد من التنفيذ وإلا فقد سمعنا عن مثل هذه المشروعات في أقطار أخرى، ولا يصعب على دور النشر المحلية تنفيذ المشروع، ويكفي أن يكون فيها مثل «تهامة» و«الشروق»...

[التناسق في أوجه الحياة العامة]:

نلاحظ في خلاصة خطوط الخاتمة التوازي والتلاقي في خطوط الحياة للمملكة العربية السعودية، الحياة العامة وفيها العمارة والتجارة والبترول وتحلية مياه البحر وراحة الحاج وتنظيم مياه زمزم، وشق الطرق... ونشوء وزارات جديدة، ودخول (دكاترة) في الوزارات، وماهو من الحياة العامة في الرياضة وكرة القدم، والإذاعة والتليفزيون، والفنون التشكيلية والمسرح والجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون والنوادي الأدبية، وما هو من الحياة الخاصة بالمعنى الذي نريده لموضوعنا في التأليف:

الأدب ، التاريخ، علوم الدنيا، علوم الدين، الجامعات، البعثات، عمادات شؤون المكتبات؛ وما هو مرتبط بالعام قائم على الخاص: الطباعة، الصحافة، مكتبات السوق، دور النشر... ولا يجري شيء في البلاد داخلا وخارجًا دون علم السلطة العليا وتوجيهها ومتابعتها، وكل يجري بقدر مقدر... وقد أسس هذا عبد العزيز منذ البداية، وكان واضحًا أيام فيصل.

وربما خفيت هذه الحال من التنظيم المدني على الكثيرين في الخارج، وربما جهلها هؤلاء الكثيرون وبقوا على انطباعهم عن الصحراء والبداوة.

أذكر مرة أن جامعة الملك سعود تعاقدت ذات يوم من عام ١٣٨٣/١٩٦٣ تعاقدًا شخصيًا مع أساتذة انتدبتهم، ومضى هؤلاء الأساتذة يؤدون واجبهم سنة بعد سنة.

وغاظ ذلك التعاقد أعداء لها وْلاء الأساتذة في بلادهم، فأجمعوا أمرهم وتعاقبوا على فترات متقاربة ولمناسبات مختلفة (يخوّفون) المسؤولين في المملكة مغبة التعاقد، ويقدمون في ذلك أسبابًا مختلفة حينًا، ولا تضير الجامعة حينًا، ويظهرون بمظهر الناصح المخلص الأمين... فما لقوا أذنًا صاغية، وكان المسؤولون يرحبّون من صدورهم إزاء ما يسمعون، وربما قالوا لهم: (ألديكم بقية منهم؟)، ولم يكفوا حتى بلغت الحال إلى ما لا بد معه من الجواب البليغ.

وكان الجواب:

ـ وماذا تحسبوننا؟ أغافلون نحن عن أمورنا؟(...) إننا نعتز بهؤلاء الأساتذة، وقد راقبناهم، فما رأينا منهم إلا الخير وخدمة الجامعة خدمة حقة.

روى المسؤول ذو الجواب البليغ الواقعة كما هي، في لقاء له مع أولئك الأساتذة، وهم يزمعون العودة إلى بلادهم بعدما نيفت إقامتهم على خمسة أعوام، وزاد في عبارات التكريم ما قد تأتي مناسبة لذكرها.

تجري أمور الدنيا في المملكة بعلم وتخطيط وتقدير، بما يجب أن يكون قبل فوات الأوان، وبالأسلوب المناسب ضمن الظروف القائمة والحاجة إلى توطيد الحكم.

أما أمور الدين فهي بيد أهلها ولكن (المملكة) منذ أيام الشيخ محمد بن عبد الوهاب لدن التقائه (سنة ١١٥٧هـ) في الدرعية بأميرها (الإمام) محمد بن سعود، شركة وتكاتف، ومن هنا كانت حكمة الملك فيصل في المداولة مع مفتي الديار السعودية من آل الشيخ، والحكمة في إيصال ما يحسن أن يكون ويقتنع به الشيوخ، ومن ذلك ما رأينا من تعليم البنات وإنشاء الرئاسة العامة لتعليم البنات تابعة لمفتي الديار، والتلفزيون، والساعة الزوالية في الإذاعة مع الغروبية (العربية مع الغربية)، والتاريخ الميلادي مع التاريخ الهجري.... وأشياء كثيرة في الجامعة والمعاهد، وفي المطبوعات والمؤسسات الصحفية... واستمرت القاعدة... ولا تلبث البذرة أن تنبت، والنبت أن يثمر، والثمر هو ما تراه مرتفعًا عن تربة تراها حينًا ولا تراها أحيانًا.

والمفروض بالعام أن يكون رسميًا، وهو كذلك في صميمه وغالبه بمعنى أنه تابع للدولة في وزاراتها أو رئاساتها ومؤسساتها التابعة لمجلس الوزراء، فهي التي تخطط له وهي التي تصرف عليه وتقيم أوده ماليًا بالقدر الذي ترسمه... وهذا ما هو حاصل، وقد كنت ترى في البداية ما طبع على نفقة الملك عبد العزيز... والملوك والأمراء بعده ثم كانت وزارة المعارف، ووزارة الإعلام، والجامعات، والزراعة والعدل...

[نشر الكتاب وطبعه]:

والمفروض بالخاص من موضوعات في الكتاب وطبعه أن يكون أهليًا، وهو كذلك، فالمؤلفون من أدباء ومؤرخين... وفقهاء يختارون موضوعاتهم ويرجعون إلى مصادرها، ويسودون ويبيضون.

ثم تأتي مرحلة الطبع أو التفكير الجدي بالطبع، وكانت مرحلة صعبة في تاريخها الأول، فما في البلاد مطابع تذكر، والموجود قليل جدًا ومكلّف جدًا، ويبقى بعد ذلك طريق الطبع في الخارج: مصر، سورية، لبنان... وما هو بالطريق المتيسر فتكاليفه باهظة، والمؤلف تحت رحمة أصحاب المطابع في الابتزاز واضطراب المواعيد... والعلم الأكيد بقدر من الخسارة المالية في نهاية المطاف.

قال أحمد سباعي: (... إن الأديب ضائع، وأخص بالذكر منهم إخواننا المؤلفين، (...) إن المؤلف منهم يرهق أعصابه شهورًا أو سنوات، إذا اقتضى الأمر، حتى إذا انتهى من التأليف والطبع، تحول إلى سائل يستعطي من يساعده على الثراء، لا ليتقاضى أتعاب الشهور والسنوات التي عاناها في التأليف بل حسبه أن يستعيد ما أنفقه كرأسمال.

إن استعادة رأس المال يا إخوتي دونه خرط القتاد، فأكثر المؤلفات لا ينفد ربعها، أو نصفها إلا بعد جهد شاق (...) لهذا فهو ضائع.. وهو خليق بالتشجيع (...) - سباعيات ١/١١٧ - ١١٩).

وقال في مكان آخر (سباعيات ٢/٨٣ - ٨٦): (... كنت أتمنى لو أجد من يثبت لي أن مؤلفًا واحدًا في بلادنا استطاع أن يظفر بنصف ما أنفق على طبع مؤلفه، لأقيم وإياه الحجة على خطإ كل الأدباء وقصورهم عن إبراز ما ينتجون.

إن بلادنا لا تبيع المؤلفات إلا في نحو أربع مدن وبضع قرى كبيرة، لا تتجاوز أصابع اليد،وإن معدل ما يباع في كل مدينة لا يتجاوز مئة نسخة، لأديب سارت باسمه الركبان - كما كان يقول أجدادنا القدامى - وضجّت الصحف بشهرته كما يتحدث شبابنا المحدث. (...) لقد صدرت الطبعة الأخيرة من «تاريخ مكة» وساعدني الإهداء الواسع - والحمد لله - على نفادها، وصدرت لي بعدها عدة مؤلفات، أهديت منها، وبعت بعضها، وعندما شكا نفر من سعرها أعلنت التخفيض شهرًا كاملا، فلم يحقق ذالك ما يصح أن يسمى رواجًا.

ومع هذا أستطيع أن أؤكد أن حظي من رواج الكتب ربما فاق حظ البعض، فكيف حال هذا البعض...).

وشكا السباعي من الاستهداء وكثرة الذين يرون من حقهم أن تُهْدى إليهم النسخ...

والسباعي شاهد عصره، والحال التي عرضها هي التي كانت السائدة، وترينا من ثم سببًا للأدباء الذين أداروا ظهورهم للأدب مبكرًا، في وظيفة رسمية، يحصلون عليها قبل فوات الأوان أو في مهنة حرة تصل بصاحبها إلى أن يكون تاجرًا مرموقًا...

ولم تكن الشكوى خاصة بالسباعي... فلا بد من أنها كانت قاسمًا مشتركًا لأحاديث الأدباء... ومادة للنشر عند الحاجة، ورأينا للأستاذ حسين سرحان شيئًا منها.

وظل الموقف من الكتاب السعودي قائمًا على الفتور، وربما الاستهانة، لمدة طويلة، وعلى أيدي أصحاب المكتبات السعودية أنفسهم فيما يستوردون ويعرضون، ويرفضون... وقد رأيتهم خلال إقامتي في الرياض (١٣٨٣/١٣٨٨ = ١٩٦٣/ ١٩٦٨) لا يحفلون بالكتاب السعودي، ولا يفتحون له نافذة في معروضاتهم، ولا يكادون يلبون أي طالب له.. وقد شغلوا بالمطبوعات اللبنانية والمصرية عن المطبوع السعودي، حتى الكتاب السعودي المطبوع في الخارج! وكم سألت ـ مثلا ـ عن دواوين أحمد قنديل ـ وهي حديثة الطبع في لبنان ـ فما رجعت من السؤال بطائل، فكيف الآخرون؟!

وحين عاد الدكتور عبد الرحمن الشامخ ـ بعد انتهاء دراسته في انكلترة وتعيينه في كلية الآداب من جامعة الرياض، صدمه الموقف، فكتب (سنة ١٣٩٢) مقالة بعنوان (كاتب الحي) جاء فيها: (إذا رأيت ما تعرضه المكتبات التجارية في بلادنا حسبتنا أمة لا تسهم في فن القول إلا قليلا (...) روى الدكتور منصور الحازمي أن أحد زملائه الباحثين المحليين في الجامعة ذهب إلى مكتبة من المكتبات التجارية في بلادنا، وقد تأبط كتابًا ألفه وأنفق في طبعه الآلاف من الريالات، وحينما اقترح على صاحب المكتبة أن يضم هذا الكتاب إلى ما في رفوفه من كتب [وردت من القاهرة وبيروت] حدجه المكتبي بنظرة استنكار، وقال إنه لا يعرض من الكتب إلا ما تأكده من جودة مستواه وشهرة مؤلفه...) ـ تنظر المقالة في كتابه «كاتب الحي» ص ص ٣٥ ـ ٤٠، وفي العنوان إشارة إلى القول المأثور: مغنية الحي لا تطرب.

الحالة مؤلمة مزرية، حال هوان الكتاب السعودي على أهله السعوديين، ولكنها ترينا ـ كذلك ـ فضل الذين ثبتوا في الميدان.... ومواصلة (النضال) رغم الخسارة... وحتى يصلوا إلى الحال التي تليق بالمؤلف... وقد وصلوا فعلا، ومهدوا السبيل لجيل من أبنائهم، ومنهم، وفي مقدمتهم السباعي نفسه، ألم يعدد المؤلفات؟ ألم يطبع

«تاريخ مكة» ثلاث طبعات... ويصل في آخر المطاف إلى إعادة طبع أكثر مؤلفاته - ثم كانت الجائزة التقديرية التي منحتها الدولة هذا العام (محرم ١٤٠٤/١٩٨٣) لثلاثة أولهم السباعي والثاني الجاسر والثالث ابن خميس، والجائزة ضخمة ماديًا ومعنويًا.

لقد عانى الرواد كثيرًا في سبيل توطيد التأليف والطبع، ورأينا السباعي نفسه يصير صاحب مطبعة (مطبعة قريش)... ومثله كانت معاناة الآخرين، ولنا أن نقدر صبر الأنصاري وهو ينشئ «المنهل» ويعمل على إقامة أودها وتثبيت أركانها وقد استطاع، ولا بد من قابلية خاصة لديه واستعداد مبكر، وإلا فهو يحدثنا عن أثر مبكر لديه هو «التوأمان»: الرواية الأولى التي صدرت في المملكة سنة ١٣٤٩/١٩٣٠، طبعها في دمشق - بمطبعة الترقي بالقيمرية، وكان عدد النسخ التي طبعت منها ألفي نسخة نفدت كلها في ظرف ثلاثة أعوام..

ولنا أن نعد هذه حادثة شاذة، لا تمثل القاعدة أبدًا ولابد من أن يكون في عوامل رواج الكتاب المغزى التربوي الأخلاقي الوطني، وضرب من (الدعاوة) العلمية له إذا استنفر إدارات المعارف.

كان لا بد من الطبع في الخارج، وكانت مصر أول ما يرد على البال، ورأينا أول مطبوع هو «أدب الحجاز» تأليف محمد سرور الصبان سنة ١٣٤٤/ ١٩٢٥ بالمطبعة العربية في القاهرة لصاحبها: خير الدين الزركلي...

وتوالى الطبع... في مصر ويتردد اسم مطبعة المدني، مطبعة البابي الحلبي (دار إحياء الكتب العربية)، مطبعة الإمام، دار القلم، دار الكتاب العربي، مطبعة مصر شركة مساهمة، دار التأليف، دار سعد، دار مصر للطباعة، السعادة، دار النيل، دار المعارف، ممفيس، دار الفكر العربي، الأخبار، الرسالة، الفجالة، الجبلاوي، دار وهدان، الناشر العربي.

وكان للمنار وللسلفية دور كبير في طبع الكتب الدينية خاصة عادت على المطبعتين بالربح الوفير.

ولم ينقطع الطبع في القاهرة، ولكنه تضاءل كثيرًا كثيرًا، ومن أسماء المطابع المتأخرة: دار الجيل، دار الاعتصام، الدجوي، دار العالم العربي.

ولدمشق مكان مبكر يذكر وقد رأينا طبع «التوأمان» بمطبعة الترقي ١٣٤٩/١٩٣٠ واحتفظت الترقي بنسبة كبيرة، ثم الهاشمية لصاحبها محمد هاشم الكتبي، وابن زيدون، والمطبعة العمومية، النضال، زيد بن ثابت، دار البيان، خالد حسن، اليقظة، ويسعى (المكتب الإسلامي) سعيًا دينيًا، فيبلغ...

وفي بيروت: دار الكتاب، دار العلم للملايين المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المكتب التجاري، دار الثقافة، دار الفكر، دار مكتبة الحياة، الكشاف، المكشوف، القباني، الوفاء، دار العودة، مؤسسة الرسالة، دار الآفاق.

وتضاءلت المطابع الهندية منذ السنوات الأولى، وانقطع ذكرها انقطاعًا تامًا، وتذكر (النجف) في العقود الأولى. ولم تنل (العواصم) الأخرى إلا حدود كتاب واحد: بغداد، طهران، عدن، في وقت مبكر. ثم الدوحة بعد ١٣٩٠/١٩٧٠.

وجرت في السنوات الأخيرة محاولة لاصدار سلسلة من الكتب السعودية في تونس، ومن ذلك ما صدر لطاهر زمخشري وعبد الله جفري ومحمد أحمد باشميل.

إن الحاجة إلى الطبع خارج المملكة أصبحت أقل من القليلة؛ فلقد تعددت المطابع في المملكة، وتوافرت وهيأت أحدث وأرقى وسائل الطبع... زد على ذلك ما قام في المملكة من دور للنشر لها مؤهلات الدور الحديثة بما في ذلك ما تسهله للمؤلف من أمور الطبع وما تحققه له من حصة الربح المالي... ـ لقد بلغت المطابع ودور النشر إلى ما لم يمتد إليه خيال الذي يعنى بالكتاب السعودي وهو في ثمانينيات القرن الهجري/ ستينيات القرن الميلادي... ولا تسل عما جرى في حوالي القرن الخامس عشر الهجري: قبيله وبعيده... وفي جدول عمله الأستاذ يحيى ساعاتي («عالم الكتب» مج ٤، ع١) لحركة التأليف والنشر في المملكة خلال عام ١٤٠٠هـ يبين أن الذي طبع خلال ذلك العام خارج المملكة (٤١) عنوانًا من أصل ٣٣٥ أي ما

يساوي ١٢٪ وأحسبها الآن لا تزيد على ١٪ غير قليل.

ونعود إلى ما كنا فيه حيث تركنا المؤلف السعودي يعاني (الأَمَرَّينْ) من الطبع، وأقل ما في عوامل المرارة قلة المطابع الوطنية، وضعف إمكانات الموجود منها، وارتفاع التكاليف.

ويمتلك الأهلون - تدريجًا - وسائل الطبع والنشر، وقد رأينا جمعًا من هذه الكتب وعليها أسماء المؤلفين وأسماء المطابع، والمكتبات... والناشرين.

هذا حاصل ولا شك، ومن المؤلفين من يعتمدون على أنفسهم اعتمادًا كليًا في الصرف على الكتاب، اعتمادهم عليها في التأليف - وهذا أعلى الدرجات فيما نحن فيه ضمن النظام القائم - وهو حاصل فعلا على وجه يذكر، وقد أورد على سبيل المثال، المثال فقط - مؤلفات الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، ومؤلفات الأستاذ حمد الجاسر، ولهؤلاء نظائر جزءًا أو كلاً وإن كنا نرى القاعدة أكثر انطباقًا على مؤلفين من طبقة الشيوخ من الرعيل الأول، والثاني منها انطباقًا على الذين جاءوا بعدهم - مع علامة من التعجب إذ ترى بين هذا الجيل - جيل الرواد - من امتلكوا من مادة الأدب والعلم ما يؤلف كتابًا أو ديوانًا، وامتلكوا معه المال - والمال الغزير أحيانًا - ولكنهم لم يتقدموا خطوة في الطبع والنشر!

إن الذين جاءوا بعدهم يؤلفون كذلك، ولكنهم يعتمدون أكثر ما يعتمدون لدى الطبع على وسائل لا يقوم الصرف فيها من (جيبهم) الخاص، كأن تكون جهة رسمية أو جهة أهلية، ولا نذكر هذا من باب الاعتراض، وإنما من باب اقرار ما هو واقع على وجه من الظهور، وفيه من المستجاد ما فيه... مع محذور صغير هو ما يدفع المؤلف إلى التفكير بالربح أكثر من التفكير بالتأليف، وما يدفعه إلى الاعتماد على (الغير) أكثر من الاعتماد على النفس، ثم إنه لا يفكر بالقارئ قدر تفكيره بالجهة التي ستتولى طبع كتابه، أو تعضيد طبعه، أو شراء كمية كبيرة منه، في رغباتها وأهدافها وشرائطها... وربما ساعدت هذه الجهة ماليًا لمعنى المساعدة دون أن

يكون الكتاب مما يهمها وبغض النظر عن الجودة والرداءة.

ثم إذا حدث لهذه الجهة أهلية كانت أم رسمية... داع إلى الفتور في الطبع والنشر، انعكس هذا الفتور على التأليف والمؤلف، أما القرّاء فلم يكونوا طرفًا رئيسًا في القضية، والذي يقرأ منهم كان يجد الكتاب بسعر مقبول، فإذا ارتفع السعر استغلى الكتاب، وتردد في الشراء، أو انصرف عن اقتنائه؛ ولا يجد ـ حينئذ ـ المؤلف مسوغًا للاعتماد على نفسه، ومن ثم لا يجد المسوغ في التأليف، أما لو كانت العلاقة وطيدة بين المؤلف والقارئ منذ البداية ـ ولا تدخل بينهما الجهات الخارجية من رسمية وشبه رسمية وأهلية إلا بحدود العامل المساعد، والوسيط الذي يمد يده لإسناد الاثنين بقدر مقدر من نظرة تسعى بهما إلى الوقوف على ـ أقدامهم والسير بعد ذلك في قوة وثقة... لو كانت لما تأثر موقف المؤلف كثيرًا، ومعنى هذا وجوب أن تستقر تقاليد يكون فيها للمؤلف قُرّاء يتابعون ويسألون عنه ويطلبون كتابه.

قد تكون الفكرة ـ هنا ـ غير واضحة، وقد يعود بعض من غموضها إلى جدتها، ووجوب التأمل طويلا فيها، وأن يشترك كثيرون ممن يعنيهم أمر الكتاب في التأمل والمناقشة... وكأني أريد أن أقول إنه لا بد لنا من السعي الطبيعي لإيجاد القارئ الطبيعي، فإذا وجد استمرت سوق الكتاب مهما يعرض للجهات الخارجية من عوامل قد تدعو ـ منطقيًا ـ إلى الفتور، إن من صحة المطبوعات أن تستحيل تقليدًا شعبيًا، ولا بأس بعد ذلك ـ أو قبل ذلك ـ من رعاية رسمية ـ أو أهلية ـ في حدود النظرة المستقبلية السليمة المدروسة.

[دور النشر في المملكة]:

وهنا يأتي دور الكلام في الخاتمة على دور النشر، وقولنا (يأتي دور) لا يعني جدة الكلام عليها فلقد رأينا ذلك على وجه خاص في المقدمتين الثانية والثالثة، فضلا عما انبث خلال «المعجم»، وكانت (الدور) في (كثرتها) وتكاثرها تدل على نفسها.. وقد رأينا «تهامة» تبرز ـ بعد الحد المحدد ـ أمرًا مدهشًا، لافتًا للنظر، عجيبًا... وفاتنا

أن نذكر دار الشروق قبلها. وكلتاهما في جدة.

ولو بدأنا بالبدء ـ بعد التمهيد ـ، لوقفنا عندما نشر (على نفقة) مميزين مكان الملك عبد العزيز ثم آله والأثرياء من وجهاء البلاد وفيهم حسن شربتلي... ومحمد سرور الصبان وغيرهما وغيرهما، وكانت لذلك النشر ضرورته، ثم زالت الضرورة تدريجًا بانتظام المؤسسات الحكومية وقيام الوزارات، ولكن مؤسسات الحكومة ـ في مثل النظام القائم في المملكة ـ ليست دور نشر بالمعنى الصحيح، إن دار النشر هي جهة أهلية، يقصدها المؤلف بمخطوطه، ليتفق وإياها على طبعه ونشره وتوزيعه، بعد الاتفاق على حصته المالية لقاء جهده، وهذه غير تلك؛ وغير (المكتبة) التي تختار كتابًا تحسبه رائجًا (من التراث عادة) وتطبعه وتذيعه وتحتكر ربحه ـ وقد رأينا منها أمثلة غير قليلة...

إن دور النشر بالمعنى الاصطلاحي حديث النشأة في البلاد، ولعلّ النشأة متأثرة بالدور اللبنانية خاصة، ولا بأس بالنشأة المتأخرة، إن كان التأخر فيها طبيعيًّا، فنشأة الدور تستدعي خطوات سابقة عليها، وقد تهيأت تلك الخطوات على مر الزمن، وكان آخرها دار اليمامة بمعنى من المعاني، والدار السعودية بمعنى آخر من المعاني؛ وتمثل الاثنتان خطوة ذات بال، جديرة بالذكر، وهما آخر ما شهدنا في المملكة قبل وداعنا إياها (١٣٨٨/١٩٦٨) وحتى الحد المحدود لنهاية المعجم (١٣٩٠/١٩٧٠)، ومن ثم، لا ندري السبب الدقيق ـ لبعد عن موقع الأحداث ـ لتكاثر دور النشر بعد ذلك، وتنوعها، وتوزعها على المدن الكبرى من المملكة ولا سيما جدة والرياض ولك أن تقول الرياض وجدة... وقد عددنا بعضها، ويمكن أن نستدرك ونزيد ونستعيد ـ مع إمكان الفوات والنسيان والجهل وهو كثير ـ ولا بد من أن يكون الربح ـ أيًا كان مصدره ـ في أسباب هذا التكاثر، ولا بد من أن يدخل المصدر الرسمي على رأس تلك الأسباب.

في الرياض (غير دار اليمامة، ومؤسسة اليمامة الصحفية، ومؤسسة الجزيرة الصحفية،... والدعوة): دار الوطن، دار العلوم، دار المريخ، دار الرفاعي، دار الأشبال، دار الأصالة، دار الرسالة، دار الرياض، دار الرشيد، دار الصحراء، دار طيبة،

دار اللواء، دار الناصر، دار نجد، دار الهدف، دار اليقين، الدار الوطنية، الشركة السعودية للتجارة، عالم الكتب، دار الكتاب الجامعي، دار الكتاب العربي، دار المعارف السعودية، مؤسسة خدمة العلم، مؤسسة الأنوار، دار الفيصل، دار الهداية، دار أمية، الفاخرية، مكتبة المعارف، وكالة تبر - غير ما تنشره الوزارات والجامعات.

وفي جدة، غير مؤسسة تهامة التي لم نر فرصة دون الإشارة إلى إدارة النشر والمكتبات فيها والإعجاب بها (ونذكر هنا: أن مدير الانتاج فيها هو الأديب سباعي عثمان)، وغير الدار السعودية التي كانت قبل ١٩٦٨/١٣٦٨: دار الشروق وهي نشطة جدًا. سبقت تهامة في الظهور. قال ساعاتي في كتابه «حركة التأليف والنشر ١٣٩٠ - ١٣٩٩ ص ١٨٣: (تعد جامعة الرياض أكبر جهة ناشرة في المملكة العربية السعودية حيث نشرت ٦٤ عنوانًا (...) وتأتي دار الشروق بجدة في المركز الثاني، إذ بلغ عدد ما تمكنا من إحصائه من منشوراتها حوالي ٤٨ عنوانًا ولعلها نشرت أكثر من ذلك... أغلب منشوراتها ذات صبغة أكاديمية بحتة. ويحتل المركز الثالث نادي الطائف الأدبي الذي نشر حتى الآن أكثر من ٣٦ عنوانًا...).

حتى إذا تأسست إدارة النشر في تهامة بذّت ما سواها، ففي بحث للأستاذ يحيى ساعاتي (عالم الكتب، مج ٤، ع١، رجب ١٤٠٣/ إبريل ١٩٨٣) بعنوان: حركة التأليف والنشر في المملكة خلال عام ١٤٠٠هـ يصنع جدولا بما نشرته دور النشر والهيئات الرسمية داخل المملكة.

تأتي على رأسه تهامة وقد أصدرت (٢١) عنوانًا، يليها النادي الأدبي في الرياض، (١٨) عنوانًا، وجامعة الملك سعود، في الرياض (١٨) عنوانًا كذلك، فدار الشروق، (١٧) عنوانًا، والدار السعودية (١٧) عنوانًا كذلك فجامعة الإمام محمد بن سعود (١٣) عنوانًا... إلخ.

ومن دور النشر في جدة: شركة مكتبات عكاظ، مكتبة المدني، محمد سعيد باعشن وعبد الحميد مشخص، دار البحوث العلمية، دار المجمع العلمي، مؤسسة

الرجاء للتجارة، مؤسسة القنديل للتجارة.

وأحدث دار فيها هي دار القبلة للثقافة الإسلامية، استهلت مطبوعاتها بالجزء الأول من كتاب لأبي تراب الظاهري عنوانه: «ما لقي رسول الله ﷺ من الأذايا والبلايا»، مطابع سحر د. ت [١٤٠٤/١٩٨٤].

وفي مكة المكرمة: دار مكة، دار الرائد، مؤسسة هديل، مكتبة الثقافة... دار عكاظ، دار الباز...وفي المدينة المنورة: مكتبة الثقافة، طيبة، المكتبة العلمية.

وفي الطائف: دار الزايدي، دار ثقيف (ونذكر أن صاحبها الأديب عبد الرحمن المعمر)، دار الحارثي.

وفي الدمام: دار الإصلاح.

هذا ما وصل إلى العلم - وهو ليس كل شيء - غير ما نشرته الجهات الرسمية من وزارات (كالمعارف والدفاع والإعلام والعدل والزراعة والداخلية والحج والأوقاف) والجمعية، والنوادي والجامعات ودارة الملك عبد العزيز، والمعاهد (مثل معهد الإدارة)، والمؤسسات الدينية.

وما نشرته المكتبات مثل مكتبة التوفيق، الحرمين، العلمية، الرياض الحديثة، المعارف.

وليس من غرضنا الإحصاء، وما ذاك بمستطاعنا لو أردنا إليه، وإنما أردنا إلى الأمثلة ذات الدلالة. ويحسن الرجوع إلى كتاب ساعاتي - حركة.

لقد تكاثرت دور النشر على شكل لافت للنظر، ولو قلت إنها زادت عدداً (ونشاطًا محليًا) على ما في أي قطر عربي آخر لما أبعدت (حتى لو أدخلت في حسابك مصر وربما لبنان) والمسألة تدعو إلى الدهشة أحيانًا؟!

[المطابع في المملكة]:

ودور النشر تتصل بالمطابع وتعتمد عليها، والمطابع تسد الحاجة بعض الشيء فكانت المطبعة الرسمية أم القرى (الحكومة) في مكة، ومطابع الأصفهاني (الأهلية)

في جدة مع مطابع أقل شأنًا في جدة! وشهرة مثل شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، خصوصًا يوم كان المؤلف السعودي يفكر بالطبع في مصر أو لبنان، قبل أن يفكر بالطبع محليًا حبًا بنشر أوسع، وإخراج آنق، وسعر أرخص...، ثم زادت المطابع بازدياد الحاجة أو شعور أهلي بدلالة وجودها كالذي جرى في الرياض. فكانت مطابع الرياض.

وبقي ـ مع هذا ـ الطبع في الخارج هو السائد في الكتاب ويكفي أن «دار اليمامة» التي كان صاحبها (الشيخ حمد الجاسر) أساسًا في قيام مطابع الرياض، لم يجد ما يسد حاجته إلا في لبنان، ومثل دار اليمامة، الدار السعودية للنشر.... مع أن العدد قد زاد نسبيًا، وكان من مطابع مدينة الرياض: مطابع نجد التجارية، ومطابع الفرزدق.... وشركة مطابع الجزيرة، ومؤسسة النور ـ غير مطابع الجيش.

ثم توسعت وتطورت مطابع الأصفهاني....

وجاءت المؤسسات الصحفية وفي صميم نظامها إنشاء المطابع التي تعتمد عليها وقد شرعت تنشئ الجديد أو تحسن القديم.

ولك أن تعد التطور في ذلك طبيعيًا ضمن أسبابه الموجبة الموضوعية... كما عده صاحب المعجم وهو قريب منه.

ثم لم يلبث الأمر أن خرج عن مدى تصور البعيد عنه ـ وحتى القريب أحيانًا ـ وكان ذلك على اتصال مباشر مع تكاثر دور النشر، فالمطابع تبحث عن مادة تطبعها، وهي تطبع المادة التي تبحث عنها دور النشر لنشرها، ومعنى هذا كثرة المؤلفين والمؤلفات من كل نوع من أنواع المعرفة وفي تلك الأنواع غير الجديد، القريب العهد الذي يعاد طبعه، والمخطوط القديم الذي يحقق، ويسند المؤلف غير دور النشر، مؤسسات رسمية علمية أهمها الجامعات في عدد منها عمادات شؤون المكتبات، والمطبعة، ومراكز البحث (والتحقيق)، ولا تنس النوادي الأدبية والجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون... وغير هذه وتلك...

وقد وقفنا على عدد من دور النشر، ووقفة عند المطابع قد تستدعي ربط المطابع الجامعية بدور النشر في وجه من الوجوه مع فارق الأساس الرسمي لها، وأنها تبذل لمؤلفيها جيداً وتذيع مطبوعاتها هدايا وما أشبه، إن مطبعة، كمطبعة جامعة الملك سعود (مطابع جامعة الملك سعود) تطبع - غير الكتب - «فهرس معرض الرياض الدولي الخامس للكتاب» ١٤٠٣/ ١٩٨٣ بـ ١٢٦٠ صفحة من قطع كبير وإتقان منقطع النظير، فهي مطبعة - أو مطابع - كبيرة الشأن.

وتزداد المطابع على أية حال...

ولو ذكرت المطابع التي تتعامل معها إدارة النشر بمؤسسة تهامة (جدة) وحدها لكان في عددها - لو استطعت الدقة في ضبطه - دلالة، وهذا الذي تهيأ منها: شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر، مطابع النصر، سحر، المطبعة العربية، الروضة، دار البلاد، دار العلم للطباعة والنشر، دار عكاظ للطباعة والنشر، دار الأصفهاني - وربما غيرها.

ومن مطابع جدة مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر، مطابع البنوي، مطابع مؤسسة القنديل، مطابع دار المجمع العلمي، مؤسسة الرجاء، أوفست المدينة، دار الفنون.

وفي هذه المطابع ما لم يكن له وجود أو احتمال وجود قبل ١٣٩٠/ ١٩٧٠.

وتكثر المطابع في الرياض على ما لم يكن يمتد إليه يوماً خيال - أو حلم - الشيخ حمد الجاسر... فبعد الذي رأينا، ، ومطابع اليمامة، ، ومطابع مؤسسة الجزيرة تأتي مطابع إذ فاتنا حصرها فلا يفوتنا ذكر ما تهيأ لنا منه: مطابع الشرق الأوسط، شركة الطباعة العربية السعودية، المطابع الأهلية للأوفست، مطابع وإعلانات الشريف، مطابع القصيم، المطبعة اليوسفية، المطابع الوطنية الحديثة، مؤسسة الأنوار، مطابع المنطقة الوسطى، مطابع دار الهلال، مطابع النصر الحديثة، مطابع الخالد للأوفست، مطابع الإشعاع، مطابع الأمل، مؤسسة المنار الطباعية، مطابع بحر العلوم، مطابع اليمامة، مطابع البادية للأوفست، مطابع حنيفة، مطابع المجد التجارية، مطابع أبو نزار، مطابع مرامر،مطابع النهضة، مطابع بطاقة دعوة، مطابع الشمس، مطابع

السفراء (سفير)، مطابع صقر الجزيرة، مطابع الوطن الفنية، مطابع البكيرية، مطابع الشهري، مطابع الفيصل التجارية، المطبعة النموذجية، مطابع السامر، شركة الطباعة العربية السعودية، مطابع دار العلوم، مطابع القوات المسلحة.

قال ساعاتي: (تضم مدينة الرياض وحدها أكثر من سبعين مطبعة تتفاوت مستوياتها).

وإذا ذكرنا مطابع جدة والرياض علينا أن نتصور أحدث ما في الأحداث في عالم الطباعة. وفي الخبر أن «الشرق الأوسط» تستعمل الأقمار الاصطناعية.

ثم إن المطابع القديمة لا بد من أن تطور نفسها ولم تلبث مطبعة الزايدي في الطائف أن صارت مطابع الزايدي.

وفي مكة قامت ـ غير ما رأينا من مطبعة الحكومة، وقريش (وترد «الحرم» منسوبة إلى الشيخ أحمد سباعي) والثقافة ـ دار مكة للتأليف والنشر فقامت معها ولها دار مكة للطباعة، وتوسعت مؤسسة مكة للطباعة والإعلام... مع مطابع قد تكون صغيرة أو أصغر أعرف منها: زمزم، مطبعة النهضة الحديثة، الوفاء، التراث...

وفي المدينة المنورة: مطابع الرشيد، المصحف.

وفي الشرقية، في الدمام مطابع المطوع، المطابع الفنية، مطابع التريكي.

وفي أبها مطبعة العسيري، وفي حائل: المحيسن، وفي جازان: الأمل(؟). قال الشيخ حمد الجاسر «العرب» شوال ١٣٩٢/ تشرين الثاني ١٩٧٢): (ومنذ سنتين قام (...) الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي المؤرخ المعروف بانشاء مطبعة في جازان قاعدة ذلك الإقليم الواقع في تهامة في الجنوب الغربي من المملكة...).

(وفي هذا العام وجدت الطباعة في مدينة أبها قاعدة بلاد عسير (...) فأنشئت مطبعتان في تلك المدينة إحداهما باسم الإقليم، والثانية باسم الوديعة).

ولسنا بصدد الإحصاء والدقة، ولسنا قادرين على ذاك لو أردنا، ولا بد من القول هنا، كما كان بصدد دور النشر، والمكتبات، من دراسة خاصة يتوجه إليها

متخصص... لأهميتها وقبل فوات الأوان ـ وعذرًا عن الخطإ أو السهو.

وتتضافر العوامل ليكثر المطبوع، ويتعدد الكتاب وأنواع المطبوعات الأخرى...

ولا تعجب حينئذ أن تقوم في البلاد مجلة متخصصة محترمة كمجلة عالم الكتب..

وتقام المعارض، ومنها ذلك الدولي الذي يقام في جامعة الملك سعود...

وكان مؤلف المعجم يسأل عن السبب في هذا الازدهار ـ أو ما يبدو ازدهارًا ـ ويصعب لمثله أن يقع عليه واضحًا أكيدًا، ولكن الذي لا شك فيه أن هذه المطابع وتلك الدور ما كانت لتقوم، لو لم يكن في البلاد مؤلفون وكتب ومخطوطات، ولو لم يكن في تلك الكتب الجاهز المعد للطبع أو ما ينتظر (لمسات) قبل الطبع... وإلا فماذا تطبع المطابع وماذا ينشر الناشرون؟

هذه بديهية.

ولا بد من أن يكون مثلها الاستنتاج السهل بأن الدور تربح ماليًا، لأنها قبل كل شيء مؤسسات تجارية، حتى ما كان منها راجعًا لمالك أديب (والأدباء الذين أسسوا دور نشر في السعودية ليسوا قليلين، ولا يحسن أن تمر الظاهرة دون إشارة إليها ودعوة إلى دراستها لتميزها في موضوعها).

بديهي ـ وواجب ـ أن تربح ماليًا دور النشر، ويتأسس على ذلك أن المؤلف يربح كذلك.

تلك أمور يمكن أن يصل إليها البعيد ـ فضلا عن القريب ـ وهي أحوال دالة على نفسها، ويكفي أن وصفناها بالبديهية.

يبقى بعد ذلك أمران ليسا بديهيين جدًا:

الأول: القارئ ـ أو القراء ـ فهل القارئ السعودي يستوعب كل ما تنشره دور النشر السعودية، فضلا عما يرد إليه سهلا من الخارج وهو غير قليل؟ ويدخل في الاستيعاب كل معانيه حتى المالية.

لا شك في أن المثقف السعودي قارئ جيد، ولكن الشك في الكمية (والعدد) وليس الموضوع - هنا - موضوع الكيفية والنوع، وهو قادر - عمومًا - على الأثمان المالية للشراء إذا أراد حتى لو بدا سعر الكتاب الواحد غير رخيص.

ومع هذا، يبقى الشك في العدد، وربما فاق المطبوع قدرة القراء وعددهم وأبواب تلقيهم. أنا لا أشك في أن هناك مؤلفين يفرضون أو فرضوا - أنفسهم، وإن هناك موضوعات معينة كذلك، ولكنني أحسب أن المطبوعات أكثر من القرّاء، وقل أكثر من الذين يتقدمون طوعًا للشراء من المكتبات.

ويزيد من تضييق هذا الباب أن دور النشر السعودية على كثرتها ونشاطها تبقى محلية تطبع وتنشر لقراء من البلاد نفسها، ومهما يكن عدد القرّاء أو الذين يشترون الكتاب منهم كبيرًا فإنه يبقى دون المطلوب الذي يسد النفقات ويوفر الأرباح - ولا تقنع دور النشر بأرباح قليلة وإلا لما كانت بهذا العدد ولوجدت إلى الأرباح طرقًا أخرى خارج عالم الطبع والنشر.

[ترويج الكتاب وتسويقه]:

لم تفكر هذه الدور جديًا في إخراج الكتاب السعودي عن محليته، لقد نجحت كثيرًا في (جمالية) الإخراج، ولكنها بقيت تدور - أكثر ما تدور - في موضوعات محلية - وقل سعودية - قلما كسبت النطاق الواسع الذي يُهَيِئ لها سوقًا خارج المملكة، زد على ما يضرب عادة على الأسواق الخارجية من أنطقة صعبة الاجتياز لدى التصدير ولدى التفاهم على العملة الصعبة (أو السهلة).

وأستدرك وأقول إن في هذا العدد الضخم من المطبوعات السعودية ما يمكن أن يتخذ صفة العموم، وأن يهم قارئًا عربيًا أو غربيًا بهذا العموم الذي يعنى به وإن كان هذا قليلا (آخذًا بالتزايد... قليلا كذلك)..

ثم أستدرك وأقول إن من الباحثين والقرّاء خارج المملكة سواء في الأقطار العربية أم في العالم من يهمه أن يقف على خصوصية بلد ما، ولا شك في أن في المطبوعات

السعودية خصوصية ما..

ثم هناك ما هو أوسع في الدلالة، فليس هناك كتاب يصدّر وكتاب لا يصدّر، لأن المفروض بأي كتاب عربي أن يكون له مكان ما في أي قطر عربي، ومعنى هذا أن تتكون لجنة أو مؤسسة خاصة تأخذ على عاتقها إيصال الكتاب السعودي إلى الأقطار العربية، وإلى من يهمهم أمره خاصة، بكل الوسائل من التجارة والمقايضة إلى المعارض إلى الإعلان إلى الإهداء...

ويبدو لي أني أطرق موضوعًا لم تمنحه دور النشر حقه في خدمة الكتاب وخدمة الدار وخدمة الثقافة العربية كلها، وكأنها رضيت بالربح وهو حاصل من أقصر طريق، ولعلها حاولت مرة أو مرتين فتراجعت عند أول مثبط، والذي يصر يصل كما حصل - مثلا - لمجلة «الفيصل»، وما يمكن أن يحصل جدًا لمجلة «عالم الكتب» لو...

إنها مسألة تسويق الكتاب، مسألة أخرى نثيرها، وجدير أن يتدارسها أهلها، ولكنها ليست مسألة أخرى لنا في حدود خاتمة لمعجم المطبوعات العربية - السعودية.

ونعود إلى الأمر الثاني، وهو الحكومة، وهي أساس في أرباح دور النشر (والمطابع والمؤلفين)، ومعلوم جدًا أنها تقدم في ذلك تشجيعًا ماليًا كبيرًا بقواعد صارت مقررة يعرفها الناشر والمؤلف ويُنتفع بها إلى أقصى الحدود... وفي الحكومة جهات مختلفة من الوزارات والرئاسات والمؤسسات، والتشجيع المالي المجزي يرد مرة مباشرة ومرة غير مباشرة، ولكنه يرد على كل حال.

وهذا موضوع جدير ببحث خاص، ويستطيع أن يقول الذي يعرفه عن قرب الكثير النافع... والحكومة مشكورة على تشجيعها، ولكن للحكومة ظروفها وسياستها ومشاغلها الأخرى الأهم لديها، ثم إن الكثرة في دور النشر والمطبوعات - في هذه الحالة - لا ترصد علميًا المستوى الثقافي الشعبي، وهنا نعود إلى ضرورة تكوين القارئ والاعتماد عليه، وأول خطوة في تكوينه أن يرد العزم الأكيد في مخطط الناشر والمؤلفين والمشجعين.

قضـايا المطبوعـات كثيرة، جديـرة بالإثارة فـضلا عـن الدراسة والبحـث، وفي المملكة من وسائل الدراسـة ما يمكن أن يصـل إلى كثير مـن الحقائق، ويكفـي ما في جامعاتـها من عمادات لشؤون المكتبات، وما في أقسامـها من أقسام للمـكتبات... ومع العمادات والأقسام أساتذة متخصصـون درسوا (الكتاب) على أصوله وحصلوا فيمـا درسوه الشهادات اللائقة من ماجستير ودكتوراه، من مصر أو من أمـريكا أو أوربا أو من غيرهما، في كتاب أصدرته جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات بعنوان: «مستخلصات رسائل السعوديين لدرجة الدكتوراه» الرياض، العـمادة، ١٤٠٣/ ١٩٨٣ يشتمل على (٣٩٣)، منهـا (٣٩) باللغـة العربيـة، والبقية باللـغة الانكليزية ـ تنظر عـالم الكتب مـج ٥، ع١، ص ٢٥٧. تضـاف إليهـا التجارب الخاصة بمطبوع بعينـه في نشأته وتطوره وما هو خير وما لا يراد لـه من شر... فعليهم تقع المسؤولية في البـحث وإليهم نشير وبهم نكتفي... ونختـصر، وإلا فالكلام كثير والمسألة تطول... ـ والأقربون أولى بالمعروف.

لقد سارت المطبعة قدمًا، وزادت دور النشر تكاثرًا ونشرًا... كما سارت مكتبات البيع قدمًا وتـكاثرًا واهتمامًا بالكتـاب السعودي، فخفت عوامـل الشكوى أو زالت، ولم يعد المجال واسعًا إزاء مقالة الدكتور محـمد عبد الرحمن الشامخ (كاتب الحي)، بل إن في الذي حصل تحقيقًا لمطلبه في المقالة نفسها حين قال: (... ولكنني أعتقد أنه لن ينقـذ كتابنا المحلـي من وضـعه (...) إلا أن تنشأ مـؤسسة كـبرى تتـولى تـوزيع المؤلفات المحـلية، وتنفق عـلى نشر ما ترى نشـره منها، ولا شك في أن هـذه المؤسسة ستكون قادرة عـلى أن تضـمن للكتاب المحـلي مـكانًا ملائـمًا في معظم مكـتباتـنا التجارية، وأن تقنع رواد هذه المـكتبات بأن علماءنا ومفكرينا لم ينـتجوا بضعة كتب فحسـب، ولكنهم قـد ألفوا في علـوم الدين واللغـة والأدب والتاريخ وشؤون الـفكر الأخرى مـا قد تمتـلئ به رفـوف المكتبـات في بلادنـا، ولا سيمـا إذا ما سعـدت هذه المؤسسة في نشر ما خُطَّ، وإعادة طبع ما نفد، وتشجيع ماسُوِّد).

لقد تحقق هذا وما هـو أكثر منـه؛ فلقد تـأسست أكثـر من مؤسسـة واحدة؛ وفي

المؤسسات ما فتحت مكتبات تجارية لنفسها، ومنها ما طبع كتبًا في العلوم الصرف، وشرع يطبع لمؤلفين من خارج البلاد... ويحاول - ولا بد من أن يصل - إخراج الكتاب المحلي عن محليته موضوعًا وسوقًا.

عَتْبٌ ورجاء !!:

وبعد: فقد قال مؤلف «المعجم» أكثر من مرة وقَر ٩٠٪ لحدي كتابه بين ١٣٤٤/١٩٢٥ - ١٣٩٠/ ١٩٧٠ ولا بد من أن يحسب للـ ١٠٪ الباقية حسابها، ورجا القراء من كل نوع التفضل بالتعاون على تسديدها ببيان النقص وتعيين المصدر إلى الكمال، وإلا فهم طرف - وليسمحوا له - في تحمل المسؤولية، قال ذلك وقد عاش قريبًا من جملة المادة في السعودية نفسها.

وهنا يرد مكان الإشارة إلى ظاهرة قد تكون سعودية وقد تكون عامة، خلاصتها أنك نشرت مادة المعجم في مجلة «العرب» على حلقات لأسباب في رأسها طمعك بالتنبيه على الخطإ، والإسهام في ردم الهوة والتطوع في متانة الأساس، وإنك أعلنت ذلك منذ البداية (وظلت) في كل حلقة تطلب ملاحظات القراء و(تستجديها)، وكان الحاصل قليلا... جدًا، هذا وجه من الظاهرة، أما الوجه الثاني فإن الحاصل القليل الذي يرد إليك يقترن عادة بحالة خاصة هي أن القارئ لا ينبهك إلا إلى خطإ يتصل بشخصه مباشرة مع علمه بخطإ أكبر، وقدرته على نفع أعلم، ويحضرني هنا مثل الأستاذ محمد حسن كتبي، وهو أديب حجازي (ولد في مكة المكرمة سنة ١٣٢٩) وله في «وحي الصحراء» صورة ونماذج نثرية واسعة تختم الكتاب - بعد أن فات ذكره في «أدب الحجاز»، والأستاذ الكتبي عارف خبير بالكتاب السعودي، والحجازي خصوصًا، وكان يقف على «العرب» وعلى (حلقات) المعجم في «العرب» ويقف خلال ذلك على نقص يستدعي السد وخطإ يتطلب التصويب، وانتظرت ولم أفز، وجاء تسلسل اسمه الكريم من المعجم ووقع خطأ - لا أدري كيف - فجاء لدى التعريف به (أنه عمل مدرسًا بالمدرسة الصولتية بمكة) فانبرى - حينئذ - مشكورًا ونبه إلى أنه عمل في مدرسة الفلاح وليس في الصولتية، ففرح المؤلف

وخف يصحح ويستدرك، ويقول في نفسه لا بد من أن يكون في حلقات المعجم أغلاط أخرى، وإنها لكائنة ولكن المشكلة في الذين يتفضلون بالتنبيه.

هذا ما قاله في نفسه آنذاك، وقد مر على الحادث سنتان أو أكثر، عاد بعدها يحول الحلقات كتابًا، وإذا به هو نفسه يرى من الفوات الكثير والخطإ الكثير، ويصحح هو نفسه ما يثيرعجبه، وكان جميلا لو نبهه إليه المعنيون أنفسهم، العارفون، العالمون... ترى ما ضرّ لو نبهه منبه مثلا، على فوات اسم: عبد الهادي محسن الفضلي؟ أكان عليه أن ينتظر طويلا، ليصدر «دليل الكاتب السعودي» ١٩٨٤/١٤٠٤ ليقرأ إنه: من مواليد الأحساء ١٣٥٤ وحاصل على الدكتوراه ويعمل استاذًا مشاركًا للغة العربية بكلية الآداب/ جامعة الملك عبد العزيز بجدة، وهو عضو إداري في النادي الأدبي الثقافي بجدة، ويذكر مؤلفاته ويهمنا منها ـ تاريخيًا ـ : «مبدأ الاشتقاق في اللغة العربية» ١٣٩٠هـ، وله مؤلفات أخرى متأخرة عن هذا التاريخ هي: مختصر النحو، مختصر الصرف، القراءات القرآنية، اللامات، في علم العروض. ويذكر أنه حصل على الماجستير برسالته «أسماء الأفعال والأصوات» ١٣٩٠، وعلى الدكتوراه بـ «قراءة ابن كثير وأثرها في الدراسات النحوية» ١٣٩٥. وأن «مختصر النحو» طبع سبع مرات، ويحتمل أن تقع الطبعة الأولى ضمن حدود المعجم أو على حدوده.

الأستاذ الفضلي ـ هنا ـ مثل واحد على الفوات، يدل على من سواه، وتقع مسؤولية الإخلال على مؤلف المعجم والفضلي نفسه وقراء مجلة «العرب» كذلك.

دعا مؤلف المعجم إلى التنبيه منذ نشر أولى الحلقات في مجلة «العرب»، وكان الوارد أقل من القليل، وإذا كان ما قاله وهو مؤلف (غريب) فإن من أبناء البلاد ـ ومنهم الأستاذ يحيى محمود ساعاتي ـ يحملون الشكوى نفسها، المؤلف الغريب فرد، والمؤلف السعودي فرد، فما ظنك بمؤسسة نشطة قوية متنفذة كالجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، وقد عزمت جادة لخدمة المؤلف السعودي بصنع «دليل الكاتب السعودي»، فما لقيت الاستجابة المطلوبة من المؤلف السعودي، فما جاء

عملها كما يجب وكما تريد، وسجلت شكواها في مطلع كتابها «دليل الكاتب السعودي» الرياض، مطابع الفرزدق التجارية ١٤٠٤/ ١٩٨٤ - ٣٠٣ ص، فقالت: (... وكانت الجمعية قد بعثت أكثر من ألف رسالة مع استمارة البيانات الخاصة بهذا الدليل، إلى كُتّابنا وكاتباتنا للمشاركة في هذا العمل، كما أعلنت عنه في الصحف المحلية، ثم أرسلت استعجالات للذين لم تصل ردودهم. وكاد هذا المشروع على أهميته يتأخر تنفيذه طويلا لعدم وصول كل الردود....).

وحسنًا فعلت إذ أصدرت الذي تهيأ لها ليكون أساسًا تكمله وتصلحه في طبعات قابلة - كما وعدت أملا أن تكون الطبعات القابلة أكثر تفصيلا في حياة الكاتب، وأكثر كذلك تفصيلا في الكتاب نفسه: نوعه، تاريخ طبعه، مكان طبعه، موضوعه، عدد صفحاته... إلخ. حسنًا فعلت ولقد أفدنا من «الدليل» - قدر الإمكان - في هذه الخاتمة، ويأتي صدوره دليلا جديدًا على ضرورة (الأدلة) و(المعجمات)... وتنامي الشعور الوطني بهذه الضرورة. وبإمكان النوادي والمؤسسات والجامعات أن تسهم في تأصيل معجمية المطبوعات..

رجا المؤلف عون القارئ منذ نشر الحلقات الأولى من المعجم (محرم ١٣٩١/ آذار (مارس) ١٩٧١) وظلّ يكرر الرجاء على مدى الحلقات والفترات حتى الحلقة السابعة والخمسين (رجب وشعبان ١٤٠٤/ نيسان، أيار ١٩٨٤)، رجا، وشكا... واليوم، وقد أصلح ما أصلح واستدرك ما استدرك وزاد ما زاد، ما زال هو هو كما بدأ أول مرة، يرجو ويلح في الرجاء بالتنبيه على النقص، والإشارة إلى المصدر الذي يسد الخلل - ولا ييأس ولا يفوته أن يكرر الشكر لمن تفضل فدل على غائب ورفع من بناء.

الوصية باستمرار تأليف هذا المعجم:

ويأتي - حينئذ - وقت الوصية - وهي جزء من هذه الدعوة ومتمم لها ولعمله، فهذا آخر عهد المؤلف بالمطبوع العربي السعودي، وقد بذل ما وسعه من جهد واستنفد ما أمكنه من وسائل، وهو إذ يودع الدنيا (دنيا المعجم، والموت حق) يوصي

بألا يقف المعجم من الحد الزمني حيث وقف (١٣٩٠/ ١٩٧٠)، فهو أقرب إلى أن يكون حلقة أولى تتبعه حلقة ثانية في الظروف القائمة، (وثالثة... ورابعة... على مر الزمن وتوالي الأجيال)....

تبدأ الحلقة الثانية من ١٣٩١/ ١٩٧١... ويمكن أن تقف عند ١٤٠٥/١٩٨٥ فقد جد خلال هذه السنوات الـ ١٥ ما يكون مادة كافية، ويمكن أن تمتد قليلا بحيث نستغرق (٢٠) عامًا، أو (٢٥) عامًا حسب طاقة الأخ ـ أو الابن ـ الذي يتولى تنفيذ الوصية ـ وخير البر عاجله.

وأعلم ـ وأنا أقرأ وأعترف في حال من الصحة والعافية ـ أن شيئًا من هذا قد عمل، واقصد ما ألفه الأستاذ يحيى محمود ساعاتي في كتابه «حركة التأليف والنشر في المملكة العربية السعودية ١٣٩٠ ـ ١٣٩٩»، وأعلم كذلك أن الأستاذ (الدكتور) ساعاتي يعيد النظر في كتابه فيستدرك ويصحح ويزيد... وأعلم إلى ذلك تخصص الرجل في الكتاب وهوايته فيه وأقدر ـ خلال ذلك ما يمتلك من (بطاقات) بما يصدر...

أعلم هذا، ولكن في وصيتي أريد منهجه في «حركة التأليف والنشر» إذ يذكر اسم المؤلف واسم الكتاب، ومكان الطبع، وتاريخه، وعدد الصفحات... وهو ما سميته العمل البيبليوكرافي (المكتبي) الصرف... وأريد ما هو أزيد، مما هو في منهج «المعجم» العتيد، فألزم منفذ الوصية بما ألزمت فيه نفسي مما ليس يلزمها، فبعد السير على حروف الهجاء لأسماء المؤلفين (أو المحققين أو المترجمين...) يرد التعريف بالكتاب في موضوعاته ومنهجه وسطور من المقدمة. والخاتمة... وبيان صلته بما سبق إن وجد، وما لحق للمؤلف نفسه أو لغيره، ويرد بعض ما قيل فيه إيجابًا أو سلبًا، وما يمكن أن يتهيأ قوله لصانع المعجم في حدود علمه ورأيه من غير مبالغة أو مجازفة، وربط ما في الحلقة الثانية بما في الحلقة الأولى لدى وجود الرابط... وأشياء أخرى تكررت الإشارة إليها أو يستنبطها استنباطًا ويبتكرها ابتكارًا إذا كانت له تجربة في البحث والتأليف أو يضع نفسه موضع الباحث إذا لم يكن... وأن ينشره حلقات في مجلة تعرف قدر الكتاب ويطلب التنبيه على الخطإ ويرحب بما يرد إليه ومن ثم يقدم

كتابه إلى الطّبع... مستعدًا لتلقي الملاحظات، سائرًا قدمًا إلى الحلقة التالية...

وإني أقر وأعترف في حالة من الصحة والعافية أن هذا عمل صعب، وأن تجاوب المؤلفين فيه قليل، ولكني أقر وأعترف أن الحلقة الثانية ستكون أنقى وأقل صعوبة من الحلقة الأولى، التي تعاملت مع مادة فيها ضائع كثير وفقيد كثير، وضمن تجربة جديدة أصابها ما يصيب أية تجربة جديدة، من تعثر أو تداخل أو اضطراب تبقى آثارها مهما يحاول صاحبها التخفيف منها، ثم إنه عمل مفيد جدًا، ولا بد من أن يكون، ولئن يصنع والمادة متوفرة، والشباب مساعد خير من أن يبحث عنه في الزوايا والظلمات بعد فوات الأوان.

والمسألة مسألة موسوعة مكتبية تخدم الباحث خدمة جليلة إلى جوار كونها معجمًا مكتبيًا.

وبعد...

فإن هذا الذي رآه القارئ في المقدمات والتمهيد، وفي صلب المعجم وخاتمته خاصًا بقطر عربي بعينه (هو المملكة العربية السعودية) ليس خاصًا به بكل معنى الكلمة، وأن الخبرة التي انبثقت منه أو فيه هي سعودية، وليست بنت السعودية وحدها، فالكاتب السعودي - هنا - هو المدار ووسيلة الإيضاح ومركز الاهتمام والتجربة، وطماح المؤلف أبعد، ودعوته أوسع، والمؤلف إذ يخص الكتاب العربي - السعودي بما يبدو جهدًا خاصًا فإنه لا يدعي لنفسه فضلا، وإنما الفضل للكتاب نفسه، حيث وفر له الفرصة التي يعرب فيها عن نفسه، والمجلى الذي يستغل فيه هوايته، ويتصرف بما تهيأ له من خبرة... إنه محب الكتاب وهذا كل ما في الأمر، وهو الشاكر الفضل - وكان أدكار ألن بو Poe يقوِل الشِعْرَ شَغفًا.

بغداد - الجادرية	يوم الاثنين ٣/١٠/١٤٠٤	يوم السبت ٨/٣/١٤٠٥
٩٢٣ / ق ١٥ / ٢٥	٢/٧/١٩٨٤	١/١٢/١٩٨٤

ويبقى الطاهر حيًا !!

[كان حريًا بهذا «المعجم» أن يتضمن ترجمة شاملة للمؤلف، غير أن الرأي استقر على الاكتفاء بما سجله المؤلف نفسه قبل سنوات، وكذلك الإشارة إلى ما تحويه هذه الإضمامة التي جمعنا فيها بعض ما كتب عنه ، ولا سيما بعد وفاته، إذ سيجد القارئ فيها إشارات مهمة إلى مسيرته العلمية، وإبداعه الأدبي، ومذهبه في النقد، وقراءة النصوص، وقد أوردنا هذه المقالات مرتبة على حروف المعجم تيسيرًا للقارئ.]

١ ـ واجب الوفاء للأوفياء	عبد الله بن إدريس
٢- شهادة حقٍ وليس رثاء	محمد حسين الأعرجي
٣-كلمة وفاء	حسن البياتي
٤ ـ هذا المعجم ومؤلفه	حمد الجاسر
٥ ـ هذا العراقي الكبير	سعد الجاسم
٦ ـ في رحيل الدكتور الطاهر	نادية غازي جبر
٧ـ تحية من مسافر إلى مسافر	يحيى الجبوري
٨ ـ أستاذي علي جواد الطاهر	هاني عباس الجراخ
٩-علي جواد الطاهر	عبد الكريم راضي جعفر
١٠ ـ علي جواد الطاهر	منصور الحازمي
١١-أبا رائد	هادي الحمداني
١٢-مضى طاهر الأثواب	عبدرب الزهرة زكي
١٣-في رثاء الطاهر	زاهد زهدي
١٤ ـ الطاهر ومعجم المطبوعات	يحيى محمود ساعاتي
١٥ ـ رحلة عمر مع الطاهر	إبراهيم السامرائي
١٦-أنت حي	راضي مهدي السعيد
١٧ ـ معجم المطبوعات العربية	عبد العزيز السديد
١٨-أيها السعيد الميت	طه حامد الشبيب
١٩ ـ رحيل شيخ النقاد بالعراق	الشرق الأوسط
٢٠-استذكار وفاء	حاتم الصكر
٢١ ـ ومات الطاهر	حاتم صالح الضامن
٢٢-رحل الطاهر..طاهرًا	غازى العبادي
٢٣ ـ وداعاً الطاهر	طالب عبد الرحمن
٢٤ ـ عن القلم العفيف	قاسم عجام
٢٥-دمعة وفاء	نعمة رحيم العزاوي
٢٦ ـ الطاهر في حواره الأخير	جليل العطية
٢٧-إلى أستاذي الطاهر	عناد غزوان
٢٨-ولد يوم رحل	عناد غزوان
٢٩ ـ لماذا ظلمنا العراقي الفذ؟!!	محمد رضا نصر الله
٣٠-مرثية الأستاذ الطاهر	محمد حسن الوادي
٣١-تكريم الطاهر	عبد رب الأمير
٣٢-إلى الطاهر	محمد حسين آل ياسين

واجب الوفاء للأوفياء

عبد الله بن إدريس[1]

رحم الله الدكتور علي جواد الطاهر الأديب والناقد العراقي الكبير، الذي فجعنا برحيله منذ أسبوعين كما فجعنا من قبل برحيل الأديب الفقيه اللغوي الشاعر الشيخ محمد بهجة الأثري [2].

ولقد أشرت في المقال الذي كتبته عن الشيخ بهجة الأثري في مجلة «الفيصل» عدد جمادى الآخرة ١٤١٧هـ إلى بعض الروابط الأدبية والثقافية بين أدباء من المملكة العربية السعودية وأدباء من العراق، ومن جملة من حظينا بعلاقات وثيقة معهم الراحلان الكريمان بهجة الأثري وعلي جواد الطاهر، وكلاهما زار المملكة وتعرف على بعض جوانبها الأدبية والثقافية، وإن اختلفت حصيلة كل منهما عن الآخر حسب الإمكانية الزمانية التي توافرت لأحدهما دون الآخر، فالشيخ بهجة الأثري كان يحضر اجتماعات (**رابطة العالم الإسلامي**) بمكة، وقد حضر إلى الرياض وحظيت بزيارته لبيتي ثم التجول به في المعالم الأثرية في الرياض كـ (بيت الأعشى) بمنفوحة، والذي أسف لهدمه لما شاهد موقعه أشد الأسف، وبخاصة أنه بيت شاعر مات على الشرك، فليس هناك مظنة أن يتخذه الصوفيون والخرافيون مجال تقديس وتعبد.

أما الدكتور علي جواد الطاهر فقد جاء إلى الرياض متعاقداً للتدريس في (جامعة الملك سعود) عام ١٣٨٣هـ ، ومكث هنا عدة سنوات، مما مكنه من الاندماج والاختلاط بالأدباء والمثقفين، وبالتالي مكنه اهتمامه الجيد الواعي إلى متابعة الشعر والأدب السعودي المعاصر، ودراسته، من خلال المصادر التي تُعَد بالمئات من الكتب والدواوين الشعرية، وإن كانت الأخيرة أقل بكثير مما صدر منها بعد ذلك.

---

(١) مجلة «اليمامة» العدد ١٤٢٨ في ١٤/٦/١٤١٧هـ.

(٢) : (١٣٢٢/١٤١٦هـ).

وكان الدكتور علي ـ رحمه الله ـ حريصاً كل الحرص على متابعة ما ينشر من الأدب السعودي، بصرف النظر عن توافر القوة أو الهزال فيه، باعتبار أن الاطلاع على الجميع أولاً، ثم الحكم بعد التصفية.

وكان يبحث ويناقش مع بعض أهل الاهتمام حول النتاج الأدبي في نجد والحجاز والمنطقة الشرقية والجنوبية، ليستزيد معلوماته عن هذا الأدب الذي يراه أهلاً للعناية والاهتمام به، بعكس النظرة إليه من قبل بعض الأساتذة الوافدين من بلدان أخرى، والذين مكثوا زمناً أطول من الزمن الذي مكثه علي جواد الطاهر في المملكة، ولكنهم لم يقدموا للأدب السعودي أي خدمة تذكر بل هم في (عنجهيتهم) ينظرون إلى الأدب السعودي نظرة احتقار وازدراء، حيث هو في -نظرهم- لا يساوي شيئاً مقارنة بأدب بلادهم، ويوجد من ذالك استثناءات قليلة وبعضها كتبت على استحياء أو تقرباً.

أما علي جواد الطاهر فقد خدم الأدب السعودي كما لم يخدمه أحد قبله، حتى أدباء المملكة العربية السعودية في جميع مناطقها، لم يخدم أحد منهم أدب بلاده بمثل أو ما يقارب ما فعله علي جواد الطاهر بكتابه الرائد في موضوعه، والرائع في تصنيفه «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية»، في مجلدين كبيرين، وبثلاث مقدمات، كل واحدة تكمل ما نقص في المقدمة السابقة لها.

وكان لشدة حرصه على معرفة كل كبيرة وصغيرة في محيط الأدب السعودي يتفضل بزيارتي في بيتي بعد العصر، في كل أسبوع مرة على الأقل، خاصة أن بيتي حينذاك يقع في شارع الجامعة، قريباً من مبنى كلية الآداب التي يزاول الدكتور علي جواد الطاهر التدريس فيها، ولا بد أنه يفعل مثل تلك الزيارة لآخرين، ممن يحب أن يتناقش ويتذاكر معهم شيئاً من شؤون الأدب وشجونه، في هذه البلاد خاصة، وفي الأقطار العربية الأخرى عامة، لكي يبني معلوماته على ما يشبه اليقينيات لا الحدس والتخمين.

وكان في زيارته لبيتي لا يحب الحديث في السياسة، بل يوقف نقاشنا على محور

الأدب شعره ونثره في المملكة العربية السعودية في جميع مناطقها.

وما إن انتهى التعاقد معه للتدريس في جامعة الملك سعود حتى رجع إلى بلاده العراق، موفور الكرامة، متوافراً على حب وتقدير زملائه وتلامذته وأصدقائه، الذين اكتسبهم واكتسبوه في هذه المملكة التي لا تغمط حق أحد، ولا تبخل عليه بحبها وتقديرها، حتى ولو لم يكن من الوفاء والعرفان لها بمثل ما جبل عليه الدكتور علي جواد الطاهر، فمن طبيعة المملكة العربية السعودية الوفاء بغير مَنّ والعطاء بغير حساب، وهي في ذات الوقت لا تنتظر مقابلاً لذالك من جزاء أو شكور، لكن الوفاء بالكلمة الصادقة والموقف الشريف من خصائص أكارم الرجال والنساء، ولها من الوقع والتأثير ما يخلد ذكر صاحبه في سجل التاريخ الذي بدأت تكتبه الأجيال الحاضرة، لتواصل مساره الأجيال القادمة.

قال لي مرة : إن عندكم من النتاج الأدبي والثقافي المتمثل في مئات الكتب ما يستحق العناية والاهتمام بها، لكنها - بكل أسف -لم تجد حتى الآن من ينفض عنها الغبار، ويلم شتاتها، ويصنفها بحيث يسهل للباحث الرجوع إليها، ومن خلال كلامه هذا أحسست أنه يفكر في مشروع كهذا، وقد جمع فأوعى عن كل مطبوع في المملكة ، حتى ولو لم تكن أكثر تلك المطبوعات ذات قيمة موضوعية أو فنية مستحقة، فحفظه في معجم للأجيال الباحثة والدارسة من حاضر وقادم.

أسفي لفقيد الأدب والنقد أنه لم يحظ ولو بجزء مما يستحقه من التكريم، سواء كان في بلاده العراق أم هنا، حيث عمل وأنتج مالم يسبق إليه، وأسفي الأخير أنني لم ألتق به بَعد (مهرجان المربد العاشر) عام ١٤١٠هـ ، حيث تقابلت معه في فندق الرشيد ببغداد، ثم في الندوة النقدية التي كانت تزامن الجلسات الشعرية صباحًا ومساءً.

وكانت آخر نصيحة قدمها إليّ أن طلب مني سرعة إعادة طباعة كتابي «شعراء نجد المعاصرون»، وقال في تلك الجلسة وبحضور عدد من الأدباء السعوديين المدعوين إلى (المربد): إن كتابك سرق، ولعلك اطلعت على رسالة أحد الدارسين السعوديين

الذي طبع رسالته للماجستير و(سرق) اسمه من أحد عناوين كتابك. قلت: لعله استعاره مني ولم يسرقه؟ فضحك: وقال نعم ولكنها استعارة غير مستردة! ومافعله غير هذا الشخص لعله أكثر.

وها أنا ـ في المقابل ـ أتمنى من الذي يملك حق إعادة طبع كتابه «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» أن يعيد طباعته، أو يطلب من إحدى المؤسسات الثقافية في المملكة العربية السعودية أن تتولى طباعته ونشره، خصوصاً أنه لم يطبع منه سوى (١٠٠٠) ألف نسخة حسب خطاب كتبه إليّ مؤلفه في حينه.

شهادةُ حقٍّ وليس رثاءً

كنت أسمع بالأستاذ العلامة علي جواد الطاهر، كما يسمع به غيري، وكنت أَعْجَبُ كما يُعْجَبُ غيري، ولكن بين إعجاب وإعجاب بونٌ، فقد كنت معجبًا بطرواة أسلوبه مقاليًا من الطراز الأول، على حين كان الآخرون يعجبون بالاثنين معًا: علمه وطراوة أسلوبه. ولاشك أن إعجابهم كان أرقى من إعجابي، ولكن سني يومذاك لم تكن تؤهلني أن أرقى إلى فهم ما يقول، فكان حسبي من هذا الذي يقول هذه اللغة الساحرة التي تتصور وأنت تقرؤها أنها خُلِقت له وحده على وفق ما يشتهي.

واقتربت من فهم بعض علمه – أو كدت – في آخر عام من أعوام دراستي الثانوية، فقد كان علينا أن ندرس كتابه المقرر من وزارة المعارف العراقية «النقد الأدبي»، وأن نؤدي امتحانًا فيه. أقول اقتربت من بعض علمه ولا أعني أنني بدأت أَفْهَمُ جيدًا ما يقول، ولكن الذي استطعت أن أفهمه منه أن كتابه لم يشبه كتاب الراحل العلامة الأستاذ مصطفى جواد وزملائه، فقد كان يراد لكتاب العلامة مصطفى جواد وزملائه عن «تاريخ الأدب العربي» أن يكون عمامة أبي سعيد

السيرافي توضع على رأس غلام راهق الحلم أو كاد، مما جعلنا نأبى لبس هذه العمامة التي لم نكن نعرف قدرها حق معرفته. أما كتاب الراحل الطاهر فقد كان مثل كتاب جواد وزيادة بما جمع بين الشرق والغرب، والقديم والمعاصر، والتراث والحداثة، ولكن كان فيه سر آخر لم يكن في كتاب العلامة مصطفى جواد هو: أَخْذُنَا هذا الأخذ اللين المحبب إلينا أن نتعلم وأن نفرح بما تعلمنا، وأن نعرف ما هو الأدب لا نظريًا، وإنما بمثل قريب من معارفنا، ودروسنا، ومستويات إدراكنا. وهل أقربُ إلينا من أن تكون أمثلة الأدب الذي هو كالزئبق في زوغان تحديده من علم الأحياء الذي درسنا ومن علم النبات ؟

كان الأدب قبل أن نعرف كتاب العلامة الطاهر محفوظات ثقيلة نستظهرها أحببناها أم لم نحببها، أما حين بدأنا بدراسة كتاب الطاهر فقد أصبح أمرنا وأمر الأدب شيئًا آخر، فقد أصبح الأدب حياتنا التي نعيش، والهواء الذي ينبغي أن نتنفس. أو هكذا خيل إلينا.

قال لنا العلامة الطاهر في أول صفحة من صفحات كتابه «النقد الأدبي» ما مؤداه: يمر عالم نبات في غابة فيرى ورقة صفراء فيقف عندها ليقول لك شيئًا عن الصبغة الخضراء التي جفت، وأشياء عن تأثير الضوء في هذه الصبغة، وهكذا. ويمر الأديب بالغابة نفسها، والورقة الصفراء نفسها، ويتأثر بما يرى فماذا سيقول؟ لا أتذكر الآن قطعة الرثاء المؤثرة التي ساقها، ولكنني أتذكر كيف استقر في أذهاننا - نحن الصبيان - مفهوم الأدب، وأتذكر أن منا من زعم لنفسه أنه أحب الأدب - وكان كاتب هذه السطور واحدًا من هؤلاء الزاعمين - وأنه يجب أن يربط مستقبله به، وهكذا.

وصار كتاب النقد الأدبي من الكتب التي لا ترمى حال الوصول إلى البيت كما يرمى سواه من الأعباء المدرسية.

إنه كتاب يعلمنا فضلاً عن الشعر، والقصة، والمسرحية، والمقالة، والزيات

و(موبسان) والجاحظ، و(سانت بيف) يُعلمنا هذه الطراوة في الأسلوب وهذه القدرة على تقديم المعلومات كما لو أنها معلومتنا نحن.

ولكن متى سترى الطاهر ؟

لابد من صَنْعَا وإن طال السفر.

والطريق إلى صنعاء الطاهر هو أن تكون طالبًا في قسم اللغة العربية من كلية الآداب، وهو أن تجد وتجتهد لتبلغ السنة الثانية من دراستك في القسم.

وألح والدي عليه رحمة الله واستمات في إلحاحه أن أنتمي إلى كلية الفقه أدرس فيها العربية وعلوم الدين - بعد أن رأى إلحاح ابنه على دراسة العربية - فكان من توفيق الله وحده أن رفض أحد رجال الدين المتزمتين قبولي في كلية الفقه لأسباب لا تتعلق بشيء اسمه دراسة أو مستوى دراسي.

وكان معنى ذلك أن أكون من طلاب الآداب، وأن أدرس على الدكتور الطاهر، وإذ وضعت قدمي على بابها الذي يؤديني إلى الطاهر والعربية وجدت أن الممر الذي يتصل به الباب يمكن أن يؤديني إلى قسم التأريخ، أو الآثار، أو الفلسفة وليس اللغة العربية وآدابها، لأن معدل الدرجات التي حزت عليها في (البكالوريا) تؤهلني لما هو أعلى من قسم العربية. ولم أكن أظن أن هنالك أمة تحتقر لغتها على هذه الصورة، فتربأ بمن تظن أن نتيجة امتحانه توحي بشيء من النباهة أن يدرس العربية وأن يتخصص فيها. ويسر الله تذليل تلك العقبة بفضل إصرار صاحب الحق الأعلى أن يرضى بما هو أدنى.

وكان ما أردت. فهذا هو قسم اللغة العربية.

ولم يكن من أساتذتي فيه الدكتور الطاهر، لأنه كان عليَّ أن أجد وأن أجتهد. وكان علي أن استعجل العمر - كما قلت - لكي أكون في رحاب الدكتور الطاهر.

وأتممت كل ذلك، وإذا بالطاهر بلحمه ودمه أمامنا يدرسنا مادة (منهج البحث

الأدبي)، وكان انطباعي الأول عنه طائفة من مشاعر متضاربة متنافرة، لعلها أقرب ما تكون إلى خيبة الأمل منها إلى شيء آخر، فقد رأيت الفقيد يتحدث وهو من الأناة في حديثه كأنه يتلجلج، ويقرر ما يراه وكأن في نفسه شيئاً مما قرر، ويقدم على الرأي وكأنه محجم عنه، وهكذا.

ولكن كان علينا مع هذا وذاك أن نفخر على زملائنا من الشُّعَب الدراسية الأخرى في قسمنا أن أستاذنا هو الدكتور الطاهر، وأن أساتذتهم من تلاميذه.

ويتخلى الانطباع الأول عن مكانه للإعجاب التام بالدقة في تقرير الرأي، وبالأناة في اختيار الكلمة المناسبة التي تنقل الرأي كما يريد له صاحبه، لا يزيد ولا ينقص، وبتقصي ما قيل وما يقال لغربلة المسألة.

حدث كل هذا ونحن في المحاضرة الثانية، أو الثالثة من محاضراته، وكأننا أدركنا أننا أمام أستاذ من طينة أخرى، لا يشبه من عرفنا من أساتذتنا الأجلاء. وبعبارة أخرى قرر النابهون منا أن يتعلموا منه شيئين: منهج البحث الأدبي، والدقة التي تكاد تكون وسواساً عنده.

أما كاتب هذه السطور فقد كان الفقيد - تغمده الله برحمته ورضوانه - قد ادخر له على غير انتظار منه درساً آخر لك أن تسميه ما شئت من تسميات، أما هو فلا يعرف من هذه التسمات إلا ما يفرق به بين الأب الأستاذ، والأستاذ. وإذا كان الأستاذ ممن يعلمك، فإن الأب الأستاذ ممن يعلمك فيوجه حياتك إذ يعلمك، وهكذا وجه حياتي العلامة الطاهر، كما وجه حيوات المئات من طلاب علمه، بحادثة أرجو ألا أُثقِلَ على الآخرين برواية شيء منها، فأقول: انعقد في بغداد مؤتمر الأدباء العرب، ومهرجان الشعر العربي في شهر نيسان (أبريل) من عام: ١٩٦٩م، وكان الأديب العراقي المرحوم بسيم الذويب قد أصدر سلسلة من كتيبات أسماها «شعراء المهرجان»، ينقد فيها الشعراء المجودين ممن يلقون قصائد فيه، وإذا ألقى الجواهري قصيدته في المهرجان التي مطلعها:

يا ابن الفراتين قد أصغى لك البلد زعمًا بأنك فيه الصادح الغرِدُ

كان لابد للذويب أن يخصص واحدًا من كتيباته لقصيدة الجواهري. وصدر الكتيب فعلاً، وإذا بي أجد فيه من التحامل على الجواهري وعلى قصيدته أكثر مما وجدته فيه من النقد، مما جعل دماء الشباب وتوصية الطاهر بالموضوعية في النقد تفوران برأسي، فأكتب إلى جريدة «النور» العراقية مقالاً أنقد فيه نقد الأستاذ المرحوم الذويب للقصيدة، فاستغرق ذلك المقال على ما أذكر الصفحة الثقافية من الجريدة بكاملها.

وكان نشر المقال مما يفرحني، ولكن الذي وجه حياتي بصورة مباشرة مرة، وغير مباشرة مرة أخرى هو ماصور لي الدكتور الطاهر - بعد إذ قرأ المقالة - من أمر مستقبلي ما صور، فوجه بذلك حياتي. وأرجو ألا تسألني بعد ذلك إن كان أصاب في التوجيه أم أخطأ فحسب الدليل الخريت أن يعين لك الاتجاه وليس عليه أن تضل فلا تصل.

وللدكتور الطاهر من روح العلم في إنصاف الأشياء مالا يتهيأ لسواه إلا نادرًا، فقد عرض وهو يدرسنا النقد الأدبي إلى حركة الشعر الحر في العالم، ثم عرج على الحركة عند العرب، فكان لا بد له أن يعرض لبدايتها في العراق، وإذ بدأ بها سرح هنيهة ثم قال : لو كانت الجامعة جامعة لا تلتزم بالأوراق التي تسميها شهادات الأساتذة، لكان سعدي يوسف - وسعدي من أبرز شعراء الحركة بعد المرحوم السياب - أولى بهذا الكرسي مني لنسمع رأيه ونناقشه.

وكان هذا درسًا آخر من الدروس العميقة التي يلقيها الدكتور الطاهر يعلمنا بها أن نأتي البيوت من أبوابها.

ودرس ثان تعلمناه من ملاحظته هو أن ما وقر في إذهاننا من أن الأدب لعبة، وأن الشعر نزوة ليس صحيحاً.

كان يريد أن يقول لنا بأوضح صورة، ولكن بجملة غير مباشرة: إن حركة الشعر قامت على فلسفة، وعلى رؤية يحسن بنا أن نسمعهما من بعض من يدعو إليها قبل

أن نحكم عليها.

هذا وقد بلغ الدكتور الطاهر من القرف في ثمانينيات هذا القرن بحركة الحداثة الشعرية بحيث كتب لي - وهو المتذوق المتذوّق - يوم كنت في الجزائر أنه يفكر أن يدعو إلى «الشعر الأدبي» (هكذا سماه)، يعني بذلك أن هذا الشعر الحديث بمقدار ما اقترب مما يريد ابتعد عن الذوق العربي فلم يعد يحرك فيه شيئًا.

وإن أنس لا أنس حديثًا تجاذبنا أطرافه - سعدي يوسف وأنا - فتعجب الشاعر الكبير سعدي من عدم إعجاب الطاهر بتجاربه في القصيدة الحديثة بعد ديوانه «الأخضر بن يوسف ومشاغله».

ولم يكن الدكتور الطاهر مؤهلاً أن يعجب بالتجريب في القصيدة إذ لم يعجب بالتجربة، ومن ذا يلوم عبدالقاهر الجرجاني على موازنته بين الجسر والجسر؟ ومن ذا الذي يلوم القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني وهو يريك أبا تمام في حالي كزازته، وطلاوته؟

وإذا لم يكن الطاهر ملومًا أن يكون عبدالقاهر بذوقه، وعلي بن عبدالعزيز الجرجاني في ثقافته وإنصافه.

وإذ ينصف الدكتور الطاهر الأشياء كان عليه أن ينصف أصحاب هذه الأشياء أعني المبدعين - وكانت شغله الشاغل في الإبداع القصة - وقد جرت عليه روح الإنصاف هذه من عدوات ضعاف المواهب ما جرت، فلم يضعف ولم يهن، حتى لكأنه لم يسمع بهذه العداوة، وأريد أن أذكر حادثة واحدة من هذه الحوادث، وهي أن صدرت للقاص العراقي يوسف الحيدري مجموعة قصصية تحت عنوان : «حين يجف البحر» فكتب الدكتور الطاهر مقالة في مجلة «الكلمة» التي كانت تصدر بمدينة النجف عنوانها: «وإذ يولد جيل» فما رأيت عاصفة شفوية هبت على أحد كما هبت على الفقيد الطاهر. وكانت هذه العاصفة قد هبت من القصاصين العراقيين الذين يعلنون عن أنفسهم بمناسبة وبدون مناسبة - ومصطلح إعلان الأديب عن نفسه من

مصطلحات الدكتور الطاهر التي يحتقرها ويحتقر أصحابها - أقول: هبت من القصاصين الذين كانوا يعلنون عن أنفسهم ويظنون أنهم مشهورون أكثر من يوسف الحيدري عاصفة على الفقيد الطاهر. أما الذي لم يعلنوه وهم يثيرون العاصفة على الدكتور الطاهر أنه كتب عن يوسف الحيدري ولم يكتب عنهم، لأنهم كانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم أن كتابة الدكتور الطاهر عن أي أحد منهم هي جواز المرور إلى عالم الأدب.

وسمعت منه ذات يوم ونحن نتحدث عن شرطه الذي كرره في معظم كتبه من أنه لابد للناقد لكي يكون ناقدًا أن يلم - على الأقل - بلغة أجنبية واحدة، أقول سمعت منه أنه يجب عليه أن يعدل رأيه بهذا الشرط. وكان قد غير رأيه في ضرورة عدم التمسك بهذا الشرط بعد أن صدر كتاب تلميذه الدكتور عبدالإله أحمد عن القصة العراقية، لأن الدكتور عبدالإله كتب كتابًا ممتازًا في تأريخ القصة العراقية على الرغم من أنه لا يعرف لغة أجنبية يقرأ بها أصول هذا الفن الغربي. هذا ولم أسمع من الفقيد أنه قال: إن عبد الإله من تلاميذه وإنما سمعت ذلك من الصديق العزيز عبدالإله نفسه.

وتحدثت عن روح الإنصاف هذه عنده، وسقت كل ما سقت عامدًا من شواهد في الأدب المعاصر، أريد من خلال ذلك أن أوحي إلى القارئ الذي لا يعرفُ مقدار الخسارة بفقيدنا أننا فقدنا واحدًا من أدبائنا المعاصرين فحسب، ولكن الخسارة أفدح، والمصيبة أعم.

لقد كان علي جواد الطاهر أمة في أمة.

ولأن هذه الأمة ما تزال أمة حية، فقد هيأ الله لها علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر يُعنى بمثل هذا الرجل؛ ولا يعرف الفضل إلا ذووه، ولو كان الله عز وجل قد هيأ للطاهر غير الجاسر لكان ذلك موضع عجب من إرادته التي لا ترد. أما والعلامة الجاسر يعنى بالعلامة الطاهر فلا عجب، ولا بعد، ولا قرب، لأن تلك هي طبيعة

الأشياء. ولا يعرف الفضل - كما قلت - إلا ذووه.

ويبقى للطاهر سره أن تحتفل به مجلة «العرب» الغراء وهي ما هي في حفظ تراث العرب، وتعتز بنتاجه بمقدار ما كانت تحتفل به «الآداب»، وهي ما هي في الحداثة والمعاصرة.

تلكم هي ثقافة الدكتور الطاهر، بل إنها الدكتور الطاهر نفسه. تقرأ له كتابه: «الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي» فتظنه لا يحسن غير أدب العصر السلجوقي شأنه في ذلك شأن مئات الدكاترة العرب الذين يتخصصون في موضوع فلا يبرحونه، وتقرأ له: «الابن وسبع قصص أخرى» فتظن أنه أديب لا يحسن إلا الفرنسية، أداه ذلك الإعجاب بقصص بعض الأدباء الفرنسيين أن يشرك في إعجابه نفرًا من أدباء العربية. ويغيب عمن لا يعرفه أنه لم يكن لا هذا ولا ذاك، وإنما كان الطاهر حلم أمة تريد أن تتقن حاضرها دون أن تعتبر هذا الحاضر مما يلغي كيانها وكينونتها. وتلك هي عظمة علي جواد الطاهر، وأرجو أن تتجاوز لي روحه الطاهرة - حين أوازن بينه وبين الدكتور طه حسين - فقد كان يرى عميد الأدب العربي في كتابه: «مستقبل الثقافة في مصر» ألا سبيل لنا لكي نتقدم إلا حين نسلك طريق أوربا لا لشيء إلا لِتَشَاطُئِنَا في البحر الأبيض المتوسط على حين كان علي جواد الطاهر وهو يدعونا أن نستفيد من حضارة الغرب يشترط علينا ألا نذوب فيها.

وأعود الآن أريد أن أتحدث عن جانبيه معًا وهما: جانب الإنصاف في شخصيته، هذا الإنصاف الذي جعله يكتب بإجلال عن العلماء الذين التقى بهم وتتلمذ لهم، والذين لم يتتلمذ لهم، وجانب هذا الجمع العجيب بين الثقافتين، والهضم الرائع لهما معا؛ حتى لتظن أنه أبو الحسن الأسواري - كما صوره الجاحظ - في تمكنه من لغتي عصره: العربية والفارسية.

فأما معرفة الفقيد الراحل بما هو من لغات عصره أعني بذلك: الفرنسية فلا يكادُ يجد من يبحث عنها كما هي عند الدكتور طه حسين والدكتور محمد مندور

وأضرابهما من الأساتذة الكبار شيئًا، ولا يكاد يجد لها أثرًا في كتاباته، وأما من يبحث عنها منهجًا واستفادة وعمقًا، ويكون كل ذلك مصبوغًا بطابع عربي هو طابع الفقيد الطاهر، فإنه ليجد ذلك في كل ما كتب، وألف، لأن الحضارة أية حضارة هي روح عنده وليست قشورًا. وهل أبلغ من أن يكون خريج (السوربون) – أيام كان سوربونًا، وتلميذ (شارل بلا) ثم لا يمنعه ذلك من أن يرى في أستاذ من أساتذته في المرحلة الثانوية الذين درسوه بمدينته مدينة الحلة أعني به الأستاذ المهنا مثلاً من الأمثلة في حياته حتى لتجده يقول عنه: (درسنا التاريخ القديم وكأنه عاش مع السومريين، وإذا قلنا هذه بابل، وهو يعرفها فما قولك في أثينة وإسبرطة؟ إنه عاش فيها دون شك ورأى الحضارة اليونانية عن كثب. ودرسنا اللغة العربية، وهنا لا نطيل فهو ابنها وأبوها، هو نحوي إن أردت النحو، وصرفي إن طلبت الصرف، ومؤرخ للأدب إن أردت تأريخ الأدب...) بل ويبلغ تقدير الطاهر لأستاذه القدير أن يصبح الدكتور علي جواد الطاهر العلامة الطاهر، ثم لا ينسيه ذلك محمد أحمد المهنا أستاذًا من أساتذته في الثانوية، وربما المتوسطة.

لقد كان الطاهر أمة في أمة، أجل، إنه كان وحده أمة في أمة شأنه في ذلك شأن القليل من علمائنا أطال الله في أعمار من بقي منهم وتغمد من اصطفاه منهم برحمته.

وأريد أن أرجع الآن إلى ما كنت فيه من شأن معرفته الفرنسية (وقد كان يتقن الإنكليزية أيضًا) فأقول : إنه لا يحق لي أن أشهد على فرنسيته التي يراد لها أن تشبه ما يتباهى به الآخرون، وحاشاه، حين يتباهون تباهيًا أجوف باللغة التي يعرفونها، فسأدع الشاعر خليل الخوري يتحدث عن الفقيد. وخليل الخوري من معرفة الفرنسية بحيث أنيط به تحرير مجلة «العراق اليوم» عشرين سنة أو أكثر أو أقل، وبحيث ترجم إلى العربية من الفرنسية شاعرًا من أصعب شعرائها لغة ومجازات بسبب حداثته الشعرية هو (آرثور رامبو) ولكن كل هذا لم يمنع الشاعر خليل الخوري أن يقول بعد أن راجع الفقيد الطاهر ترجمته كتاب (هنري ترويا) عن (تشيخوف): (... إنني

مدين، كثير الـدين، للشيخ العلامة علي جواد الطاهر، دكتورًا وانسانًا. فقـد تتبع في مراجعته الترجمة كـل كلمة وكل حرف فـي النصين، وكان لملاحظاته أثر كبيرفي تسديد هفوات كثيرة... كان في دقتـه أثر كبير في إرشادي إلى الأخطاء.. وإذا كان لي أن أضيف فما أجده على لساني الآونة أن الدكتور الطاهر كان مفاجأتي وغبطتي معًا. فـما كنت أعرفه عـنه كثيرًا، لـكن ما تمت [الأصل: لـكن اما تمت] لي معـرفته عنـه، عبر الاحتـكاك بهذه الـسيرة عن (تـشيخـوف) يقنعـني للمـرة الألف أن درب الكمال في المعرفة والتخصص تحتاج إلى من هم مثل الدكتور...).

أرأيت بـعد هذا شهـادة أرقى من هذه الـشهادة تقـال في رجل لا يعـلم كثيـر من الناس أنه يتقن اللغتين الفرنسية والإنكلـيزية، أما لماذا لا يعلمون فلأن اللغة الأجنبية لا تكون من أدواته في المعرفة حتى تتعلم الألفباء العربية، وحتى تكون في خدمتها.

أما إكبـاره للعلم والـعلماء فحسـبك منه كتـابه: «اساتذتي ومـقالات أخرى» وإذا كان من حقك أن تعد حـديثه فيه عن: مصطفى جواد وطه الـراوي، ومحمد مهدي البصير وفـاء؛ لأن هؤلاء من أساتذته الذين تلـمذ لهم فأجلهم فـلا أظن أن من حقك أن يطرد مقـياسك هذا فتعـد حديثه عن طه أحـمد إبراهيم، ومصـطفى عبداللـطيف السحـرتي، وحمد الجاسر، وسواهم وقد أدرج هؤلاء جمـيعـًا تحت باب أسـاتذته - ولم يكن تتلمذ لهم - من ذلك الباب نفسه.

إنَّ حديثه عن هؤلاء ضرب من إكبار العلماء، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان أثنى عليهم بما ليس فيهم، ولكنه قـال ما قال ولم يجرؤ أحد أن يسأل لماذا قال لأنه ما تزال - ولله الحمد - للـعلم حرمته، وثقله، ولأنه لـم يقل عنهم شيئـًا لـيس فيهم، وحاشاه أن يتزيـد مهما بلـغ إعجابه. ولك بـعد ذالك أن ترجع إلـى كتابه نفـسه فيغنـيك عن مطالبتي أن أفسر لك ما يبدو على أنه مـن ضربٌ من التأليف بين المتنـاقضات عنده، وإلا فمـاالذي يجمـع عندك بين الـسحرتي واهـتمامـه بالشعـر الحديث، وطه أحـمد إبراهيم وهـوسه بالنقد الأدبي عـند العرب هوسًا جعـل كل من كتب بعده فـي النقد عند الـعرب - كما قال الـطاهر وهو على حاق الحق - عيالاً عـليه، ما الذي يـجمع

هذين وسواهما ممن لم أذكر بالشيخ حمد الجاسر صاحب «العرب» ولن أقول لك شيئاً عما هو خلق له، لأنني لا أحب أن أنقل التمر إلى هجر، ولا العنب إلى الطائف.

أقول: ما الذي يجمع بين هذين وسواهما مع الشيخ حمد الجاسر؟

أيُّها المُنكِحُ الثريا سُهيلاً عَمْرَكَ الله كيف يلتقيانِ ؟!
هي (نجديَّةٌ) إذا ما استهلَّتْ وسهيلٌ إذا تبدى يماني !!

إن الذي يجمعهم أنهم من منزلٍ واحدٍ هو العلم الحق، وهو الإخلاص لهذا العلم أيًا كان منزعه، وإياك إيَّاك أن تصدق عمر بن أبي ربيعة المخزومي وتكذب علي بن الحاج جواد الطاهر، فلم يعرف عن ابن الحاج جواد الطاهر أنه كذب في حياته. وسترى بعد هذا من حديث صدقه ما دمعت له عيناي.

هذا إلى أن الدكتور الطاهر الذي رأيت من ثنائه الصادق على العلماء ما رأيت كتب إلي - وأنا في الجزائر - قبل أنَ تحيله جامعة بغداد على التقاعد وهو دون السن القانونية :

خزيتْ بغدادُ من بلدٍ كلُّ شيء فيه مقلوبُ

أقول كتب إليَّ وهو يضحك مما بلغته جامعة بغداد من تهاون في العلم فقال في رسالته المؤرخة في: ١٩٨٠/٣/٢٤م : (... أما طلبة (الماجستير) فقد تعدوا - والحمد لله - الخمسين، من الموضوعات التي سجلها طلبة (الماجستير) : (ابن يعيش في شرحه المفصل للزمخشري) ومن الموضوعات التي ستسجل: (البلاغة عند السيوطي) والحبل على الجرار، وقد اتفضل باقتراح موضوع: (البلاغة عند الصفدي) و (عبقرية شعر الموصل في القرن الحادي عشر) ... ولا نطيل والخير كل الخير فيما حصل ...).

لم يكن الدكتور الطاهر يحب الكذب لا أبيض ولا أسود، وسأروي له موقفين في

صدقه العجيب العجيب، احدهما خبرته بنفسي يوم اقترح علي عنوان رسالتي (للماجستير) عن: «الشعر في الكوفة منذ منتصف القرن الثاني حتى نهاية القرن الثالث للهجرة» وَوُفِّقتُ في كتابتها، وأجازني بطبعها فما راعني إلا أن أجد من يعرفني ومن لا يعرفني من زملائي يبلغني بأن الدكتور الطاهر قد جاء إلى الكلية بشكل خاص لعله يراني، فما أذكر أنني ارتعت كما ارتعْتُ ذلك اليوم. وكان لا بد لي – ارتعت أو لم أرتع – أن اتصل به هاتفيًا في بيته أرى الذي حزبه من الأمر. وإذا اتصلت به وأنا لا أكاد أملك صوتي قلقًا وهيبة واحترامًا إذا به كعادته من الأناة في الحديث يسألني :

– أين وصلت بطباعة رسالتك ؟

– أوشك على الانتهاء أستاذي الكريم، فلم يبق لي إلا جزءٌ من الملحق الذي أعرف فيه بالشعراء، وأسرد مصادر ترجمتهم.

– طيب، ولكن هنالك مشكلة أرجو أن تأخذها بحجمها.

– ياستار استر (هكذا قلت في نفسي)، وكان هو متمهلاً في الحديث كعادته، فأردف دون أن يبدو، علي أنني طلبت الستر :

– هذه المشكلة هي أنه رجعت إلى مجلة «العرب» صباح هذا اليوم ووجدت فيها مقالاً للشيخ حمد الجاسر عن محمد بن عبدالملك الأسدي نُشر قبل خمس سنوات، أليس هو صاحبك الذي أسميته الفقعسي ؟

– أظن أنه هو.

– هذه المسائل يامحمد لا تحل بـ (أظن) أعتقد أنه هو، فتعال الآن إلي في البيت لنرى.

ووجدت أن صاحب العلامة الجاسر صاحبي هو هو، وسرح الطاهر وأنا على أحر من الجمر أن يقول شيئًا، وبعد أخذٍ ورد عما إذا كنت استطيع إعادة طباعة الرسالة

أم لا، قال :

- إنك من دون شك قلت ما قلت عن محمد بن عبدالملك الأسدي - الفقعسي سمه ما شئت - هكذا قال - باجتهادك، ولكن الذي قاله الشيخ الجاسر قد أذيع قبلك، فصار صاحبك الفقعسي من حقه وليس من حقك، والآن لدي اقتراح، وسكت.

- يا الله قد جاء الفرج فعجّل به (هكذا كنت أقول في نفسي) أنتظر اقتراحه؛ فقال

- إنك في الملحق وقد انتهيت من ذكر هذا الأسدي - الفقعسي، وعليك الآن أن تعيد طباعته فتقول: (إن من مصادر ترجمته مجلة «العرب»، س١، ع١١، جمادى الأولى ١٣٨٧ - آب ١٩٦٧ من: ٩٩٩-١١٠٦، س٢، ع١ رجب ١٣٨٧ - تشرين الأول ١٩٦٧: ٩٥-٩٦ مقال بعنوان (الشاعر محمد بن عبدالملك الأسدي) للأستاذ حمد الجاسر). هذا أقل ما تفعل.

وفعلت ما قال، وإن لم يتح للناس أن يروا ما فعلت؛ لأن هذه الرسالة لم تطبع إلى الآن.

ويمكنك أن تسمي هذا أمانة علمية هي من أبرز ما يتصف به فقيدنا الراحل، ولكن أن يسرد لك كل ما قلته أمام لجنة المناقشة معترفًا بتقصيره - وحاشاه - أنه كان عليه من اليوم الأول أن ينبه الطالب إلى هذا، وأنه أشفق على الطالب أن يكلفه مبلغًا من المال في إعادة طباعة الرسالة، وهكذا، فذلك ما لا يوصف إلا بصفة واحدة هي الصدق.

هذا ولو كان أحد من أعضاء لجنة المناقشة الموقرين قد تنبه إلى شيء من هذا لكان من حقي وحقك أن نقول: إن الدكتور الطاهر الأستاذ - الأب رأى أن ابنه لم ينبت الريش على جناحيه فلا يحتمل الزغب الذي فيهما ما لا طاقة له به، فرأى أن يتحمل أعباء الطيران وحده، ولكن أحدًا لم يحاسبني على إغفالي الجاسر في كل الرسالة، ولا على ذكري إياه في الملحق فحسب دون سواه من صفحات الرسالة؟

وأحاديث صدق الطاهر الطاهر لا تنتهي. ولكنني وعدتك أن أروي من صدقه ما دمعت له عيناي، وما أراني وفيت بوعدي فدعني أروي لك أنه اتخذ الدموع في أيامه الأخيرة بعد أن ثقل عليه المرض حديثًا مع عواده، وكان عواده يظنون أنه لا

يعلم بطبيعة مرضه الخبيث، وأنه سيجيبهم حين يسألونه عن صحته أنه بخير، وأنه يرجو دعاءهم وهكذا، ولكن الطاهر لا يعرف الكذب فقد كتب إليّ - وكنت في ليبيا - في: ١٩٩٥/٧/٢٥ أي قبل وفاته بسنة وما يزيد على الشهرين يقول: .... (وتبقى بعد ذلك مخطوطات أخرى تمتد إلى العالم الآخر) وإنما ذكر المخطوطات لأنه كان تحدث إليّ عما ينتظر الطبع مما أريد أن أعرض إليه فيما بعد.

وهكذا اتخذ الدموع إجابة لعواده، يقول أحد تلاميذه، كما نشر في جريدة «الجمهورية» ١٩٩٦/١٠/١٢، أنه دخل عليه (فكانت تحيته قطرات من الدمع تحدرت على خديه ... ووصلت إلى أذني همهمة بأنه يردد أبياتاً من الشعر، فاقتربت من سريره، فسمعته يقرأ بلسان أثقلته الأدوية المخدرة شيئاً من أبيات مالك بن الريب التي رثى بها نفسه :

أقيما علَّي اليوم أو بعض ليلةٍ ... ولا تُعْجِلاني قد تبين ما بِيَا
وقُومَا إذا ما استُلَّ روحي فهيِّئَا ... لي السِّدرَ، والأكفان عند فنائيا
خُذَاني فَجُرَّاني ببردي إليكُما ... فقد كان قَبْلَ اليوم صَعْبًا قياديا

ولم يكمل الطاهر الطاهر أنه كان عطَّافًا إذا الخيل ... لأن ذلك لم يكن من شأنه وإنما كان من شأن ابن الريب وأمثاله من الفرسان، أما هو فكان فارساً من نوع آخر. ولكن الذي كان من شأنهما معاً عندي وعند سواي أن يقول ابن الريب قصيدته اليتيمة التي لا نجد أختاً لها في العربية ولا بد أنه كان سيكون لها - لو عاش - أخت وأخوات، وأن يموت الطاهر، ولكتبه إخوة لم تر النور؛ فقد كتب إليّ قبل وفاته بأربعة أشهر وأربعة أيام أعني يوم: ١٩٩٦/٦/٥ يقول : (وصدر لي في عام ١٩٩٥ أكثر من كتاب، ورجوت الناشرين أن يرسلوا إليك نسخاً منها ولكنهم لم يستجيبوا. وهذه هي الكتب :

١- «منهج البحث الأدبي»، ط٨، منقحة، عن الدار المتحدة للنشر، المبنى الاستثماري للجامعة الأردنية، ص.ب ٥٢٢٩ عمان - الجبيهة.

٢- «المرزوقي شارح الحماسة ناقدًا»، عن الدار نفسها.

٣- «محمد بن سلام وكتابه طبقات الشعراء»، عمان دار الفكر، ص.ب (١٨٣٥٢٠).

٤- «سليمان بن سليمان النبهاني شاعر من عصر النباهنة في عمان»، اللاذقية، دار حوار.

ويصدر لي من الدار المتحدة «وأنت تقرأ في ٩٣ كتابًا».

وعن الموسوعة الصغيرة: «مصادر صناعة الكتابة مصادر للنقد الأدبي».

ولي نحو من عشرة كتب مخطوطة لا أدري ماذا سيكون مصيرها ؟

وأنت .....

ولقد أزيدك على ما قال زيادة لا تخلو من فائدة، فأقول: إنه كتب إليَّ قبل أن يصدر كتابه عن محمد بن سلام الجمحي في: ١٩٩٥/٧/٢٥ يقول: (... أما أنا فلم يحل المرض دون متابعة العمل، ولعله زاد المتابعة حدة... ويصدر لي في عمان ... «محمد بن سلام وكتابه طبقات الشعراء»، وقد أضفت إليه بابًا في مناقشة الشيخ محمود شاكر، وأثبت بالبرهان القاطع تدخله في نصوص المخطوطة المحققة).

فإذا لم ينفعك في أن الفقيد أثبت بالبرهان القاطع أن الشيخ الجليل شاكر قد تدخل في كتاب ابن سلام، فقد ينفعك أن أقول: إنه ناقش الشيخ شاكر منذ مدة في تحقيقه «طبقات الشعراء» وظن الناس أن الجليلين: شاكر والطاهر قد فرغا مما كانا فيه، ولكن تشبث الطاهر بالحقيقة حتى بعد مرور كل هذه السنوات الطويلة عليها شيء لا يمكن أن ينتهي. ولعله ينفعك أن أقول: إن الموسوعة الصغيرة الذي ذكر أن كتابه عن «صناعة الكتابة مصدرًا من مصادر النقد» سيصدر في سلسلتها هو الذي أسسها، فما كان العراق ولا وزارة الثقافة فيه يعرفان شيئًا اسمه الموسوعة الصغيرة لولا أن رفع علي جواد الطاهر اقتراحًا بالأمر.

وكتب لي ولـده لبيد – وهو مهـندس هرب من مجاعـة الحصار العراقيـة في حياة أبيه إلى ليبيا – يقول في : ١٩٩٧/٣/١٧ : (.... الوالدة عكفت عـلى تجميع أوراق الوالـد، وقد تم حـصر مـخطـوطات لـستة عـشر كـتابًا ... وأنـت تعـرف مصـاعب الطبع...).

وأريد أن أقول الآن ولن أزيد: إننا مسؤولون أمام الـله وأمام أمتنا، وأمام التاريخ إذا ضاع ما كـتـب الطاهر: إنه كـتـب ما كتب لنا ولأمـتنا ولتاريخـنا، فهل سنحـترم هذا التاريخ؟

اللهم إني قد بلغت فاشهد.

اللهم ولا يكن علي جـواد الطاهر أهون على أمتنا عربًا ومسلمـين ممن أكرمنا بحق وبدون وجه حق. آمين.

بولندة – بوزنان في: ١٩٩٧/٥/٢٢ **محمد حسين الأعرجي**

كلمة وفاء!!

حسن البياتي–بغداد

كلـمة وفاء في تـأبين فقيـد الحركةالـثقافـية والفـكرية أستـاذي الجليـل الدكتور عـلي جواد الطاهر.

اذا مادعا الداعي عليا وجدتني أراع كما راع العجولَ مُهِيبُ

أجل، ياصفي كل امرئٍ، عرفك وان لحظة من لحظات الزمن أجـل، ياحبيب كل نبت من أغراسك السامقات النافحات طيبًا وحبًا..

أجَل،لسوف يـطول بنا الشجَنُ، ويـتواصل ذَريف الدمع، فـلقد كان رحيلـك عنا حدثا جَللاً، فقـدنا به الملاذ الآمنَ الأمين، الذي كنا نـأوي إلى ظله، فنجد الطـمأنينة والسلوان، فكمـا ألحّتْ علينا نائبات الزمان، وماكان أكـثرها وأمَرَّهَا! أمّا الآن فلمن أقول إذا تُلِمُّ مـلمّة–: أرِني برأيـك، أم إلى مَن أفْزَع؟ لَنْ أنسى مـادمتُ حيًا رعايـتك السامية لي، مُذْ كنت تلميذك الأثير في (دار المعلمين)، وحتى أيامك الأخيرة، وأنت

على سرير المرض اللئيم، الذي ابتليت به ابتلاءَ الكريم، فرحَت تُصارعه بصمت وإباء، وبروح هي أقوى من الداء، وأسمى من الألم، وأشدُّ من وقع البلاء.

كلاَّ إنه مستقرٌ فينا، نحن طلابك الأوفياء، ومستمرٌ عَبْرَ مسيرتنا الفكرية والثقافية مدى الأجيال والأجيال...

لسوفَ نظلُّ نحمل ذكراك العطرة النيِّرةَ في أفئدتنا ومحاجرنا، أيها القلم الشامخ، أيها الشاهد الشهيد، أيها الإنسان المتسامي عن كل ماينال من كرامة الإنسان، وتمس قِيَمَهُ النبيلة، سلام عليك ياناسخ الجهل والضلال بفكره الثاقب وعلمه الغزير، سلام على روحك الطاهرة أيها المُحَلِّق في سماوات كل وجْدانٍ حيٍّ مفعم بعرفان جميلك الجميل:

يميناً، سأبْقَى أحِنُّ إليك — حنينَ السُّرَاةِ أحِنُّ لضوءِ القمرْ
وفي الليلِ إمَّا طَواني الكَرى — رَأيتك: في حُلُم مستمرْ
تُطِلُّ عليَّ بقلب حنون — وبَسْمَةِ ودٍّ لِكل البشَرْ

هذا «المعجم» .. ومؤلفه

حمد الجاسر

لقد كان الأولَى أن أتحدث عن هذا الكتاب، الذي صدر منذ أكثر من عشر سنوات، حين صدوره، إلاّ أنني كنت أتوقع بأن يحدث صدوره صَدًى قويًا بين مثقفي البلاد التي خصص للحديث عن علمائها وأدبائها، ولكي أجد فيما يُكتب عنه ما أراه مكافئًا لما تضمنه من دراسة شاملة عميقة مستوفية، لا عن صلته بالموضوع الذي ألّف فيه، وهو الحديث عن مطبوعات هذه البلاد، كما يُفْهَم من عنوانه، بل بالتعمق في البحث في تاريخ مسير الثقافة والعلم من جميع الجوانب، في حقبة تَقِلُّ يسيراً عن نصف قرن من الزمان (١٣٤٤/١٣٩٠هـ) وأن يتولى الحديث عنه أساتذة وعلماء وأدباء أقدر مني، وأوسع اطلاعًا، من المتخصصين في أدبنا الحديث، من أساتيذ الجامعات وغيرهم، وتمضي السنون، ويصبح الكتاب أهم مصدر للمعنيين

بالتأليف في موضوعه للرجوع إليه، والاقتباس منه، والتعويل الكامل على ما فيه من معلومات عن أدباء البلاد، وعلمائها بصفة عامة، والمؤسف المحزن حقًا أن من بين هؤلاء الذين اتخذوا منه مرجعاً لهم- إن لم يكن كلهم- من حاول بقصد أو بغير قصد، أن يتجاهل أو يتناسى صاحب الفضل الأول الذي أمده بتلك المعلومات التي اتخذ منها أساسًا لما ألف.

لأدع ذالك الأمر مشيرًا إلى إلقاء نظرة موجزة على ذالك الكتاب، الذي أتمنى من صميم قلبي أن يجد من العناية في هذه البلاد ما ييسر لجميع القراء والباحثين الاطلاع عليه، مطبوعًا طباعة محققة ميسرة لهم، فقد كانت طبعته الأولى عزيزة المنال ككثير من الكتب التي تنشر خارج هذه البلاد، مع خلوه مما يحاذر منه مما قد يقع في بعض المؤلفات الأخرى.

لقد كان نشره في بلاد توشك أن تكون منقطعة الصلة بمن حولها في الفترات الأخيرة مما جعل من الصعب إن لم يكن من المستحيل لأي قارئ الحصول عليه.

لا أبالغ إذا قلت: إن هذا المؤلف يُعَدُّ أوثق المراجع، وأوفاها وأغناها بالمعلومات عن كل ما يتعلق بالحركة الفكرية الثقافية بصفة عامة في هذه البلاد في تلك الحقبة من الزمن، فلقد اتجه مؤلفه الأستاذ الجليل الدكتور علي جواد الطاهر منذ أن وَطِئَتْ قدماه أرض هذه البلاد في (٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٨٣هـ) للتدريس في كلية الآداب في جامعة الرياض (جامعة الملك سعود) وكان لا بد له من أن يلم بشؤون العلم الذي أسند إليه تدريسه وهو الأدب، ومعرفة حظ أبناء البلاد منه، فكان أن اطلع على بعض مؤلفاتهم (التي رآها شيئًا ذا بال وحركة جديرة بالاهتمام) فتكونت لديه رغبة في الكتابة عن هذا الأدب، وقد عُهد إليه تدريس الأدب الحديث، فأصبحت المسألة ليست مسألة رغبة، بل إنها مسؤولية، فرأى من العقل أن يبدأ بالبداية، والبداية تقتضي عملاً مكتبيًا منهجيًا ـ أي حصر الآثار الصادرة من دواوين وغيرها ـ فبدأ، ولكن إلى أين ينتهي؟ وليس هناك من مكان يجمعها، إذَنْ ليس عليه إلاّ الجد والصبر، وتلقف ما يقع أمام عينيه من ديوان أو قصة أو مقالات، إلاّ أن ذلك

لا يكفي للدراسة، فلا بد من الإلمام بالتاريخ والفقه، وكل علم من العلوم ، فليس الأدب منقطعاً عما حوله من تلك العلوم، من هنا اتجه للبحث والتنقيب عن كل ما صدر في هذه البلاد من المطبوعات، وهذا أمر سهل، لو كانت تلك المؤلفات معدودة، أوأنها في أماكن محدودة.

لقد سار في عمله الجاد المضني حتى خيل إليه أنه في نهاية السنة الخامسة من وجوده في هذه البلاد - وهي السنة الأخيرة - قد بلغ نحو تسعين في المئة مما كان يريد، أو هكذا تخيل، إنه لم يبلغ ما بلغ إلاّ بالجهد والتعب والعرق والتراب، وأشياء أخرى كما يقول، وحقًا ما يقول، ولو لم يكن العمل في أول أمره حبًا وهواية، ثم أصبح بعد ذلك رسالة وواجبًا لما تحمل ماتحمل.

لم يكتف الدكتور الطاهر بما قام به من عمل مضن، في خلال تلك الحقبة المحدودة من الزمن، بل استمر بعد أن عاد إلى بغداد بحيث أمضى بعمله هذا مدة تزيد على عشرين عامًا في مواصلة البحث والتنقيب، والاستزادة من خلال ما يطلع عليه من مؤلفات منشورة، ومن صحف، ومن صلاته بكثير من مثقفي هذه البلاد وما أكثرهم، فاستمر يضيف وينقح ويكمل ويُقوّم ما استطاع تَقْوِيمه، حتى أصبح هذا الكتاب معجمًا وافيًا ودائرة معارف شاملة عن كل ما يتعلق بموضوعه.

لأدع للقارئ الكريم السير مع المؤلف الجليل في مقدمات كتابه وفي خاتمته، فسيرتاح لمرافقته، لما يجد في حديثه من متعة تبعث على الاسترسال والاستزادة، ويدرك جانبًا مما عاناه المؤلف من جهد ومشقة وعناء، ولكن ذلك عاد بأجل العوائد، وأجزل الفوائد، على ثقافة أهل هذه البلاد، كما يتضح هذا من خلال هذا «المعجم» الحافل الشامل.

ليس من المبالغة القول: بأن كتاب «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» هو أوْفَى وأشْمَل وأوْسَع ما أُلّف عن الحركة الفكرية الثقافية العلمية من جميع جوانبها، في هذه البلاد في ذلك الزمن، الذي خصص للحديث عنه، وأنه أوْضَح وأجْلَى صورة لواقع تلك الحركة، مع التجرد التام عن كل ما لا يمت إلى

الحقيقة المتوخاة فيما يحويه من آراء.

ولعل من أمتع ما يحويه هذا «المعجم» ـ وكل مافيه ممتع ومفيد ـ تلك اللمحات الفكرية المبثوثة في ثنايا التراجم، مما كان يتوقع المؤلف لعدد ممن درس بعض انتاجهم من أدباء هذه البلاد وتلك لمحات صادرة عن عمق وإدراك، وأثناء دراسة ذلك الإنتاج، أبعد ما تكون عن التأثر بما سوى ذلك من مجاملة أو مواربة.

وفي آخر «المعجم» عرض مركز لخلاصة ما توصل إليه المؤلف من خلال دراسته الطويلة الشاقة للخطوط العريضة للمسيرة الأدبية في هذه البلاد، ومما كان يتوقعه ويتوخاه أثناء استمرارها في سيرها.

ويحس القارئ لتلك اللمحات الفكرية أن المؤلف يعايش أهل هذه البلاد، لا بفكره ودراسته فحَسْبُ، بل بروحه وإحساسه، وما يتصف به من صدق وإخلاص ومحبة لهم.

إن انتشار هذا «المعجم» في أوسع مجال بين المعنيين بتاريخ الحركة الفكرية الثقافية بصفة عامة، لهو من الأمور التي ينبغي أن يهتم بها جميع من يريد لتلك الحركة أن تجد من النمو والرسوخ والقوة ما هي جديرة به، لإعزاز هذه البلاد ورفعة شأنها.

تلك كلمة أعددتها للنشر بعد أن تلقيت كتابين من مؤلفه الدكتور الطاهر، الأول بتاريخ ١٢ محرم ١٤١٧هـ جاء فيه: (وقد أجبت عل رسالتكم بتاريخ ١٤١٦/١١/٢١هـ في حينها راجيًا أن تكون قد وصلت، واستثارت الرسالة المباركة أملاً بعيدَ المدَى بإعادة طبع «معجم المطبوعات العربية» فكتبت مرحبًا شاكرًا) وفي الكتاب الثاني بتاريخ ٢٣ صفر ١٤١٧هـ: (ويجب أن تثبت ملاحظات الشيخ حمد الجاسر في مكانها كاملة من صلب الكتاب[1] وحسب الكتاب فخرًا أن يتولى الإشراف ولو من بعيد، على إعادة طبعه، من هو أعلم من مؤلفه).

ولكن سرعان ما فُجِعْت بعد وصول ذينك الكتابين بنبأ وفاته يوم ٢٧ جمادى

(١) كان ذلك لو تم طبع الكتاب وعرضه على مؤلفه، أمّا وقد توفي فقد رأيت من الأمانة العلمية وحفاظاً على أصل المؤلف وضع ما أضفته في هوامش الكتاب.

الأولى ١٤١٧هـ منشورًا في جريدة «الشرق الأوسط».

ومع أنني قد وطنت النفس على تلقي كثير من الأنباء المفزعة، بكثرة من فقدت من الأحبة والأصدقاء، مؤمنًا بقضاء الله وقدره ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ متوقعًا أن بقاءه في هذه الحياة قد آذن بالانتهاء، إذ سبق أن كتب إليّ الصديق الكريم الدكتور حاتم صالح الضامن - وهو أحد تلاميذه الخُلّص - بنبإ إصابته بالسرطان، وأنه كان يخفي ذلك، ثم كتب إليّ بتاريخ ١ ذي القعدة سنة ١٤١٥هـ يقول: وَثَمّةَ أمر أسرُّكَ به بصدد صحة أستاذي الدكتور الطاهر، فقد اكتشف قبل نحو شهر أن مرضًا يأكل جسمه، وينتشر من غير أن يعلم، وهو ليس على ما يرام، وكنت عنده قبل يومين للاطمئنان عليه، فأعلمني بأنه سيسافر إلى الأردن خلال هذا الأسبوع، لإجراء عملية في الكبد والاثني عَشَرِي، وإن كان لا فائدة في هذه العملية !! ولكن...) وأبدى الدكتور الضامن تأثره لما حدث لأستاذه الذي كان أحد تلامذته في كلية الآداب قبل ثمانية وثلاثين عامًا.

ثم اتصلت بالصديق الدكتور يحيى الجبوري في (عَمّان) ليطمئنَني عما سيجري له، فكتب إليّ بتاريخ ١٤ محرم ١٤١٦هـ بما نصه: (جاء الدكتور علي جواد الطاهر من بغداد إلى عَمّان، بعد أن أُخبِر باشتباه مرض خبيث في القولون والكبد، وبمساعٍ من الإخوة الفضلاء، الذين يعرفون للناس مكانتهم، أُدْخِل (مدينة الحسين الطبية) وأجريت له عملية جراحية في القولون، وبقيت أشياء في الكَبد، رأى الأطباء علاجها بالحُقَن، وقد تماثل للشفاء بحمد الله، وقد ودعته يوم الجمعة ١١ محرم ١٤١٦هـ مغادرًا إلى بغداد، نسأل الله له الشفاء التام). انتهى.

لقد اتضح أن الداء قد عبث في القولون مما استدعى استئصال جزء منه، وانتشر إلى أجزاء أخرى في بدنه، منها الكبد، التي كان تأثيره فيها قويًا، بحيث لا ينفع فيها العلاج، فاكتفى باستعمال بعض العقاقير.

وقد اتصلت به بعد ذلك محاولاً أن أتحسس برفق، وبدون إثارة أي شعور لديه

بتأثر صحته، فكان يجيبني باقتضاب: إنني بصحة حسنة، وأمارس الكتابة، والقراءة كغيري، وهو في كل ذلك يغالب ما يحس به مما يقض مضجعه، وينغص حياته، من ألم ذلك الداء العضال، وكأنه لم يصب بأي داء، وفي النهاية عجز عن مغالبة المرض، فكانت الفجيعة العامة الشاملة بوفاته ـ رحمه الله ـ.

كانت صلتي بالدكتور الطاهر، قد توطدت خلال ما يقرب من ثلاثين عامًا، حيث اجتمعت به في بيروت عام ١٣٩٠هـ، كما اجتمعت به لِمَامًا في الرياض فترات قصيرة قبل ذلك، فقد قدم هذه المدينة في شهر جمادي الأولى من عام ١٣٨٣هـ، وكنت قد غادرتها في شهر رمضان سنة ١٣٨١هـ مضطرًا لا مختارًا، حيث كان الاستقرار في بيروت، إذ أنشأت مجلة «العرب» سنة ١٣٨٦هـ.

لقد أدركت منذ الوهلة الأولى من اجتماعي بالدكتور الطاهر ـ رحمه الله ـ أنني أمام طراز آخر من العلماء الذين سعدت بمعرفتهم ممن امتاز بسماحة الخلق، ورحابة الصدر وشدة التواضع، بحيث يحس جليسه أنه يحادث لِدَةً من لداته لا يفضله بأية ميزة، مع ما اتصف به من سعة المعرفة في جميع جوانب الثقافة، والترفع عن كل ما يخدش كرامة العلم من قول أو فعل.

لقد تكرر اللقاء في أوقات قصيرة كنت أتمنى لو طالت واستمرت، غير أن أيام السرور قصار، ولكن صلتي به لم تنقطع، منذ ذلك العهد، فقد اتصلت المكاتبة بيننا، وبدأ يتحف قراء «العرب» بأبحاثه المفيدة، التي نشر أولها في جزء رجب سنة ١٣٩٠هـ (أيلول ١٩٧٠م) في السنة الخامسة، وهو نقد ضاف لمطبوعة «دار اليمامة» لكتاب «المحمدون من الشعراء» للقفطي، تحقيق الأستاذ حسن معمري، ومراجعتي، ووقع ذلك النقد في ٣٣ صفحة، ثم اتبعه ببحث آخر عن تحقيق النصوص بعنوان (نمط من التحقيق) في جزء ذي الحجة ١٣٩٠هـ (شباط ١٩٧١م) واسترسل بعد ذلك بنشر مواد «معجم المطبوعات» ابتداءً من جزء محرم سنة ١٣٩١هـ (آذار ١٩٧١م) حتى الجزء الصادر في رجب ١٤٠٤هـ (نيسان ١٩٨٤م) وكانت خاتمته دراسة ممتعة شاملة بعنوان (حياتنا الأدبية الحديثة) في (٦١) صفحة.

وكان مع ذلك يمد قراء «العرب» بأبحاث وكتابات غير مواد «المعجم» واستمر ـ رحمه الله ـ على هذا، حتى كان آخر ما نشر له منها عن (كتب وفوائد) في جزء ذي القعدة سنة ١٤١٧هـ ـ أي بعد وفاته بنحو خمسة شهور ـ.

وإن المرء ليعجب بما يتمتع به من القوة في الاتجاه للدراسة والبحث، وإلقاء المحاضرات، ومواصلة كثير من المجلات في هذه البلاد وغيرها بكتاباته الثقافية وخاصة في سنيه الأخيرة بعد أن أنهك الداء العضال جسمه.

نسأل الله للمؤلف الرحمة وفسيح الجنان، ونرجو أن يتحقق لهذه الموسوعة ما هي جديرة به من اهتمام القراء والنقاد، ونحن على يقين من أنه لا شيء يسعد المؤلف والناشر كالاستفادة من الكتاب وتصحيح ما فيه من أخطاء أينما وجدت.

هذا العراقي الكبير!!

سعد الجاسم[(١)]

وهاهي مخالب الموت تختطف منا الناقد الكبير، علي جواد الطاهر، مثلما اختطفت ـ من قبل ـ العشرات من مبدعينا العراقيين الكبار، ولأن علي جواد الطاهر: إنسان كبير، وناقد كبير، وموسوعي كبير، وأولاً وأخيراً فهو عراقي كبير، ولأن الطاهر غال على (الحِلّة)، لأنه واحد من أبنائها الأوفياء، وواحد من المحبين لها (أجل وإني لمحب للحلة!!) هذه عبارته التي قالها للأستاذ حميد المطبعي ـ ومن أجل هذا فقد سعينا أنا وزملائي أدباء بابل وكتابها في اتحادنا لإقامة حفل تأبيني يليق بالطاهر أبدًا، نحن هنا لا نريد أن نرثي الطاهر، لأن منجزه النقدي واللغوي والتاريخ الأدبي والتحقيقي وكيانه الإبداعي، وما تركه من إرْثٍ لم ير النور، أكبر من المراثي والبكائيات السود، التي يسطرها أو يشهق بها البعضُ من الرثائين والبكائين، ولكننا هنا نتمنى أن نقول عنه كلمة بيضاء، ونستذكره استذكارًا بوسع المحبة والإجلال والنقاء الخالص.

(١) جريدة «العراق» ١٢ رجب ١٤١٧هـ (٢٣/١١/١٩٩٦م).

علي جواد الطاهر: هو حقًا كما قيل عنه: ولد في أكثر من عَقْل، عَقْل الأدب، وعقل النقد، وعقل تحقيق الكتب، وعقل المقالة، وعقل البحث الاجتماعي، وعقل اللغة، وهو قافلة وحده، كَتَب قافلةً وحده، ومشى قافلة وحده، وهذه القافلة غالية في أدبنا.

علي جواد الطاهر: ناقد حقيقي، يحترم قلمه وأفكاره، ورؤاه وتوجهاته الكتابية التي اتخذت من الانطباعية منهجًا لها، وهذا ما عبرت عنه مؤلفاته: «في القصص العراقي المعاصر»، «مقالات في النقد الأدبي»، «وراء الأفق الأدبي»، «من حديث القصة والمسرحية»، «من يَفْرك الصّدأ» أو «حسين مردان» «الباب الضيق» ... و... إلخ،ولا نبالغ إذا ما قلنا بأن الطاهر قد استطاع أن يؤسس له انطباعية خاصة، أفصحت عن ذائقة صقلتها تجاربهُ الكتابية العميقة.

علي جواد الطاهر: نموذج للباحث، والمثقف الرصين، الذي ضحى كثيرًا من أجل أصالة أدبه وإبداعه، اللذَيْن نالا اهتمام وثناء الأوساط الثقافية والجامعية: الأكاديمية من أقاصي المشرق حتى نهايات المغرب، وكذلك الندوات والحلقات والمؤتمرات التي شارك فيها في مختلف بلدان العالم.

علي جواد الطاهر: لانرثيك، بل نُمَجدُ فيك كبرياءً عراقيًا متفردًا، وروحًا مبدعة وصافية، مثل آفاقك الطاهرة، آفاق الإبداع الحقيقي.

في رحيل الدكتور الطاهر

نادية غازي جبر[1]

أزِفَ الموعد، وكنت أنتَ الهدف هذه المرة، لتخلفَ فينا برحيلك وجعًا مُرًا طالما ذقته، وأنت ترى الموت يختطف منك الأهْلَ والصحب والأساتذة والأدباء، فهذا مصطفى جواد، وذاك البصير، وهذا تلميذك عبد الجبار عباس، وذاك أستاذك المُهنّا، وهُنَا المخزومي، وطه باقر، وهناك السيّاب، ونزار سليم، وطه حسين.. والركب

(١) جريدة «العراق» ١٢ رجب ١٤١٧هـ (٢٣/١١/١٩٩٦م).

مستمرّ. وكنت ترثيهم بكلمات حزينة ملتاعة، لا تبكي الإنسان فيهم قيمةً مندثرةً لا تتكرر ثانية، ولا تُعَوّضُ فحسْبُ، ولكنك بكيت فيهم علماً مضى، وجهداً مثابراً اغتيل قبل الأوان، ومشاريع بحوث، وكتب تغني الساحة العلمية لو امتد بهم العمر، ولسان حالك يردد مع الشاعر:

أضَاعُونِي وأيُّ فَتًى أضَاعـــــوا

توجّعْتَ للمخزومي إذْ ضَيّعْنَاه، وبكَيْتَ لمصطفى جواد إذْ لم نمنحه حقّه، ونَدَبْتَ عبد الجبار (فتى النقد كما أسْمَيْتَه) وقد رحل مبكرًا، وفي داخله كثير لم يكتبه ولم ينشره بعد، وآلمك السيّابُ عبقريةً شعريةً، شعرية جار الزمن عليها فاختطفها بقسوة منا.. وآخر وآخر... ولكنك لم تستسلم في كلماتك التأبينية لمشاعر الحزن والبكاء النبيلة فحسبْ فسرعان ما تنتفض، وتفيق على الواقع، فَتُنَبِّهُ على ضرورة أن تُجْمَعَ أشعارُ هذا، وتُطْبَعَ كتاباتُ الثاني، وتُلَمّ أشتاتُ مقالات الآخر، مُحذراً وموجهاً ومستنهضاً الجهودَ لإنجاز تلك المهمات، أما ذَلّلْتَ العقبات، وأسْرَعْتَ بالاشتراك في جمع مقالات عبد الجبار عباس الأخيرة بعد رحيله، فكان كتاب «الحبكة المنغمة» ؟ أو لَمْ تلتفت قبلا إلى قصص محمود أحمد السيد المبعثرة فاستعنت بجهود خَيِّرة لجمعها في كتاب مستقلٍ يفيد منه الباحث والطالب؟.

ياأيها العالم العامل الذي لا تُنْسيه النكبة والمصيبة والمرض العِلْمَ وشؤونَهُ من تحقيق ونشر، وتأليف ومناقشة وحوار. قيل لنا: ظَلّ يصارع المرض ويكابر، فما استغربنا ذلك. وقيل لنا: ظَلّ يواصل العمل خلال تلك الفترة العصيبة قريبًا من مكتبته ومنضدته وأوراقه وبين طلابه. وما أكثرهم!! - فما تعجبنا لذلك، جادة وناضجة واعية لا تهرول، مسرعة التقليعات والموضات الأدبية والنقدية، ولأننا فقدنا بموتك ناقداً وضع في مقدمة مهامه الجسيمة رعايةَ النّشْءِ الجديد، والطاقات الواعدة، واحتضانَها وتوجيهها، ووضعها على المسار الصحيح، في إطار نظرة تؤمن بتواصل الأجيال عبر الزمن.

ولكننا لن نَقِف عند حدود التأبين، وحده، فما زالت أمامنا مسؤوليات مختلفة، نناشد الجهاتِ المعنية لتنفيذها، وبها قد نوفيك بعض حقك:

١ ـ جمع نتاجاته في مجموعة كاملة لأعماله، على اختلافها في الترجمة والنقد، والتحقيق والتأليف، تطبع وتنشر بإشراف نخبة من العلماء والأساتذة.

٢ ـ دراسة نتاجه الإبداعي، دراسة دقيقة، تحلل خصائص أسلوبه ومزاياه.

٣ ـ دراسة كتاباته النقدية، ورصد مَذْهَبِه فيها، بالوقوف على القضايا، والظواهر التي عالجها ودرسها.

٤ ـ جمع ما تبقّى متناثرًا من مقالاته في الصحف والمجلات، في كتب نحفظها من الضياع.

٥ ـ اطلاق اسم (الطاهر) على إحدى القاعات الدراسية، في واحدة من جامعاتنا التي حاضر ودرس فيها.

وبعد فإنّ عزاءَنا إذْ تموت الأشجارُ واقفةً أنّ ثِمارها الناضجةَ المتدلية باقيةٌ خالدة.

تحية من مسافر إلى مسافر

يحيى الجبوري

فجعت الأوساط الأدبية والعلمية بوفاة الدكتور علي جواد الطاهر، الأستاذ السابق بجامعة بغداد، والدكتور الطاهر علم من أعلام الثقافة العربية وأديب من أدبائها البارزين، فقد أعطى ـ على مدى نصف قرن ـ ، عطاءً ثرًا متميزًا من علمه وأدبه، وتخرج على يديه جيل من الأدباء والباحثين الذين يعرفون علمه وأدبه وفضله.

لم تكن وفاة الدكتور الطاهر مفاجأة لإخوانه ومحبيه وطلابه، فقد كان منذ عامين قد ابتِلي بمرض عُضَال، وعولج في بغداد، ثم قدم العام الماضي إلى عَمّان، وحفّ به زملاؤه وطلابه، وأدخل مستشفى الحسين الطبية، وأجريت له الفحوص الطبية، وأجريت له كذلك عملية كبيرة، ومكث شهرًا مشمولاً برعاية وكرم المملكة

الهاشمية، فقد كان ضيفًا عليها، وتماثل للشفاء، وبقيت بقايا في الكبد، شملها المرض الخبيث، وقد عجز عنه الطب، فأعطي العلاج، وعاد إلى بغداد، وبقي يواصل عطاءه الفكريّ، وكتاباته الغنية، فصدرت له في هذه الفترة كتب في عَمّان وبيروت، ومقالات في الصحف والمجلات العربية، وما زالت مقالاته المتسلسلة (كتب وفوائد) تصدر في مجلة «العرب» السعودية مجلة الأستاذ حمد الجاسر، ولكن المرض الخبيث ظل ينتشر، وأنهك الجسم الضعيف، وإن لم يستطع أن ينهك الإرادة القوية، والإيمان القوي برحمة الله، وقبل أيام أذاعت الصحف والإذاعات نبأ وفاة الدكتور الطاهر الذي أسلم الروح إلى بارئها، وانتهت بذلك قصةُ الجسم الضعيف، وبقي وسيبقى علمٌ وفكر وأدبُ وفضلُ الطاهر، وسيبقى دائمًا العطاء المثمر، والغرس النامي الذي بذره ورعاه وحسنّه وهذّبه، فأينع وأثمر، وسيبقى مثمرًا يانعًا ما دام هناك علم ينشر، وجيل يقرأ، وطلاب أوفياء.

ولد علي جواد الطاهر في مدينة الحلة (بابل) حوالي سنة ١٩٢٤م ونشأ فيها وشبّ، وبدأ حياته قارئاً نَهِمًا منذ كان طالبًا في مدارس الحلة المتوسطة والثانوية، وزادت قراءاته، ونضج تفكيره حين التحق بدار المعلمين العالية في بغداد سنة ١٩٤١م، ثم تخرج فيها متفوقًا سنة ١٩٤٥م، وقد أهله تفوقه أن يُرْسَلَ في بعثة إلى القاهرة (جامعة فؤاد) سنة ١٩٤٨م.

ثم إلى باريس والتحق بـ (السربون)، وأتقن الفرنسية، واطلع على آداب الغرب، ومناهج البحث لديهم، وعاد سنة ١٩٥٤م متسلحًا بالعلم، وبذخيرة وافرة من المشاريع العلمية، وعُين مدرسًا في دار المعلمين العالية، الكلية التي تخرج فيها، وكان فيها صفوة نادرة من العلماء والأدباء، وكان الطاهر مُحبًا ووفيًا لأساتذته الذين درّسوه في المدارس الثانوية أو في دار المعلمين العالية، وكان على صلة حميمة بهم، وظل طيلة حياته يذكرهم بالخير، ويروي عنهم علمهم وأخبارهم، وقد رثى من مات رثاء حزينًا باكيًا، وقد رأيته وهو يلقي كلمة في رثاء أستاذه محمد مهدي البصير. فلما وصل إلى ساعة وفاته خنقته العبرة فبكى، وبكى معه الحاضرون، ولم يستطع

مواصلة الكلام إلا بعد جهد ودموع، وقد توّج هذا الوفاء والحب لأساتذته أن أصدر عنهم كتابًا بعنوان: «أساتذتي ومقالات أخرى» (صدر في بغداد سنة ١٩٨٧م)، ومن هؤلاء الأساتذة الذين كتب عنهم: مصطفى جواد، ومحمد مهدي البصير، وطه الراوي، ومحمد أحمد المهنّا، ولم يقتصر وفاء الطاهر على أساتذته وزملائه من العراقيين، بل شمل أساتذة وأدباءً وكتّابًا من البلاد العربية، الذين يعرفهم، وله بهم صلات مباشرة، أو الذين قرأ لهم وأعجب بهم، وأحَبَّ إنصاف مالم ينصف منهم، فقد كتب عن: طه حسين، محمود السعران، ومحمد غنيمي هلال، وحمد الجاسر، ومحمد صقر خفاجة، ولطفي السيد، ومصطفى السحرتي، وطه أحمد إبراهيم، وكتابته عن هؤلاء وغيرهم فيها إعجاب، وإنصاف وحث على إنصاف أولئك الذين غُمط حقّهُم، ولم يصنفهم قومهم، وهو لا يمل التنويه بهم، والإشادة بالرائع من مؤلفاتهم، وذكر الفضل لهم، ومن صور هذه الإشادة بهم قوله في الأستاذ طه إبراهيم:طه أحمد إبراهيم أستاذي الكريم في كتابه الفذ «تاريخ النقد الأدبي عند العرب» قرأته ودرسته، وأقرأته ودرّسته، ولم أمَلّ يومًا من الإشادة بعلمه، والإحالة على منهجه، والاقتداء بلغته والدعوة إلى ذكره، ولم أنل شرف التلمذة على المؤلف، فوجدت بعض العزاء في كتابه «أساتذتي ومقالات أخرى» ص ١٤٣.

ومضى الطاهر يدرس طلابه في دار المعلمين العالية جامعًا بين المنهج العربي التليد، والمنهج الأوروبي الطريف، يحث طلابه على القراءة والبحث والتتبع، وكان درسه شَيِّقًا وعاصفًا، يقيمه على المحاجّة والتساؤل، والنقد وتلاقح الآراء، والطاهر ناقد بطبعه، يحب إثارة الطالب، وأن يعصف بذهنه ليتسائل، ويستفهم ويفهم، ويوازن وينقد، ويصل إلى الحقيقة عارفًا متيقنًا، وكان الطاهر مولعاً بالبحث وبمنهجه، وقد حاول أن يُوَصِّلَ لمنهج البحث، ويدخله في الدراسة الجامعية. وحين ذهب إلى جامعة الرياض سنة ١٩٦٣م وجد الفرصة سانحة هناك لتثبيت مادة منهج البحث، فواصل تدريسه والكتابة فيه، ثم عاد إلى بغداد سنة ١٩٦٨م وأُتيحت الفرصةُ لتخصيص مادة دراسية باسم (منهج البحث)، ويؤلف الطاهر سنة ١٩٧٠م كتاباً يحمل اسم «منهج

البحث الأدبي»، وقد قوبل هذا الكتاب بكثير من الترحاب وكثير من الجفاء أيضًا، لأن هذا الدرس لم يكن مألوفًا، في الجامعات، ولم يلق القبولَ لدى الأساتذة الذين لم يألفوا البحث وفق منهج قويم، وأحبّ الطاهرُ هذا الدرس، وواصل العمل فيه، وصار هذا المنهج مقبولاً من كثرة الباحثين، وأفادت منه أجيال من طلبة الدراسات العليا في العراق، وفي غيره من الأقطار العربية، وطبع الكتاب وما زال يطبع، وبلغت طبعاته أكثر من عشر طبعات، وعلى كثرة ما ألّف في هذا الموضوع فقد بقي كتاب الطاهر يلقى الإقبال، لأنه جمع بين الفكرة والمنهج وأصوله وتاريخه وطريقة الكتابة فيه، من بداية التفكير في الموضوع حتى الانتهاء منه مطبوعًا بصورته النهائية.

عُرِف الطاهر بتتبعه وصلاته الوثيقة بالأدباء والباحثين والمثقفين من مختلف اتجاهاتهم ومشاربهم، وكان يُعنى أشدّ العناية بمن يتوسَّمُ فيهم الموهبةَ والإقبال على الدرس، ويرعى هذه المواهب، ويعقد صداقات أدبية، ويقدم نصحًا ومشورة، ومعلومة علمية وأدبية عما صدر ويصدر من كتب وأبحاث وتعليقات. وكان الطاهر - على غير ما عهدنا لدى الآخرين - يفرح إذا صدر بحث أو كتاب فيه أصالة وعلم، أو يَنُمُّ عن براعة وموهبة، وكان ينوه بهذه الأعمال، ويتحدث عنها في مجالسه، ويكتب عنها في الصحف والمجلات، حتى لو كانت هذه الأبحاث لطلابه الناشئين أو لأدباء صغار، وبسبب من هذه الروح المحِبَّة للبحث والعلم والكتاب كانت صلتي بالطاهر، بدأت هذه الصلة سنة ١٩٧٠م وكنت آنذاك مدرسًا في كلية الآداب، وقد عدت حديثًا من مكة المكرمة معارًا في كليتي التربية والشريعة، وكنت أسمع عن الطاهر وأقرأ له منذ كنت مدرسًا في الثانوية، ولما قدمت كتابي: «لبيد بن ربيعة العامري» إلى جامعة بغداد للتعضيد والنشر كان الخبير هو الطاهر، وقد جرت بيننا أحاديثُ حول الأدب والكتب والنشر، وقد أبدى إعجابه الشديد بالكتاب ومنهجه وأسلوبه، وكان الطاهر معجبًا بالشاعر لبيد، وقد درّس معلقته وشعره لطلبة الدراسات العليا، وبلغ به حبُ لبيد أنْ سَمّى ابنه الأوسط (لبيدًا) وسَمّى ابنه الأصغر (أربد) وأربد بن قيس هو أخو لبيد لأمه، وقد كثرت بيننا اللقاءات والأحاديث، حول

الكتب والبحث، وهو على عهده دائمًا يقدم المعلومات والفوائد عن الكتب والمخطوطات وعما كُتب ويُكتب، وما صدر ويصدر، وكان يعلق ويسدد ويشجع، ويفرح كلما صدر لي كتاب أو بحث، وقد توثقت أواصر الصداقة والمودة، وعرض عليّ الاشتراك في تحقيق ديوان الطغرائي، وكان قد قطع شوطًا فيه، والكتاب كبير، ونسخه المخطوطة كثيرة، وفرحت بهذا العرض وأنجزنا الكتاب، وقد ذكر في مقدمة الكتاب قصة هذا التعاون والإنجاز.

وبقي الطاهر يقدم عطاءه الثرّ في جامعة بغداد، وفي الجامعات العربية، أستاذًا زائرًا، ومحاضراً ومراسلاً، وافترقنا ولم نفترق، افترقنا حيث عملت في جامعة قطر، ثم جامعة قار يونس في بنغازي، ثم جامعة آل البيت في الأردن، ولكن الصلة بقيت موصولة بالمراسلة، وتهادي الكتب، ولم يتوقف عن تقديم الفوائد العلمية عن المخطوطات والكتب، واقتراح الموضوعات التي يودُّ أن أكتب فيها، وكان آخرها لقاء لنا في عمّان في العام الماضي حين جاء للعلاج من مرضه العضال.

لقد ظل الطاهر حتى لحظاته الأخيرة قارئًا دؤوبًا لا يعرف الكلل والملل في أحلك الظروف وأقسى الأحوال، وأذكر أنه أصيب سنة ١٩٧٢م بآلام في فقرات العنق، وكان يغمى عليه إذا جلس، فاضطر أن يلازم الفراش ويبقى مضطجعًا، فكان وهو في هذه الحال يقرأ، ولما تماثل للشفاء نُصِح بأن تبقى رقبته مستقيمة دون انحناء، ولا بد له من القراءة والكتابة، ولا بد أن يبقى العنق منتصبًا، فعمل لنفسه آلة خشبية يُسْنَدُ إليها الكتابَ أو الورق، تشبه طاولة المهندسين أو رسامي الخوارط، وكان بهذه الوسِيلة يقرأ ويكتب ويبقى عنقه مستقيمًا.

لقد ترك الطاهر ثروة كبيرة من المقالات والكتب، فأما المقالات التي نشرها في المجلات فليس إلى حصرها والوقوف عليها من سبيل في هذه العجالة، لبعد تناولها وتفرقها في مجلات وصحف العراق والسعودية ولبنان وسورية والأردن وغيرها، وأما الكتب التي ألفها وقد طبعت، فقد وقفت على ثلاثين كتاباً، هي:

[سرد الدكتور يحيي أسماءها- كما وردت عن الطاهر نفسه، ملحقة بأخر كتابه].

رحم الله الأستاذ الفاضل الصديق الوفيّ، والمعلم البرّ الصادق الدكتور علي جواد الطاهر، فقد تركنا في دار الفناء إلى دار البقاء، وسيبقى معنا في قلوبنا وعقولنا، ببقاء آثاره ومحامده، رحم الله أبا رائد فقد ترك فراغًا هيهات أن يُسَدّ، وإني أعَزِي نفسي به أولا، وأُعَزِي أسرته وأصدقاءه وطلابه، فقد كان علمًا فذًا من أعلام الثقافة العربية أعطى ما لم يعطه غيره من غير بهرج أو ضجيج، وإننا لنلتمس الصبرَ والسلوان والعزاء بما عَزّى به علي بن أبي طالب قومًا عن ميت مات لهم فقال: «إن هذا الأمر ليس لكم بَدأ، ولا إليكم انتهى، وقد كان صاحبكم يسافر، فَعُدُّوهُ في بعض أسفاره، فإن قدم عليكم، وإلا قدمتم عليه». والحمد لله على ما أعطى وعلى ما أخذ، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

أستاذي علي جواد الطاهر

هاني عباس الجراح (1)

أن تكتب عن شخص (ما) في حياته، فذلك أمر معروف ومفروغ منه، ولكن أن تكتب عنه بعد رحيله، فتلك قضية لا تتأتّى للجميع، لصعوبة ترتيب الأفكار الهاربة، والألفاظ القلقة، مع النفس الوالهة لهذا الخطب الجلل، أقول ذلك وأنا أكتب في وداع أستاذي الدكتور علي جواد الطاهر وقد كان بين أظهرنا بابتسامته المشرقة، وحنانه الأبويّ الكريم، وعاطفته المتقدة.

قلت: أستاذي، على الرغم من عدم تلمذتي على يديه، كما هو المدلول القاهر للكلمة، وكما هو في الواقع العملي، إذ لم ألتق به على مقاعد الدراسة، وطلابه يعدون بآلاف في العراق والرياض والجزائر و... و... والذين أصبح بعضهم أساتذة يحملون الشهادات هنا.. وهناك، لقد تتلمذت على يدي الطاهر من جانب آخر،

(1) جريدة «العراق» ١٤١٧/٧/١٢ (١٩٩٦/١١/٢٣م).

كان ذلك عن طريق المراسلة، وإبداء الرأي، والسؤال والجواب، حتى إذْ عُقِد اتحاد الأدباء المركزي بالتعاون مع فرعه في بابل حفلاً تكريميًا له في خواتيم عام ١٩٩٤م رأيت الطاهر عيانًا وصافحته، وألقيت بحثًا عنوانه (علم التحقيق عند الدكتور علي جواد الطاهر)، وإذْ ذاك وجدته مبتسمًا في الصف الأول من القاعة، كأنه يوافق على ما جئت به في بحثي ذاك، كان ذلك هو اللقاء الأول! ثم كانت المفاجأة بعد عام واحد في نهاية عام ١٩٩٥م، إذ بعث إليّ رسالة بيد أحد طلابه الكرام- وما أكثرهم- وفيها قلدني فضلاً لن أنساه في عمري، فيها اقترح عليّ أن أكون مشاركًا له في تأليف كتاب بعنوان «نشر الشعر وتحقيقه في العراق»، ومعه بعض الجذاذات للعمل، على أن أكمله وأتمه، وفيها قال: (لك أن تعتبرها هدية، ولك أن تجعلني مشاركًا)، وفي ذلك قمة التواضع، ونكران الذات، وكان لا بد من لقاءات تالية معه! وإذْ بدأتُ العمل ـ بعد الرهبة الأولى ـ لم أزر الطاهر مباشرة، بل كنت أريد أن أنجز شيئًا وإن طال الوقت، حبًا في تكامله وجودته، حتى إذا ما زرته في بيته، وفي المرات الأربع الوحيدة، كان يسألني عن الكتاب، ومراحل إنجازه، حتى اطمأنّ إلى عملي فيه هز رأسه وابتسم، وفي ذهنه ومخيلته أنه سيراه مطبوعًا، منتظرًا فائدته للباحثين والقراء.

وإذا تحدثت الأخبار عن حب الجاحظ للكتب والأسفار، فأشهد أن الطاهر لم يكن يقل عنه حبًا أو شغفًا بها، فكنت إذا ما حملت شيئًا منها في الطريق إليه سألني عنها، وعن أسمائها ولا أنسى حبه لمجلة «العرب» لصاحبها الشيخ العلامة حمد الجاسر، فكنت أستعير أعدادها ومجلداتها منه، وكانت نظراته تلاحقها، خوفًا من ضياعها، حتى إذا أعدتُها إليه اطمانّ، وكم حدثني عن صاحبها العلامة الجاسر، وصداقته له، وكذلك فعل الجاسر معي!.

كان يفرح إذا أخبرته بالرسائل التي كانت تصلني من طلابه وأصدقائه، وهي قليلة، وفي الوقت نفسه كنت أجده متألمًا من قلة وسائل النشر في العراق، حتى اضطر إلى إرسال بعض كتبه إلى الخارج، على ما في ذلك من صعوبة تصحيح

أخطائها المطبعية، وما أكثرها، وبعد أن أخلّ (اتحاد الأدباء) بقراراته التي أصدرها في حفل تكريمه في الحلة، ومنها طبع كتبه المخطوطة!!!.

لم أره يتعالى في كلامه أو يترفع في كتاباته ورسائله، حتى إنه لم يكن يذكر لقبه العلمي، فأنت تراه في هذا وذاك الصديق المخلص، والناصح الأمين، والمربي الفاضل، خُلُقًا وعلمًا وأناة. كانت زيارتي الأخيرة إليه قبل وفاته، عطر الله جدثه - باثنى عشر يومًا، وقد هشّ وبشّ لما أحضرتُ إليه مخطوطة الكتاب، وقد انتهيت منه، لكنه أحس والعلل تصطلح على جسمه بدنو أجله، واكتفى بأن وقع - بعد جُهْد - على ورقة أملانيها إلى (دار الشؤون الثقافية العامة) للمساعدة في نشر هذا الكتاب، ولم أكد أخرج من عنده حتى لمحت ابتسامة مشرقة تبدو على وجهه المتعب، أدركت من فورها بما يعتمل في قلبه من رضا وحبور.

وبعد فإن الطاهر باقٍ بذكره ومآثره، لأن (الذكر للإنسان عمر ثان)، كما يقول شوقي، وأن المرء يفنى والثناء يدوم، كما قالت العرب، وأن روحه الطاهرة تطوف حول محبيه ومريديه، و(كل نفس ذائقة الموت)، وسلام عليه في الدنيا والآخرة.

علي جواد الطاهر

عبد الكريم راضي جعفر

(١)

بعينين مدورتين
وأنف غزا الشاربين
يختفي في غبار الكتب
ماالذي–إذن–صيّر الشعر ثلجا؟
والمفازة حقلا،
والحقل طلعاً نضيدا

والندى رِقّةَ ألقُبّرة؟

(٢)

في القيظ الفائت
لم يشربْ ماء
أو يمسح بعماصه الجفن-.
الضجة المورقة في الجبين
في القيظ الذي يجيء
أوْمأ الشيخ بالنظرات إلى خيمة الهمس
أوْمَا إلى لفحة في المرايا
وشهقة في الضحى.
ثم أوْدَعَ في النار بعض الصدى
من يفتح ألم الجرح دمي؟
ويلوّحُ لي بمنديل أبيض..من؟
نغم الشيخ صوته في الضحى
مرة..وامّحى

(٣)

في الحديقة.
ورق النهر. وعشب الكتاب
في الحديقة

نبضُ نخلة، ووجه عذاب
في الحديقة، يزحف الرماد الأبيض ليرسم
الجسد الغضّ أوِ الوردة المُمْرِعَة

(٤)

أنْبَأه شتاءُ هذا العام
أنه يموت:
فأيقظ القلب. وضمخ السلام بالسلام

(٥)

في أعوامك السبعين
قلتُ لك في صيف قائظ:
الندى سريع التبخر

(٦)

هكذا اذن، هو، وأنا، وأنت، وأنتِ.
وأنتم وهم. أصبحنا خِفَافا
ولكن بِثِقَلِ حَجَرٍ كريم.

علي جوّاد الطاهر

منصور الحازمي[1]

نعى إلينا قبل أسابيع الصديق محمد رضا نصر الله، أستاذه الكبير علي جواد الطاهر، ونصر الله وَفِيّ لأساتذته وأصدقائه ومحبيه، أما الطاهر المرحوم فهو قِمّةٌ

(١) جريدة «الرياض» عدد ١٠٣٩٨ في ١٤١٧/٨/٢هـ.

القمم في جميع الخصال الحميدة، وقد بهرنا منذ زمن طويل بسماحة نفسه، وتواضعه الجمّ وأخلاقه النبيلة، كما بهرنا بصرامته العلمية، وانقطاعه للعمل الأكاديمي الجادّ، وزهده في الضجيج والأضواء، كان هو والمرحوم مهدي المخزومي صِنْوَيْنِ، رأيناهما لأول مرة بقسم اللغة العربية ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ـ نحن الجيل الأول، المتخرج ذلك العام من بريطانيا، المخزومي يرأس القسم، وهو نحوي كوفي، والطاهر أستاذ للأدب والنقد، وهو سربوني متفتح، ولكن على دراسة واسعة بالتراث، كيف لا، ورسالته للدكتوراه هي عن «الشعر العربي في العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي» كما أن له «منهج البحث في المثل السائر» و«محمد بن سلام وطبقات الشعراء» إلى جانب تحقيقاته لبعض الدواوين مثل «ديوان الطغرائي» و «ديوان الحُزَيْمي».

لم يغلق الدكتور الطاهر نفسه على التراث، كما يفعل بعض المنغلقين، بل كان أكثر التصاقًا بعصره، شديد الاهتمام بتطور المعرفة وتجددها، حريصًا على نقل ما يبهره من آثار الآداب الغربية، وهكذا رأينا كتابه الضخم «مقدمة في النقد الأدبي» وكتابه الصغير المفيد «الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي» كما رأينا ترجماته لبعض القصص الفرنسي، واهتمامه بالفن القصصي في العراق، ومنهج البحث الأدبي، إلى جانب اهتمامه الدائم بأصول التربية، وما جدّ فيها من نظريات ومذاهب.

عاش الدكتور علي جواد الطاهر بيننا بجامعة الرياض ـ خمس سنوات ـ من سنة ١٣٨٣هـ إلى سنة ١٣٨٨هـ (١٩٦٣/١٩٦٨م) تخمرت في ذهنه خلالها فكرة معجمه العظيم، عن المطبوعات في المملكة العربية السعودية، وهو أول معجم في بلادنا يتتبع الحركة العلمية والثقافية منذ بداياتها في هذا العصر حتى الزمن الحاضر، وأساس الفكرة شعور الطاهر بضرورة إفراد الأدب السعودي بمقرر خاص يدرسه طلاب قسم اللغة العربية، بكلية الآداب، للطلاع على أدب بلادهم، كما اطلعوا على آداب مصر والعراق والشام، فليس من المعقول أن نعرف عن الآخرين أكثر مما نعرفه عن أنفسنا، ولكنه حين يهمّ بالتنفيذ، ويبحث عن المظان لا يجد ما يروى

الغلّة، فأكثر ما كتب في ذلك الوقت عن الأدب السعودي لا يعدو المحاولات الأولية، التي لا تتجاوز النصوص القليلة والأحكام العامة، لا بُدّ إذَنْ من عملٍ تأسيسي أولي، يحصر المصادر والمراجع، لا في الأدب وحده، بل وفي كافة المظاهر الفكرية والثقافية، التي تعين على تمثله واستيعابه، ومن هنا بدأت رحلة الطاهر الطويلة والمضنية، في جمع مادة المعجم من الأشخاص، ومن المكتبات العامة والخاصة والباعة، وما يقتضي ذلك كله من الإنفاق، وتكوين العلاقات، والسير والترحال. ولم يكن أستاذنا الطاهر مكتبيًا (ببليوجرافيًا)، محترفًا، بل كان أديبًا ناقدًا باحثًا في الدرجة الأولى، ومن هنا تميز معجمه بروح الأديب، وحصافة الناقد، ورصانة الباحث المدقق، لم يكن معجميًا، فهرسيًا يكتفي برصد العناوين والمداخل، بل كان باحثًا ضافيًا في ثقافة بلادنا وأدبها وفكرها، مليئًا بالتحليل والوقفات الذكية، والآراء الخاصة، ومقدمات الكتاب وخواتيمه تُكَوِّنُ في حد ذاتها كتابًا مستقلاً يقول الطاهر: إن المعجم الذي أعِدّهُ ليس معجمًا مكتبيًا، ولهذا فإني لم أوزعه أبوابًا على طريقة (ديوي)، ولم أكتف بالجفاف المكتبي، إن المعجم الذي أعِدّهُ (بدل عوض) عن بحث أدبي فكري ثقافي، إنه وسيلة بيد من يتصدّى للبحث، تزوده بأكبر ما يمكن من المعلومات ومصادر المعلومات.

واهتمام المرحوم ببلادنا قديم لم تُمْلِه الظروف أو الصدف - شأن معظم المتعاقدين - وإلاّ فمن اهتم من إخواننا العرب بالغَزاوي أو البليهد أو عبد القدوس الأنصاري، أما الطاهر فقد كان مشتركًا في مجلة «المنهل» منذ كان طالبًا في بغداد، وكان يتابع على البعد كل ما يجري على الساحة الأدبية في بلادنا، وكان زميلاً لبعض الرعيل الأول من أدبائنا، حين كان يدرس في جامعة القاهرة ومنهم المرحوم علي حسن غسال، ولم يقتصر اهتمام الطاهر على بلادنا فحسب، بل كان مَعْنيًا بكل دول الخليج، كما يتضح ذلك من كتيبه المنشور في «الموسوعة الصغيرة» بعنوان «عن الكتاب الأدبي في الخليج العربي» الذي تحدث فيه عن التاريخ الأدبي والثقافي لكل دولة من دول المنطقة - العراق - البصرة، الكويت، السعودية، المنطقة الشرقية،

البحرين، قطر، الإمارات العربية المتحدة، عُمَان، الأهوار (الأهواز، أو عربستان أو خوزستان) والطاهر يؤكد على عمق الصلات التاريخية بين هذه المناطق المطلة على الخليج منذ أقدم الأزمان، كما يؤكد على عروبتها ووحدتها، ويدحض افتراءات الإيرانيين وأطماعهم في المنطقة.

لقد كان الطاهر عربيًا، خالص العروبة من غير تعصب، له في بلادنا محبون، وتلاميذ كُثُرٌ، ومن أبرز أصدقائه الخلص أستاذنا الجليل علامة الجزيرة حمد الجاسر الذي فتح له صدر مجلته «العرب» ليسهم فيها بأبحاثه وأفكاره، وقد نشر فيها معجمه عن المطبوعات العربية مُنَجّماً، واستغرق ذلك عدة سنوات، وكان الجاسر على صلة وثيقة به إلى حين وفاته، ومن تلاميذ الطاهر الأوفياء الدكتور الجُنَيد (الساعاتي) الذي كان يراسله ويساعده في جمع مادته العلمية، ويستكتبه لمجلته المشهورة «عالم الكتب» وقد جمعت بين التلميذ واستاذه هواية واحدة، هي التصنيف المكتبي، أو العمل المعجمي، التي أقبل عليها الأستاذ بحكم الحاجة، وأقبل عليها التلميذ بحكم التخصص، ومن أوائل تلاميذه الذين استعان بهم في عمل المعجم الأستاذان عبد الله الغُلَيقة وعبد الله العَمِيل، ومن تلاميذه أيضاً كل من محمد حسن بَاكَلا وفؤاد سندي، ويعقوب إسحاق، وعبد العزيز الهِلاَبِي، وهناك الكثيرون من الأدباء السعوديين الذين يعرفهم الطاهر حقّ المعرفة، وكان على علاقة حميمة بالعديد منهم.

ورغم بُعْدِ الطاهر عن المملكة بعد إقامته الأولى، فقد كان شديد القرب منها بعواطفه واهتماماته، علاوة على الصلات المستمرة بالأحبة والأصدقاء، وقد كان نَجْمَ الحفل، رغم غيابه في مهرجان الشعر العربي لدول الخليج، الذي انعقد في مدينة الرياض في الفترة من ١٥ ـ ١٤٠٨/٦/٢٢هـ الموافق ١٩٨٨/٢/١٠م، إذ قدم ورقة مهمة للمهرجان بعنوان (المختار من شعر الخليج العربي في العصر الحديث، فكرة ومنهج)، ولم تمكنه ظروفه من الحضور آنذاك، فقرأتُ الورقة نيابةً عنه، وكانت لافتة للنظر بما حوته من أفكار وآراء، نالت التقدير والإعجاب من الجميع، إذْ يدعو فيها

الطاهر إلى إصدار كتاب، يضم مجموعة مختارة من شعر أقطار الخليج، تكون بمثابة تعريف وتقديم لأدباء الخليج، تسهم في التقارب بينهم، ولتكون أولى الخطوات في سبيل الوحدة المنشودة، إنْ على مستوى هذه الدول، أو على مستوى العالم العربي، ويستشهد الطاهر بكتب المختارات المعروفة في التراث العربي مثل «حماسة أبي تمام» و «حماسة البحتري» و «مختارات ابن الشَّجَري» و «مختارات الخالديَّين».. إلخ، ولم تنقطع المختارات حتى في العصر الحديث، كمختارات البارودي، ومحمد صبري وأحمد عبيد، بالإضافة إلى المختارات التي أُلِّفَتْ على مستوى الأقطار العربية، ومنها مختارات الصبّان، وابن إدريس، وخالد سعود الزيد، ومحمد حسن عبد الله، وليس العرب بِدْعًا بين الشعوب في عمل المختارات، فقد كان الغَرْب ولا يزالُ من أكثر أقطار العالم اهتمامًا بالمختارات، خدمة للجمهور القارئ، وإشاعة للثقافة والذوق، وتقريباً بين الأجيال، وبعد أنْ بَيَّنَ الدكتور الطاهر أهَمِيَّةَ هذا المشروع الخليجي، قام بتوضيح المنهج الذي يمكن أن يتبع في عمل هذه المختارات.

لقد أشادت النشرة اليومية «رسالة المهرجان» بورقة الدكتور علي جواد الطاهر، وجاء في توصيات المهرجان:

(ثالثاً): يوصي المنتدون بتبني اقتراح الأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر، بإعداد كتاب يشتمل على مختارات شعرية من أدب هذه المنطقة).

وكانت نشرة المهرجان قد ذكرت في عددها الثالث بأن صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد قد تفضّل مشكوراً بتبنّي ذلك العمل المقترح.

أرجو أن يكون في اللمحات التي قدمناها عن أستاذنا المرحوم علي جواد الطاهر ما يكفي للتعريف، أو التذكير بذلك العَلَم الكبير، الذي أفنى حياته في البحث والتدريس، والكشف والتنقيب، والعمل النافع لطلاب العلم والمعرفة، في صمت وتجرُّد، وتواضع، وإنكار للذات، وكان لبلادنا من جهوده النصيب الأوفى، ولا سيما في سفره الرائع «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» الذي لم

يؤلَّف مثله حتى الآن لا في دقَّته واستيعابه، ولا في نظراته اللماحة الذكية، وحريٌّ بنا ألاّ نقف عند الرثاء أو التابين بل أن نتبع ذلك ـ وهو الأهم ـ بما يثبت وفاءنا وعرفاننا بالجميل، وتقديرنا لكل عمل نبيل. وأظن أن الأخ محمد رضا نصر الله كان سبّاقًا في اقتراح بعض مايمكن عمله في هذه المناسبة ـ وهو السبّاق دومًا إلى توثيق صلاتنا الثقافية بالآخرين –ولكن الباب لا يزال مفتوحًا للمزيد من الأفكار والمقترحات.. ونحن نتوجه هنا إلى أمير الثقافة في بلادنا فيصل بن فهد، الرئيس العام لرعاية الشباب، كي يشمل برعايته المعهودة بعض الأفكار البنّاءة التي يتقدم بها أصدقاء الفقيد ومحبُّوه، وقد يكون من هذه الأفكار إصدار كتاب في ذكرى الأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر، أو إصدار «الحماسة الخليجية»–المختارات ـ التي سبق أن اقترحها المرحوم، كما بينّا سابقًا، وربما كان في إعادة طباعة المعجم ما يُرضي معظم المريدين والمتحمسين. إننا في حاجة ماسّة إلى إرساء تقاليد ثقافية في بلادنا، على غرار تلك التقاليد العظيمة التي طالما أشَدْنَا بها في تراثنا القديم، ولعلّ عصرنا الحاضر قد أطلعنا على الكثير من الجديد والمفيد، الذي لم يكن معروفًا في العصور الماضية، ومهمتنا أن نسعى إلى الحكمة أينما كانت، وأن نوصلها في أرضنا الطيبة.

والله من وراء القصد.

أبا رائد!

هادي الحمداني

وعَدْتُكَ أنْ أرثِيكَ لو أخلفَ الوعدُ ... وأطبقَ لي من قَبْلِ أن يُطْبِقَ اللحدُ

وما أخْلَفَتْ فيكَ المنَايا وَعيدَهَا ... وماماتَ فردٌ كي يعيشَ بها فردُ

نَموتُ على ما قدَّر اللهُ عمرَنا ... وإنَّ قضاءَ اللهِ ليسَ لهُ رَدُّ

وتَقْسُو قُبيلَ الموتِ علّةُ موتِنَا ... فَنَغْدُوْ (كأنَّ الموتَ في فَمِنَا شهد)

وتُغرِي تفاهَاتُ الحَياةِ بقاءَنَا ... فَلاَ المالُ يُجْدِيْنَا ولاينفَعُ الوُلْدُ

تقاعدتَ كي ترتاحَ من وَطْأةِ الفَنا ... وتَلْقَى بفيْءِ الدارِ ماظَلَّلَ السعدُ

ووطّنْتَ مَسْرَى النَّفسِ في ظلِّ بيتِها ... وقد أجْهِدتَ حينًا، وذاكَ لها عهد

ولكــنْ وأنّى أنْ تَرَى فيــك راحــة ... ويُغْرِيك في إِلْفٍ من الـكتُب النَّقْدُ

وكلُّ كتابٍ بين عَيْنَيْك (مـصحَّف) ... وكـل مقـال فـي بدايتـه (الحمـد)

ولـم تدْرِ فـي الـدنيـا سـوى مارأيتَه ... فبيـنَك والـدنيـا ولـذاتِها سـدُّ

يَفِرُّ إليـك الـقَاصـدون أشـاكـلاً ... ففـي زورة شيبٌ وفـي زورة مـرد

وأنت أبـوهــم وابـنــهـم وأخُوهــمُ ... وأنـت لـهـم فـي كـل نـاشـئـة جَدّ

لك اللهُ تُعطي النـاسَ قدرَ عُقُولـها ... وقلبُك فـي شتّى مـداراتِهم جَلـد

يعـودون مِلْءِ الـنفس أمْنًا وراحـةً ... وفـيِ كـل نـفَسٍ فـي تَعَلُّلِهــا بُعْد

وفـيِ كلِّ كـفٍّ منـهُم خَفُّ مصـدرٌ ... يروحُ وفي بعض الأحايِين لايغدو

تـوزَّعْتَ قــلْبًا فـيـــهُم ومــراجعًا ... فأنْتَ لـهم فـي كـل نـابِضَة رِفْدُ

فمن ذا لـهم من بَعدك اليومَ مَوْئلٌ؟ ... ومن ذا لهم قَصْد وقـد رحلَ القَصَدُ

مـرِضـتَ وكـان الداء يَشتَدُّ غيلـةً ... وتَشْتَدُّ والـصـبـر المـبَرحُ يـشتَدُّ

نَعــــودُك تَلْقَانَا أقــــلَّ تَصبُّرًا ... فنحن انتَهَيْنا والردى لـم يَحِنْ بَعْدُ

تحاوِلُ جــهـدًا أن تُدارِيَ بِنَا الأسَى ... ولـكـنْ كـثير من معـانـاتـه جَهْدُ

وإنْ هـو خَافَ إن تـتَسـتَّر عــارضٌ ... فـلـيس بخـاف في تغـضينِه الجِلْدُ

وعينَاك والـثغرُ المتَمتِمُ فـي الـلّقـا ... وعـند الـوداع المُرّ فـي لونـه الخَدُّ

تـذوبُ بـأيْدِيْـنـا حَيـارَى ومَاعَسَى ... إذَا فـتّتْ في الجـانحَيْنِ لكـم كَبْدُ

علـى هـولـه مـا ذاقتْ عنـاء ومُرَّةً ... يُفتّتُ مـن ثقلَيْهَما الحـجرُ الـصَّلْدَ

مَسِيــرةُ عُمْرٍ وَاكَبْتَ عِزَّ مَجْدهــا ... فــواكَبْهـا فــي كــلِّ مُرْتَحَلٍ مَجْدُ

(ابـا رائـد)، والـذكـريـات أليـمـة ... يقـاسمهـا في حلوهـا المر والشـهد

فيـاليـت لاكـانـت هنـاك حـلاوة ... ولاكان من بعـث الفجيعة والفـقد

ولاكـان لي فـيهـن طيـف ابتسامـة ... ولادمـعـة حـارت بــهـا أعـين رُمـد

لأقرب مـن خمسين عـامًا صحبتـها ... ومازلـن مابين الضـلوع لـها حـشد

بدأت ووخـط الشيب لاح بـعـارض ... بـروح عـليـهـا مــن تـوثـبـهـا شـد

ونفسٍ عـليـهـا مـن وقـارك هـيـبـة ... علـى ثقـة مـاكان ينـقصها الجِدُّ

ودرسٍ لـهذا الـيـوم لـم أنس نـصـه ... ولاغـاب عنـي مايصـوبه (النـقـد)

(أصالة رأي) يرحم الله شاعرًا ... شدا قبل ألف لم يزل بيننا يشدو
لقد كانت الأذنان تُصغي لرائع ... من القول والعينان أجهدها الرصد
وكنت تَشُد الفكر حينًا لفكرة ... وحينًا ترانا قد يطيش بنا الرشد
فلم ندر أيٌّ منكما كان شاعرًا ... وأي بيان يستطاب به الورد
ظللت على هذا تثقف انفسًا ... وتفتح للأجيال ماغيركم سدوا
تزيل عن الموتى غبار تنكر ... فلولاك كادوا أن يواريهم الجحدُ
بعثتهُمُ أحياء يحيون بيننا ... فجوزيت مايُجزى لخالقها الحمد
كتبت بما يرضي الضمير ولم تكن ... تردد عن كشف الحقيقة إذ تبدو
(أبا رائد) ما خلدتك ثلاثة ... من الولد لكن ماكتبت هو الخلد
وذاك هو المجد الذي ظل وارفًا ... على طول ما امتدت لياليه يمتد
أيا كل ذكرى (العاليات) وزهوَهَا ... وياسحر ماأبقى الزمان ومايبدو
ويامبدع (الإنشاء) في (أربعائها) ... لها منتدى من كل صادحة تشدو
تلم شداة القوم من كل شعبة ... وفي كل لون من مواهبهم وفد
وانت مليء القلب فخرًا وبهجة ... ونحن على إيقاع بهجته نعدو
ليالي كان الزهو عنوان صبوة ... ففي كل قلب من جوانحنا وقد
وكنا نقول الشعر ماشدنا الهوى ... وما الوصل يوحيه ويوحي به الصد
تطاردنا حتى كأن مواهبًا ... تعشقها، في كل موهبة دعد
فلولاك سار الأمر عكس الذي سرى ... وأغرقنا موج مع الريح يشتد
وجدنا لدى كفيك مرفأً آمنًا ... فلذنا به والمد يتبعه المد
إذا سارت الأنواء غَضبَى زجرتها ... لتمضي شراعات الهوى حيثما تحدو
يمينًا أما لولاك ماكنت شاعرًا ... ولاكان لي شأن من الشعر يُعتد
أرد اليك اليوم فضلاً ومنة ... وإن كان لايُجزي بفضلكم رد
وآسف أني قد أتيتك راثيًا ... وإن كان يحدوني لمرثاتك الوعد
(أبا رائد) عذرًا إذا قصر المدى ... وما قال فيك الشعر ما يبتغي القصد
فنحن إذا ماكنت حيًا وميتًا ... سنخشاك، ماقد عاد بينهما حد

لمستُ بعينيك الرضا فحمدته ... وطرفك عن كل المساوئ يرتد
لقد كنت أستاذي وفخر زمالتي ... وكنت صديقي حين يمتحن الفرد
وكنت أحب الناس في الناس كلهم ... وأقربهم ودًا إذا اتضح الود
سلام (بُراثا) إن تربك طاهر ... يفوح على إرجائه الطيب والنَد
تركنا (عليًا) في ثراك وديعة ... إلى يومَ تدعوه إلى رحبها الخلد
طويناه في بردين يعبق فيهما ... فمن (جوده) برد ومن (طهره) برد
وتلك سمات الخيرين وسمتهم ... يضوعون في الموتى كما ضوع الورد
تخيرت هذي الأرض موطن صفوة ... تخيرها أمثال من أنجب (الورد)
يطوفون في الموتى بأرواحهم هوى ... تَعبّق يندى مثلما يعبق الرند
وليس بخاف أن حزنك حزنهم ... وأن مدب الروح من روحهم زهد
وأنك و(الوردي) جاران مدْفنًا ... وخير لند أن يجاوره ند
سيذكو الثرى حتى يدل عليكما ... ويطلعُ من قبريكما الفخر والمجد
(أبا رائد) أي الجهات أتيتُها ... يفيض عليّ الشعر والوحي يشتد
وأي مجال منك خاض ينابعًا ... فمن أي نبع أستقي كان لي ورد
على قدر ما عُمرت كانت قصيدتي ... ولو طال ما عُمرت طال بها العد
ولست ملومًا أنت أوحيت وحيها ... وفجرت من جنبيّ ما يقدح الزند
يعدك بعض الناس فردًا وإنما ... تعددت فينا، كل موهبة فرد
ليفخر هذا الجيل أنك عقده ... وتفتخر الدنيا على جيدها العِقْد
وحسبك بعد الموت ان ظل خاليًا ... مكانك ما فينا جميعا له سد
فنمها قرير العين حسبك نومةٌ ... نظل لها يقظى يؤرقنا السهد
عليك سلام الله حيًا وميتًا ... وألف سلام حين ينتقض اللحد

مضى طاهر الأثواب.

عبدرب الزهرة زكي[١]

(١) جريدة «الجمهورية» في ٢٢/١٠/١٩٩٦م.

آخر من رحل.. كان علي جواد الطاهر، وقبل أكثر من عـامين. كان كل فرد من أسرة الثقافة العراقية يتحسب بألـم وصمت هذا الرحيل، وهو يرى أن المـوت متشبثًا بجسد الطاهـر، فيما يكاد الطاهر يتـجلد ويكتب ويعلم ويعـظ، وفوق كل هذا يقدم مثالاً عظيماً، عصامية وجود المرء في الثقافة، وفي سمو الأخلاق في الحياة، وفي نبل الالتزام بالمبـادئ، والحرص على صونها، لم يـكن لأيٍّ منّا أن يستطيع فـعل شئ ضدٌ هذا الموت، في دوامة حـصارنا وجوعنا وقلة حـيلتنا إزاءهما.. وفي غـمرة هذا الحزن والألم فـي انتـظار الأجـل (غير المحتوم) لـلطـاهر كان أنْ خـطف المـوت من رمـوزنا وأعلامنـا في الثقافة.. وكـم هو مُرْعبٌ أن ترى الموتُ وقد أضـحى زائرًا ثقيلاً يـتكرر بلؤم ليفجعنا كُلَّ آنٍ بمصاب.

كان لك أن تختلف مع الطاهر، وأن لاتتفق معه في شؤون الأدب والثقافة، ولكن لم يكن ممكنًا إلاّ أن تجلٌ فيه رفعة المثقف، الذي يوفر لك فـسحة الاختلاف والجدال بمثل ما يوفر فيه لنفسه قوة الإيمان ومبدئية الفعل وصراحة القول.

في أخر محاضرة.. وكانـت قبل أكثر من عام حضرتها للدكـتور الطاهر في (اتحاد الأدباء) كانت عن الخليلي رائد القصة في العراق، أتذكره حين بلغ محاضرته الحديث عن موت الخليلي، كان أن أجهش في البكاء، وفيما انصرف البعض في تفسيره لرهبة الموقف وجلالـه إلى تَخيُّلِ تَحَسُّب الطاهر للموت، كـنت انشغل بتأمل صـدْقِ تفاعل الرجل مع محاضرته، ومدى تواشجه مع مـوضوعه، وهو جزء من أصالة عمل الطاهر في الثـقافة، وانتمائـه المخلص إلى هذا الـعمل. مقدمًا بـذالك المثال الحقّ للـوجود الحي للثقافة في كيان المثقف، وعقله ووجدانه، وسمو تلك الثقافة بهذا الكيان.

أخِرُ الراحلين كان العلم الطاهر.. ومن المؤسف أنه ربما لن يكون الأخير، ليس لأن (سنة الحياة) تقضي هكذا. ولكن لأن (سنة الحصار والتجويع) تفرض مثل هذا الموت ضد مثقفين، قَدَرُهُم أنهم اختاروا الهواء عراقيًا، والماء فُرَاتًا، والتراب أرْضَ السواد!!

في (رثاء) الأديب الكبير الدكتور علي جواد الطاهر

زاهد زهدي [1]

عـلـيـكَ الـقـلـب مُلْتاعًا يـلُوبُ ... ويـومـي فـيك منكسف كـئيبُ
وسـمـعـي كـاد ينـكـر صـوتَ نـاعٍ ... نعـاك إلـيَّ فانتفض الـوجيب
أحـقًا لـم يُعْد فـيـنـا (عـلـيٌّ) ... وقـد رحـل المـفـكـر والأديـب
وجـفَّ بـفـقـده قـلـمٌ دَؤُوبٌ ... مَعِينُ مداده الـفـكـر الخصـيب
سـلامًا أيـهـا الجـسـد المُسَجَّى ... تحـف بـه المـشـاعـر والـقـلـوب
سـمـي (الـطـهـر) زيـنـه كـريمٌ ... من الأخلاق، والأصـلِ النجيب
ووجـهٌ يـلـتـقـي الأحـبـاب طـلـقًا ... فـكـلـهـم لـه خـلٌّ حـبـيـب
فـيـالـلـه مـا احـتـسـب الْغَيارى ... عـلـى الآداب تَرْزَؤُهـا الخـطـوب
ولـو عـقـل الـذي أبْدعْت فـيـنـا ... لـبـل سطوره الـدمـع الـصَّيِبُ
وران عـلـى مـقـاطـعـه وجـوم ... بـلـيـغ فـي مـعـانـيـه مـهـيـب
عرفـتـك لا تـقـصـر عـن سـؤال ... يـلـوذ بـه إلـيـك المـسـتـريـب
ألا إنـي لـفـي ريـب شـديـد ... مـن الـدنـيـا وقـد عـز المجـيـب
تجـمَعُنـا الحـيـاةُ ولـيـس نَدري ... متـى يَنْفَضُّ مجـمـعـنـا العـجـيـب
وتـشـرق شـمـسـنـا فـي كـل يـوم ... ويـخـتـمُ يـومُنَا مـنـهـا غـروب
فـمـا لـشـمـوس أفـذاذٍ تـوارتْ ... عـن الـدنـيـا إلـى أبـد تَغـيـب
سـألت الـنفس تشكو لـيَ اغترابًا ... تـقـول أكـاد مـن وَجْدٍ أذوب
رويـدك لـيـس مـن ينأى بـعـيـدًا ... وأن الحـيَّ مـايـحـيـا قـريـب
ولـسـت أرى غـريـبًا مَنْ تـنـاأى ... فـمن تحت الـتراب هو الـغـريـب[1]

(١) كان الشاعر قد سمع وهو في خارج العراق نبأ وفاة الطاهر (خطأ) قبل عامين فكتب هذه الأبيات يرثيه، وحين عرف الحقيقة أرسل إليه الابيات مع دعاء بطول العمر، وقد رأيناها جديرة بأن تدرج ضمن المراثي -أسرة الفقيد-.

علي جواد الطاهر ومعجم المطبوعات

يحيى محمود ساعاتي(٢)

إن الحديث عن الحركة الفكرية في بلد من البلدان، وإصدار أحكام عن مدى تطورها أو تخلفها لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال متابعة مسار حركة النشر فيها لمعرفة توجهات الاسهامات العلمية والثقافية فيها ونشاطها أو خمولها، على مدار السنين. ومن هنا فإن الحكم القاطع، أو محاولة التقويم دون استناد على معرفة شاملة بالنشاط الفكري يعتبر أمرًا غير مقبول نظرًا لقيامه على الافتراض، أو عشوائية المتابعة، كما أن دراسة جانب محدد من جوانب المعرفة لا يعطي صورة كاملة عنها إذا لم تربط بالجوانب الأخرى ذات العلاقة القريبة بها التي تؤثر وتتأثر بمضامينها وتعين على كشف قضايا فكرية يتصل بعضها ببعض.

هذه النظرة التي تقوم على ترابط المعارف وتأثرها بعضها ببعض كانت المنطلق الذي تبناه الدكتور علي جواد الطاهر عندما أراد دراسة الأدب في المملكة العربية السعودية، حينما جاء إلى الرياض، ليعمل في التدريس بكلية الآداب في جامعة الملك سعود، ويوضح الدكتور الطاهر هذه القضية عندما يقول: (.. ورغبت أن أكتب عن هذا الأدب، أو أن أدرسه وقد عُهِد إليّ تدريس الأدب الحديث في الكلية، ولكن المسألة ليست رغبة، إنها مسؤولية فمن المعقول إذًا أن أبدأ بالبداية، والبداية تقتضي عملاً مكتبياً منهجيًا، أي حصر الآثار الصادرة من دواوين وغيرها، وبدأت، ولكن أين؟ ليس هناك من مكان يجمعها أو يجمع أكثرها، وما عليك إلا الجد والصبر، وهذا ديوان، وهذه قصة، وتلك مقالات.. ولكن هذه لا تكفي للدراسة، وإنها لو اجتمعت - فرضًا - لديك لا تفي بالغرض، فلا بدّ لك من الإلمام بالتاريخ.. والفقه.. وكل شيء، فليس الأدب منقطعاً عما حوله..).

---

(١) البيت تضمين لقول محمد بن الحنفية يرثي أخاه الحسن بقوله

غريبٌ وأكناف الحجاز تحوطه ألا كل من تحت التراب غريب

(٢) «الرياض» ١٤٠٦/٢/٧ (٢١/١٠/١٩٨٥م).

ووجد الدكتور طاهر نفسه وقد انشغل عن القضية الأساسية التي أرادها وهي دراسة الأدب ليشغل بأمر متابعة النتاج الفكري في المملكة الذي تحول إلى حبٍ وهواية، ثم إلى رسالة وواجب، وفي سبيل ذلك تحمل الكثير من العناء والجهد والتعب، ومع مرور الأيام تجمعت لديه حصيلة وافرة، ونبعت في رأسه فكرة إصدار معجم للمطبوعات في المملكة، فقد كان يشعر كما يقول (بأهمية معجم للمطبوعات خاص بكل بلد عربي، فلقد مضى العهد الذي يمكن أن يعمل فيه شخص واحد معجمًا لكل البلدان، وأشير كذلك بأهمية عمل المعجم الخاص مبكرًا كي يمكن الاستدراك عليه، ولكي يحصر ما يمكن حصره من مؤلفات الحاضر، قبل أن تصير ماضيًا).

وكانت الخطوة التنفيذية عندما نشر الحلقة الأولى من عمله على صفحات «مجلة العرب» في الجزء السابع من السنة الخامسة (محرم ١٣٩١) تحت عنوان «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية»، وتوالت الحلقات لتصل إلى ست وخمسين حلقة جاءت في أكثر من ثمان مئة صفحة موزعة على أجزاء تتصل أحيانًا وتنقطع حينما نشر آخرها في الجزء الرابع من السنة السابعة عشرة (ذي القعدة ١٤٠٢هـ)، وإذا عرفنا أن المرحلة الأولى من إعداد المعجم بدأت في عام ١٣٨٣هـ، وهي السنة التي جاء فيها الدكتور طاهر إلى الرياض فإن مجموع السنوات التي قضاها في إعداد ونشر هذا العمل بلغت تسع عشرة سنة.

وبعد توقفه عن نشر حلقات المعجم في «العرب». نشر الدكتور الطاهر قصة المعجم تحت عنوان (الخاتمة ـ أو المقدمة الثانية) في عدد (الربيعان ١٤٠٣هـ) بمجلة «العرب»، ثم نشر في عدد (رجب وشعبان من عام ١٤٠٣هـ) المقدمة الثالثة التي تضمنت ردوده وتعليقاته على بعض الذين كتبوا عن المعجم مثل الدكتور منصور الحازمي، والدكتور ناصر السويدان، والأستاذ محمد الحمدان.

وفي عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) أصدر الدكتور الطاهر «المعجم» بتعضيد من جامعة بغداد، وقامت بنشره المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، والمكتبة العالمية في بغداد وجاء في مجلدين الأول في ٦١٨ صفحة والثاني في ٧٤٠ صفحة من القطع

المتوسط وقد جعل عنوانه «معجم المطبوعات العربية: المملكة العربية السعودية».

وبصدور المعجم منشوراً في عمل مستقل يضع الدكتور الطاهر بين أيدي القراء ثمرة جهده وكفاحه الطويل الشاق الذي دلل به على حبه وإخلاصه للمهمة التي حملها على عاتقه متطوعًا، دون أن يقصد من ورائها الحصول على مقابل مادي، أو شهرة أو كسب معنوي، وهنا يكمن مقدار البذل والعطاء الذي منحه الإنسان للحركة الفكرية في هذه البلاد.

والمعجم الذي نتحدث عنه هنا يبدأ بقائمة للرموز والمختصرات التي تعبر عن المراجع التي استقى منها معلومات، أو التي رجع إليها فيشير إلى اختلافات فيما بينها. ويعقب ذلك المقدمة التي بدأ بها الحلقات التي نشرها مسلسلة في مجلة «العرب» وضمنها بعض التوضيح والشرح للأهداف والأسس التي بني عليها المعجم، ثم المقدمة الثانية وهي الخاتمة وفيها عاد إلى الحديث بشكل مسهب عن الدوافع التي دفعت به إلى وضعه، والمشاكل والصعوبات التي واجهها والمصادر والأشخاص الذين استفاد منهم.

فقد كان «أدب الحجاز» الذي جمعه محمد سرور صبان ونشره عام ١٣٤٤هـ، أول كتاب من المملكة العربية السعودية يتصل به الطاهر حيث اقتناه كما يقول (بعيد الدراسة الثانوية) (سنة ١٩٤٠م) ومن خلاله وقف على نماذج من أدب هذه البلاد، وتتسع الدائرة، فيشترك في «المنهل» بعد تخرجه في دار المعلمين في بغداد مباشرة بعد عام ١٩٤٥م - ١٩٤٦م.

ثم كان مجيئه إلى الرياض في عام ١٣٨٣هـ وهنا (يرى الدنيا أوسع كثيرًا مما رآها، وتزداد هذه السعة إذا تصفح جريدة أو قرأ كتابًا أو ديوانًا، وزار مكتبة).

وفي الرياض يقرأ «التيارات الأدبية» لعبد الله عبد الجبار، و«شعراء الحجاز في العصر الحديث» للساسي، و«شعراء نجد المعاصرون» لعبد الله بن إدريس، ويتوالى اتصاله بالنتاج المحلي بدايته الأدبية. ثم يلتقي ببعض الأدباء ويتجول في مكتبات،

وتفتح له كتب التراجم من مثل «دروس من ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام» لعمر عبد الجبار، و«مشاهير علماء نجد وغيرهم» لعبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ آفاقًا أرحب للاتصال بالمعارف الأخرى.

وينتقل بين مخازن بيع الكتب في الرياض وله حديث شيق في هذا الصدد ننقله بنصه من المقدمة الثانية حيث يقول: (وكانت مكتبات البيع - في البطحة (البطحاء) خاصة - بابًا مهمًا يمكن أن يعد مهمًا جدًا لما يعثر فيه المرء على خبايا يسمع بها ولم يرها في مكتبة خاصة. وفي البطحاء مكتبات كثيرة أكبرها: (النهضة) وهي تعنى بالكتب الحديثة، وأكثر الحديثة عربية مستوردة من مصر ولبنان. وربما كان هذا من الأسباب التي هيأت لي فيها فرصة اقتناء دواوين محمد حسن عواد. ولكن فيها مكتبات صغيرة كثيرة، لا تعدم أن تجد فيها - على غير تصميم - كتبًا قديمة لا توجد في غيرها وقد تعددت إليها الزيارات مصحوبة ب (الدفاتر).

وتميزت مكتبة نسيت اسمها ولن أنسى رسمها، فهي على يسار القادم من المطار، واجهتها صغيرة، لا تثير اهتمامًا، يديرها اثنان لعلهما أخوان. إذا دخلت فيها وجدتها مستطيلة على وجه لا يتناسب مع عرضها، وقد توزعت فيها الكتب على غير نظام ذات اليمين وذات الشمال، وفي الوجه، كما أقيمت في الوسط منضدة مستطيلة تحمل الكتب في بطنها وعلى ظهرها.

كنت أكثر الزيارة لهذه المكتبة، ولم يكن صاحبها - أو صاحباها - يعبآن كثيرًا بالداخل - أو الداخلين - فأستغل الفرصة وأملأ ألواحًا من الدفاتر. وكنت أحتال على وجودي المتكرر فيها - أو أسوغه - بشراء كتاب في كل مرة أدخل فيها بغير أن تكون لي حاجة إلى هذا الكتاب، وبغير أن تكون للكتاب نفسه قيمة علمية أو أدبية، ذلك هو الغالب في الكتاب المشترى، وإلا فقد تجد كتابًا مهمًا مثل كتاب حسين بن غنام: «روضة الأفكار والافهام لمرتاد حال الإمام» طبع على نفقة المكتبة الأهلية بالرياض باسم: تاريخ نجد المسمى.. والكتاب مصدر أساسي لا غنى لباحث - أو معجم - عنه.

ورأيت ذات يوم في مكتبة قريبة منها، بين الكتب المعروضة تعليقًا، كتابًا كنت أود اقتناءه ولم يتهيأ لي تحقيق المطلب، هو كتاب عثمان بن بشر: «عنوان المجد في تاريخ نجد» وكنت مصممًا على شرائه فمددت يدي إليه وأنزلته فرأيت أن صاحب المكتبة قد كتب عليه سعرًا ـ بدا لي غير معقول (٨٠) ريالاً. فاستكثرت المبلغ في ساعته وقلت في نفسي: إن حاجتي إليه مكتبية فقط: تاريخ الطبع ومكانه وعدد الصفحات وأخرجت (الدفتر) لأنقل هذه الحاجة المحدودة فثقل ذلك كثيرًا على البائع، ولعله قال (كلمة رأيتها غير لائقة به (وبي) وسحب الكتاب من يدي. فتألمت في حينه، وما زالت آثار الألم على أن الحق معه.

وفي (الثميري) مكتبة.. حديثة اقتنيت منها «قلق» أبو أحيمد.. وفي (دخنة) مكتبة فيها مطبوعات قديمة مهملة، قد تكون هي المكتبة الأهلية التي نشرت عددًا من الكتب ودأبت على ذكرها على الأغلفة الأخيرة منها.

وفتحت في السنوات الأخيرة مكتبتان جديدتان في (البطحاء) نسيت اسم إحداهما على سعتها ولعها في مواجهة الثميري، وقد يكون اسمها (مكتبة الرياض)، وأذكر اسم الثانية وهي (مكتبة النصر الحديثة) لأنها مكتبة يتولى صاحبها ـ أو صاحباها ـ الطبع أو إعادة الطبع (في بيروت) ومما أعادت طبعه كتب فؤاد حمزة: «قلب جزيرة العرب» و «في بلاد عسير» و «البلاد العربية السعودية» وهي نادرة ونشرت كذلك القسم الأخير من كتاب ابن كثير: «البداية والنهاية» وقد ظل هذا القسم مخطوطًا حتى نشرته (مكتبة النصر الحديثة) في مجلدين بعنوان «نهاية البداية والنهاية في الفتن والملاحم».

ويمكن أن يستدل من نشوء هاتين المكتبتين، ومن الثانية خصوصًا على تقدم خاص في عالم الكتب.

وكنت أبحث ـ بوجه خاص ـ عن دواوين محمد حسن عواد وأحمد قنديل، وقد حصلت على عدد لا بأس به من آثار الشاعر الأول، ولم أحصل على أي من دواوين الثاني. أما الثالث ـ من الشعراء الثلاثة ـ حمزة شحاتة ـ فقد علمت جيداً أنه لم يطبع شعره في ديوان ولا يريد أن يطبعه..).

ولم يكتف بما وجده في الرياض.. فسافر إلى المنطقة الغربية عام ١٣٨٥هـ ولكنه لم يطل الإقامة (الإجازة) ولم يفد كثيرًا لأن سفره وقع في رمضان، ثم إن مكتبة الشيخ محمد حسين نصيف بجدة لم تكن مفتوحة، ولأنه عني خاصة بمخطوطات مكتبة شيخ الإسلام في المدينة. ومع هذا فقد أمكنه أن يلتقط بعض الأسماء من مكتبات البيع وأن يقتني بعضًا منها مثل كتاب «صحيح الأخبار»، لابن بليهد وقصة «فكرة» لأحمد سباعي..

وربما كانت الفائدة الكبرى في مكتبة المدينة المنورة العامة، فقد وجدت فيها بعض كتب كنت أطمع أن أراها، مثل قصة «التوأمان» لعبد القدوس الأنصاري ـ أول قصة في الأدب السعودي فيما هو معروف.

ولا بد من ذكر مديرها (الخياري) بالخير لما سهل من مغلق الأمور، وما فتح من باب كان مسدودًا..

أما (المنطقة الشرقية) فقد زارها زيارة عابرة، وكان له في كتابي محمد جابر الأنصاري «لمحات من الخليج العربي» وعبد الرحمن العبيّد «الأدب في الخليج العربي» ما يسد مكانًا كبيرًا من المساحة اللازمة زيادة على أحاديث جرت مع القليلين الذين رآهم من ابنائها في الرياض ـ وليس الذي وجده فيها بذي بال أو دلالة على نهضة. وكان في ديوان محمد سعيد الخنيزي «النغم الجريح» ما يشير إلى شاعرية مبدعة، ولكن الشاعر الشاب لم يثن. ثم ان كتاب عبد الله علي الخنيزي عن أبي طالب كان مدار حديث الناس في السعودية مثار سخط في أحيان غالبة. ولم يقع في يدي كتاب محمد سعيد المسلم «ساحل الذهب الأسود» إلا متأخرًا..).

وظل الطاهر دؤوبًا وهو مستقر في الرياض يطالع الصحف اليومية يستل منها ما قد يكون من أخبار عن إصدارات جديدة، أو ما قد يعثر عليه في ثنايا السطور عن الترجمة للأعلام.

ثم ودعها، كما يقول في عام ١٣٨٨/١٩٦٨م عائدًا إلى بغداد ومعه عدد كبير من الدفاتر المشحونة بالمؤلفين والمؤلفات على غير نسق، وفي بغداد شغل بالحياة والتدريس وإعداد المؤلفات.

وبين فينة وأخرى يعود إلى المعجم.. ثم شرع ليصنف أوراق الدفاتر على حروف الهجاء للمؤلفين.. فأخرج المكررات وعندما فرغ من الترتيب الأولي اتصل بمجلة «العرب».. وجرى الاتفاق ونشرت الحلقة الأولى في عدد (محرم) ١٣٩١هـ.

وكان الدكتور طاهر على يقين من أن هناك خطأ، وهناك فوتًا وهناك سهوًا لذا فقد جعل على رأس الحلقات التي نشرها في أعوام ١٣٩١، ١٣٩٢هـ، ١٣٩٣هـ، ١٣٩٤هـ، عبارة نصها (رجاء: إن ما يبديه القارئ من الملاحظات وإكمال النقص وتصحيح الأخطاء يقابل من كاتب البحث ومن العرب بالقبول مقرونًا بالشكر والتقدير).

ولكن كما يشير هو ذاته فقد كانت الاستجابة ضعيفة.

وقد أفاده وهو بعيد عن المكان الذي يرصد نتاجه الفكري مجموعة من الأعمال البيليوجرافية التي صدرت من مثل «معجم المطبوعات السعودية» لشكري العناني، و «الأدب العربي في المملكة العربية السعودية»: بيليوجرافيا مختارة، و«حركة التأليف والنشر في المملكة العربية السعودية» لكاتب هذه السطور، فأخذ يكمل النقص ويستدرك الفائت مع النص على المصدر الذي استفاد منه.

وإذا كانت المقدمة الثانية توضح مسار المعجم والمصاعب التي عمل على تجاوزها والأشخاص الذين أمدوه بمعلومات والأعمال التي أفاد منها في التصويب والتصحيح والاستدراك، وقصة نشره على صفحات مجلة «العرب».

فإن المقدمة الثالثة كانت تضم تعقيبه وردوده على بعض الذين كتبوا عن المعجم وهو

في شكله الأول عندما كان ينشر في «العرب» مثل الدكتور الحازمي والدكتور السويدان، والأستاذ الحمدان واستغرقت المقدمات الثلاث الصفحات من ١١ إلى ١١٠ وأعقبها بالتمهيد الذي تحدث فيه حديثاً مستفيضاً عن الطباعة والصحافة والكتاب قبل العهد السعودي، وشغل هذا التمهيد الصفحات من ١١١ إلى ٢٢٢ وجاء حافلاً بالمعلومات عن تلك الفترة التي لا زال الحديث عنها يحتاج إلى الكثير والكثير.

أما المعجم فيبدأ من الصفحة ٢٢٣ وقد جعل مداخله بأسماء المؤلفين وبعض الهيئات الناشرة من مثل الرابطة والرئاسة كما أنه يتحدث في السياق الهجائي عن بعض الجوانب الثقافية من مثل الصحف حيث عرض لها تحت هذا المدخل وتختلف مادة المعجم هنا عن المادة التي نشرها في مجلة «العرب» فرغم أنه حافظ على البنية الأساسية له كما نشرت في «العرب» إلا أنه كان يعقب ويورد ملاحظات استفادها فيما بعد تضيف جديداً أو تضم تعديلاً.

ويختلف منهج الدكتور الطاهر في معجمه عن المناهج المتبعة في الأعمال البيليوجرافية التي تعد من قبل المهنيين التخصصين في المكتبات الذين يلجأون عادة إلى استخدام رؤوس موضوعات محددة تتوزع عليها المداخل، ولمثل هذا الاستخدام فائدته إذ أن بواسطته تجمع الأعمال المتقاربة من مثل الشعر، والقصة، والتاريخ.. إلى غير ذلك وهي بذلك تيسر للقارئ الوصول إلى حاجته بسهولة.

كما أنه يختلف عن العمل الببليوجرافي المهني في ناحية أخرى، تتمثل في التعريف بالمؤلفين تعريفاً مطولاً عندما تتوفر له المعلومات فقد تحدث عن خالد الفرج في قرابة ثلاث صفحات، ثم عرض لأعماله بعد ذلك. وهو هنا دون شك يقدم معلومات مفيدة لا يمكن توفرها في العمل البيليوجرافي المهني.

ويقترب المعجم في بعض نواحيه من العمل المهني ويتمثل ذلك في استخدام الطاهر للإحالات فهو يحيل من الخجندي إلى محمد سلطان، ويحيل من طاهر كردي إلى محمد طاهر كردي وهكذا..

ولا تعني الإشارة إلى اختلاف المنهج الذي سار عليه الدكتور الطاهر عن منهج المهنيين التقليل من شأنه فهو في واقعه موسوعة للحركة الفكرية في هذه البلاد لا يستطيع وضعها غير إنسان يملك مثابرة وصبر وحب الدكتور علي جواد الطاهر.

وينهي الدكتور الطاهر معجمه بخاتمة تناول فيها الحركة الفكرية في المملكة بإيجاز فتحدث عن الأعمال التي كتبت عن الأدب في المملكة من مثل ما كتبه الدكتور محمد الشامخ، وعبد الرحيم أبو بكر، والدكتور إبراهيم الفوزان، والدكتور محمد بن سعد بن حسين، والدكتور عبد الله المبارك، والدكتور علي صبح وغيرهم، ويختم الحديث حول هذه النقطة قائلاً: (حصل إذن التأليف في الأدب السعودي، وحصل على درجة جيدة مرة على يد منتدبين من السعودية للتدريس.. وقد حدث ذلك منذ السنوات الأخيرة من المدة المحددة التي يقف عندها المعجم (١٣٩٠/١٩٧٠م) فهو دليل على تطور بقدر ما هو دليل استمرار الفكرة وطبيعة ظهورها، ثم هو بداية لما هو أعمق وأحسن وأغزر وأكثر تشعبًا وتنقيبًا في الاتجاهات العامة والخاصة والظواهر والبواطن، والرؤوس والزوايا.. مع متابعة ما يجد).

ثم يعرض لمسيرة الشعر في المملكة ويبدي دهشته لما حدث فيه من تطور تمثل في ظهور جيل كامل من الشعراء (ولد له همومه ومفاهيمه في الحياة والفكر، وله نمطه في الإعراب عن تلك الهموم والمفهومات في شكل يراه هو الشعر، ويراه الشعر الجديد، ويرى قصيدته هي القصيدة الجديدة...).

ويرى الدكتور الطاهر أن هذا الجيل كان مثار دهشة النقاد في مهرجان الأمة لشعراء الشباب في بغداد في الفترة من الحادي والعشرين وحتى التاسع والعشرين من نيسان ١٩٨٤م، أما أسباب دهشتهم فلأنهم لم يكن لهم علم بالمسيرة الأدبية في المملكة، أو اتصال بالفكر الأدبي فيها.

ويورد رأياً لأحد النقاد العراقيين الشباب وهو الأستاذ حاتم الصكر الذي كتب في عدد من «الأقلام» قائلاً: (كان شعراء السعودية مفاجأة المهرجان بحق، فالصيخان، ومحمد جبر الحربي، ومحمد الثبيتي قدموا صورًا لوعي شعري ينمو بعيدًا عن

الضجيج، مكتوبًا بالتجربة، طالعًا من أعماق الأرض، جديدًا يتوفر على أفضل ما في الشعر الحديث من مزايا وسمات..).

ويقدم لنا الدكتور الطاهر رؤيا موضوعية حول حركة الشعر الحديث في المملكة من خلال ما كُتِب عنه أو نُشر منه في الملف الذي أصدرته مجلة «الأقلام» العراقية (آب ١٩٨٤م) والذي كان عنوانه (القصيدة الجديدة في السعودية)، فيقول: (وأعود مرة أخرى وأكرر أني على ما حسبت نفسي عارفًا بمسيرة الشعر السعودي لم أكن انتظر هذا التغير على هذه الدرجة، والتطور على هذا العدد. وقد تعني الحال توافر الفرص للشباب في أن يقرأوا ويفكروا ويناقشوا ويتابعوا ويتأملوا وينظموا، وينشروا، رغم ما يند عنهم من شكوى الضيق أو التنقيق. وإذا كانوا قد تأثروا بالشعر العربي الجديد فإنهم ليختلفون عنهم بالعوامل الدافعة إلى القول، وما تؤدي هذه العوامل إليه من أجواء خاصة بمقدار ما يختلف مجتمع عن مجتمع، وبمقدار ما يمنحه الجد والإخلاص من سمات القوة والأصالة. ويبقى هذا التميز ما بقيت الفوارق. وبقي الشعراء صادقين لا ينقصهم المضمون لديهم عن الشكل.

وطبيعي أن يحصل صراع بين الأجيال بدرجات متفاوتة، إلا أني رأيت على شهادات الشعراء التي أوردوها في (الملف) وعلى شهادة أدلى بها محمد جبر الحربي من إحدى الإذاعات ما يشير إلى تأن ونضج في الرأي الفني والاجتماعي، ووعي للمهمة الأدبية والاجتماعية، ولقد ذكروا اللغة والتراث بتقدير، وبدوا من التواضع بحيث عدوا أنفسهم في دور التجربة ـ وأرجو أن تكون رؤيتي صحيحة، وأن يكون الشباب ـ في جملتهم على الأقل ـ من النضج حيث بدوا، وأن يطيلوا الوقفة في دور التجربة من أجل اختمار أكثر وتهيؤ مواهب أعمق، والحذار الحذار من السرعة والغرور!!

ثم.. توالت القصائد.. في الملف.. عبد الله الصيخان، محمد (جبر) الحربي، محمد الثبيتي، خديجة العمري، عبد الإله البابطين، عبد الكريم العودة، عبد العزيز سعد العجلان.

وإذا كانوا قد تأثروا برواد الحركة من الأقطار العربية (العراق، مصر، سورية،

لبنان...) وقد تأثروا فعلاً واعترافًا وحتمًا.. فإنهم اجتازوا مرحلة التقليد وبدأوا مرحلة التميز والأصالة، ومن هنا جاءت المفاجأة والدهشة من وجودهم، فلقد تقدموا.. وتأخر الآخرون، تقدموا بما لديهم من جد وإخلاص وطموح وظروف، وتأخر الآخرون إذ استحال الجديد لديهم قواقع جوفاء وألفاظًا وشكلاً.. وتعاورته أقلام لا تسندها موهبة، واحتوته ألفاظ لا طائل تحتها، وشجعته مآرب لا يهمها الأدب، وكأنهم فقدوا المضمون، أو اجتنبوه إلى حيث مضمون غيرهم.

ويبقى ـ بعد ذلك ـ الاحتياط في الحكم بما يبتعد به التعميم عن التخصيص، والقاعدة عن الشاذ، ولا ـ ولن ـ تعدم في الشباب من يتطرف، ومن يقع ـ عاجلاً أو آجلاً ـ في فخ عَدّ التجديد غايةً بنفسه ـ ولكننا رأينا الوجه الحسي المطلوب المرضي، وبه العبرة والعظة).

ومن الشعر ينتقل إلى المقالة فيذكر بداياتها وتطورها وأعلامها ويبدي إعجابًا خاصًا بأبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري.

ويقدم وصفًا لشخصيته وثقافته يبرز دقته، وقدرته الغريبة على التغلغل بين السطور ليرى الإنسان: الظاهري متجسدًا في كلمات الطاهر رغم أنهما لم يلتقيا إلا من خلال الكلمات..

فهو يصفه بأنه عنيف (وإن شئت استفزازي يستفزك إن كنت معه، ويستفزك إن لم تكن معه، بضربات متلاحقة تبدو متباعدة الطرفين لديك، وما هي كذلك في نفسه، فلا تأمنه إنْ لأنَ، لأنه يلين ليشتد، ولا تصدقه إن تواضع، لأنه يتواضع لغزارة من الثقة بالنفس، هي فخر يصل حد الخيلاء، ثم يرتد إلى الإلفة والمصادقة. تحتدم العاطفة خلال عقله، ويحتدم عقله حتى يبدو عاطفة، وخلال ذلك خليط عجيب من التجارب والآراء والمعارف.. من قديم جدًا إلى جديد جدًا، ومن شرقي شرقي إلى غربي غربي.. لا تدري كيف تجمعت في ذاكرته.. وكم قرأ حتى جمعها!!!

ومن ثم تنبثق صور تراها مألوفة ـ وربما غير معقولة ـ ولكنها مألوفة لديه طوع يده ـ

قد يذكرك بزكي مبارك إذا أردت أن تتذكر روحه ـ ولا أقول عقله، وإذا كان لا بد من مقابلة، ولا يذكرك بالعقاد على أن الميدان ميدان عقل وثقافة وقراءات، ولو كان كالعقاد لوصفناه بالتعليمية ومضينا.

فن المقالة لديه ـ إذن ـ متميز بالعنفوان الفكري لدرجة أن يبدو اضطرابًا وشذوذًا وثقة مطلقة بالذات وما تعتقده هذه الذات، ويتميز كذلك ـ بالتلاعب المنطقي إن طلبت بديلاً عن التلاعب اللفظي الذي تراه لدى غيره واضحًا أو خفيًا.

وإذا بدأت معه المقالة.. لم تجد بدًا من السير معه حتى ينتهي وعند الانتهاء، ترضى أو لا ترضى ـ تضع علامة العجب والتعجب وكأنك تعايش طفلاً شكسًا).

والواقع أن رأي الدكتور الطاهر في أبي عبد الرحمن بن عقيل يعتبر رأي إنسان درس وعاش مع مقالاته، لحظات طوالاً حتى خرج بهذه النتيجة، وأين كتابنا ودارسونا هنا عن مثل هذه المتابعة الدقيقة الواعية؟ حول هذا الفحل الذي هو دون شك مفخرة من مفاخر هذه البلاد بعلمه وثقافته الغزيرة وقدرته على تطويع القلم لما يريد.

ويأتي إلى القصة فيشير إلى البدايات، ودور المرحوم عبد القدوس الأنصاري ومجلة «المنهل»، كما يشير إلى المرحوم أحمد السباعي ومحمد علي مغربي ومحمد سعيد العامودي، وما حدث لها من تطور بعد ذلك على يد جيل الشباب، ويتحدث حديثًا مسهبًا بعض الشيء عن سباعي عثمان، ومحمد علوان ويستعين هنا بآراء الدكتور منصور الحازمي حولهما.

وتنال رواية «غداً أنسى» للدكتورة أمل شطا إعجابه فيقول عنها:(ولقد تهيأ لي أن أقرأها وأستمتع بها شكلاً ومضمونًا، فرأيت ـ وعجبت ـ ولم أعجب للتقدم الذي أحرزته المرأة، بل (الرواية) كلها فإذا كان حامد دمنهوري أمسى حدًا جديدًا في تاريخ الرواية السعودية فإن أمل محمد شطا حدٌ جديد جديد، في روايتها عمق وتشابك ولغة وطواعية.. وفن القصة ـ أو الرواية القصيرة إذا أردنا إلى الدقة ـ خطوة متقدمة في تاريخ القصة (الرواية السعودية) ينسجم شكلها ومضمنها انسجامًا

ملحوظًا، وتديرها المؤلفة بحذق وتمكن، وكأنها أطالت من قبل إلفةَ الروايات العالمية، وتأمل بنائها كما أطالت تخمير التجربة التي تعرضها، فجاءت سلسلة جذابة يتعاطف معها القارئ وينسجم ويرى في قناعة ووضوح ورضا مكان الحنان من النفس الإنسانية، ومدى ما يمنح صاحبه من قوة تحمل، ومدى ما يغير في سلوكه من قساوة إلى دماثة ولطف ولين ـ والحنان قرين الحب أحياناً).

كما يتحدث عن المسرحية فيذكر بعض ما صدر منها فيعدد أسماء كتب ولا ينسى هنا الإشارة إلى المسرح، وموقعه في حركة الفكر في المملكة.

وبما أن الأدب الشعبي يمثل تراثًا أصيلاً لهذه البلاد فهو يتناوله عارضًا لما صدر من نصوص أو دراسات في الشعر والأمثال والأساطير، ويتحدث عن الترجمة وحجم الإسهامات فيها وأعلامها من مثل عزيز ضياء، ويبرز دور الجامعات في مسيرة حركة الفكر من خلال الدراسات العليا ثم يعرج على الصحافة ودورها في مسيرة النقد الأدبي والدراسات.

ولم ينس التحقيق فعرض لبعض ما نشر منه في المملكة وناقش قضية التراث القريب، وضرورة العناية به وهو يعني هنا نشر أعمال رواد الأدب في المملكة الذين لم تنشر أعمالهم في كتب حتى اليوم.

وعرض للسيرة الذاتية فذكر ما نشر منها للربيع والسباعي وحسن نصيف والجاسر والحقيل ومحمد عمر توفيق، ويتناول ما صدر من أعمال تدخل في اطار الفلسفة وهو يركز هنا على أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري.

ومن الموضوعات الأخرى التي يشير إليها التاريخ والأنساب والتراجم والكتب الدينية، ودور النشر والمطابع.

والخاتمة.. في الواقع هي خلاصة لتجربة الدكتور الطاهر مع المسيرة الفكرية في المملكة تظهر التفاعل، وتبين القدرة على الخروج بالنتائج من خلال ما طالع وقرأ وسمع.

ومما لا شك فيه أن هذا المعجم سيكون أساسًا يعتمد عليه عند التفكير في وضع

بيليوجرافية وطنية شاملة للمملكة نظرًا لما يحتوي عليه من إشارات إلى مؤلفات ينفرد بها صاحب هذا العمل.

ومهما كانت المآخذ التي يمكن أن تكون على هذا المعجم إلا أنها لا تستطيع أن تحجب المحاسن الكثيرة التي يأتي على رأسها هذا التفاني العجيب الذي تميز به الدكتور الطاهر وهو يضع هذا العمل، وهذا الحرص على المتابعة وهو في مكان بعيد عن المنطقة التي تناولها، مما دفع به إلى الاتصال الدائم بالمؤسسات العلمية والثقافية والأشخاص يسأل عن الجديد ويطلب الملاحظات على ما ينشره.

إن علي جواد الطاهر بنشره لهذا المعجم يضع أمام الباحثين صورة لمسار الحركة الفكرية في المملكة، تعينهم على التجديد، وتمدهم بمادة علمية غزيرة لا تتوفر في مصدر آخر.

وإذا كنا نقدر التقدير اللائق هذا الجهد الرائع الذي قدمه الدكتور الطاهر فيجب ألا ننسى دور علامة الجزيرة حمد الجاسر الذي أفسح المجال في مجلة «العرب» لحلقات هذا المعجم، فكان خير مساعد ومعين على نشره، وفي كلمات الدكتور الطاهر في المقدمة الثانية ما يعبر عن ذلك عندما قال: (فإذا كان فحوى بداية المعجم تنويه بفضل الشيخ حمد الجاسر صاحب «العرب» وكان التنويه حاضرًا في أي من الحلقات الست والخمسين.. وكان وكان.. فلا تكون الخاتمة.. خاتمة بدون الإشارة بحسن رعايته والتقدم بجزيل شكره).

وهنا اعتراف عالم بفضل عالم أتاح له من واقع الشعور بالمسؤولية، وبدافع من المشاركة إيصال المعلومات الهامة إلى القارئ.

وبعد.. فإذا كان علي جواد الطاهر قد وضع هذا العمل مدفوعًا بحب صادق وإخلاص لا مثيل له، فإن أقل ما يمكن أن يقابل به من البلاد التي وضع عن نشاطها الفكري هذا المعجم القيم هو أن يكرم التكريم اللائق ولا أقل من أن يدعى ليستفاد من تجربته، وليشهد هو نفسه التطورات التي حدثت في المجال الفكري. منذ أن غادر

في عام ١٣٨٨هـ، والدعوة قد توجه إليه من وزارة الإعلام أو رعاية الشباب أو جمعية الثقافة أو الأندية.. أو إحدى الجامعات.

ومجيء الدكتور الطاهر إلى هنا سوف ييسر فرصة لقائه بكثير من محبيه، في هذه البلاد الذين يعرفون بكل التأكيد أنه أبرزُ من كتب عن الفكر هنا دون دافع غير الحب، والشعور بالأهمية، وذلك على حساب نتاج أو نتاجات تدخل في صميم تخصصه ناقدًا ومبدعًا.

دعوة الدكتور الطاهر.. ومن ثم تكريمه.. يجب ألا تتأخر كثيرًا فهذا وقتها. مع ظهور معجمه الذي سيكون أحد أهم المصادر في المملكة لكل من يرغب في التعرف على ذلك في أرجاء الوطن العربي.

من أحاديث الأيام البغدادية والباريسية:

رحلة عمر مع علي جواد الطاهر

إبراهيم السامرائي[1]

قال صاحبي: أين نحن اليوم من صحبك الذين بدأت صحبتهم منذ ما يقرب من نصف قرن في (دوكرة) صغيرة محببة هي (دار المعلمين العالية) في شرقي بغداد في حي يدعى الوزيرية؟!

قلت: ليس حديثي الليلة كما عرفت في ليالي مضت، عني وعن الأهل وسائر الناس، وما كان في كل ذلك من شجون.

قال صاحبي: كأنك أدركت مما تساءل به نفرٌ وأنت في هذه الديار من الأردن، بعد أن اضطررت أن تغادر صنعاء التي أحسنت فيها القول، ولكن العبرة بالخواتم وما أظن ختامها مسك!

قلت: نعم لقد بلغني رحيل أخ عزيز قريب مني، صحبته قرابة نصف قرن،

(١) جريدة «الشرق الأوسط» عدد ٦٥٤١ في ١٣/٦/١٤١٧هـ (٢٥/١٠/١٩٩٦م).

واصطفيته أخًا حبيبًا قريبًا مني محبًا للدرس، ذالكم هو علي جواد الطاهر، ثم فارق هذه الدار بعد أن نكله الداء العياء فكيف أقول في هذا الفراق؟.

أأقول كما قال أبو العتاهية فأتأسّى بحكمته الباردة: (الموت باب جميع الناس داخله) لا والله لن يكون هذا، ولكني أقول ما قاله أبو عُبادَة البحتري:

وأرى لِدَاتِ أبي تتابع كُثْرهُمْ عَنّي فكرّ الدهر نَحْوَ لِدَاتي

لقد فارقت إخوتي وأصحابي، فشغلت بالأسى وشجون الأيام، وحسبك أسًى من غربة، هي هموم قاتلة، أو ما عرفت أني أدركت الثمانين، ولكني لا أقول ما قاله زهير(٢):

إن الثمانين وبُلِغْتَهَا قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

لأني كيف أنشد في هذا الأسلوب من الدعاء، وأنا وصحبي في الوطن وبلاد الشتات ننظر إلى أهلنا وصحبنا يواجهون أرذل العمر.

قال صاحبي: كأنك في معرض الرثاء والأسى والحنين تنشد، وترى أن صاحبك الأثير رحمه الله علي جواد الطاهر قد شارف هذه الثمانين، وكأنك تقول لأبُلّغناها!! ولك أن تنشد على لسانه رحمه الله ما قلته أنْتَ مخاطبًا نفسك:

وقيل قد بُلّغتها في الدعاء فكيف يدعو ذُو سقام عياء؟
لا طبْتَ نفسًا ذا زمان عثا وما لغير الشر فيه البقاء
مضى بنا السوء يقود الورى فهل زمان يُرتجى بالدعاء؟!

قلت: أقْصِرْ ولا تطل، وحسبك ذاك، فقد كانت لي قصيدة نفستُ فيها عن أساي وأسى صحبي الذين ابتلوا بالسنين، ومنهم أخي علي الجواد الطاهر، وتلك نفثات مصدور.

قال صاحبي: أقسم أني لَبَعْضُ غرسك، لقد أفدتُ منك وحفظتُ أشياء، وكأني بك حين أمليت عليَّ يومًا قول الشاعر القديم:

---

(٢) هذا البيت لعوف بن محلم الخزاعي في طاهر بن الحسين وأما قول زهير فهو:
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

كأنَّ بلادَ الله وهي فسيحة على الخائف المحزون كِفَّةُ حابِلِ

قلت: دَعْ عنك هذا، فإني والله لمحترب بمصاب أخي، فقد ودعته، فودعت نصف قرن كان لي معه اجتماع ولقاء واتّفاق، لقد شُغِل كلانا بالطلب، بدأناه في دار المعلمين العالية، وقد جاء أخي من (الحلّة) طالبًا من أهل الجد، فكنا رفيقين متحابّيْنِ نستقبل الأساتيذ، فنفيد منهم أشياء في مواد العربية والتاريخ، فوائد لم تكن لنا في المرحلة الثانوية، لقد عرفنا المصادر القديمة، وأقبلنا عليها منتفعين فعرفنا في ما عرفنا «البيان والتبيين» و«الحيوان» للجاحظ، وعرفنا «أمالي أبي علي»، وكتب النحو وعلى رأسها «مغني اللبيب» لابن هشام، وسعدنا بـ «تاريخ الرسل والملوك» للطبري، و«الكامل» في التاريخ لابن الأثير، وأشتاتاً أخرى لا حصر لها.

وأشهد أن صاحبي العلي الطاهر كان له عدة قديمة من هذا الزاد القديم، عرفها في مدينة (الحلة المَزْيَدِيّة) وكنت أنا مزودًا بشيء من درس نحوي، عرفته في الدرس القديم، بعيدًا عن الثقافة المدرسية، لقد سعدنا نحن أنا وصاحبي، ونفر آخر من أصحابنا بمحاضرات الأساتيذ، ومنهم أستاذنا الجليل طه الراوي، وأستاذنا الألمعي مصطفى جواد، وأستاذنا محمد مهدي البصير عليهم جميعًا رحمة الله الواسعة.

ولا أذكر أننا كنا بسعة وراحة في مواد التربية وشجونها، ولكننا وَطّنّا النفسَ على ما أُوتينا من علم (جون ديوي) و(ثورندايك) و(وردورث) وغيرهم، وهكذا أريد لنا لنتهيأ إلى التدريس.

قال صاحبي: وهل كان لكما من خصوصيات وأنتما في(الدار) التي لم تكونا قد عرفتماها من ذي قبل؟!

قلت: أظنك صاحبي قد تذكرت ما كنت قد حدثتك وأنا في (دار المعلمين) الابتدائية والدار في تلك الحقبة كهذه الدار العالية، والطلاب هنا وهناك شجون وشجون، ولا أدري كيف أقول لك وأنا أتذكر أننا كنا نقوم بكثير من حاجاتنا، فقد

نمسح الأحذية بالدهان، ونرتق ما انفتق من اللباس، وغير هذا، وماكنا نشقَى بذلك، ولكنني ومثلي صاحبي - رحمه الله - نفيد من المكتبة، وقد عقدنا حبلَ الوصل بالعاملين في المكتبة من الموظفين، لأن فينا حاجة أي حاجة إليهم.

قال صاحبي: أذكر أنك قد حدثتني عن بعض صحبك الأساتذة، فذكرت فيمن ذكرت طه الراوي ومصطفى جواد، فلم كان ذلك، أهما استثناء من جميع الأساتيذ أم أن تلك خصوصية فيهما؟!

قلت: على رِسْلِك، ولا تتعجل الأمرَ وعُدْ إلى ما أمليته عليك، فستجد فيه أننا أفدنا من هذين فوائد جمة، تتصل بالعلم وبشيء آخر يتصل بالحياة، وستجد أني قلت: كنت ومثلي صاحبي - رحمه الله - وآخرون نهوي الكتاب القديم، ونرى فيه مالا نراه في كتب عصرنا، وكنا نتوجه بالسؤال إلى كل من الأستاذ الراوي، والأستاذ مصطفى جواد، إن لديهما شيئاً من أسرار العربية وعلوم الأوائل.

قال صاحبي: وأين أنتم عن الدرس التاريخي الذي برمتم به في محاضرات مكتوبة، فيها الكثير من الترسل الذي تضيع فيه الفوائد التاريخية؟!

قلت: لقد حفزتني إلى القول: إننا سعدنا بأصالة العلم، نفيدها من عيون التاريخ، وأشهد أننا دُفعنا إلى ذلك بعد أنْ سئمنا هذه المادة مسطورة في مذكرات الأستاذ فلان وفلان وغيرهما حتى إذا جاء الأستاذ الدوري من انجلترا وعهد إليه بتدريس التاريخ الإسلامي، تغيرت الحال، فعرفنا أصول البحث والإفادة من المصادر.

قال صاحبي: وأي شيء كان لكم أنتم طلاب الدرس من فوائد خاصة، لعلكم حفزتم إليها ممن شعرتم به من لدن الأساتيذ أصحاب العلم؟!

قلت: كان لنا هنا الشيء الذي خرجنا به، وإني أذكر أن أخي علي جواد الطاهر قد توجه في التربية التاريخية، إلى ما كان لدى المسلمين من الفلاسفة، الإمام الغزالي في كتابة «أيها الولد» وذهبت أنا إلى البحث والتنقير عن أساليب التعليم والتعلم، مما استخلصته من كتب النحو القديم وآراء الرئيس ابن سينا.

لقد أدركنا في دار المعلمين العالية أن ما يسمّى اختصاصًا شيء، قد بولغ فيه في الدراسات الإنسانية في اللغة العربية، ذلك أن علوم اللغة العربية بما فيها القرآن والحديث والتاريخ الإسلامي، وما يتصل بعلم الاجتماع التاريخي، يؤلف مجموعها اختصاصًا، فطالب هذه المواد محتاج أن يلم بكثير من عيون هذه الأبواب، وليس الأخذ من كل منها بطرف.

قال صاحبي: لقد حدثتني أن صاحبك الطاهر ـ رحمه الله ـ من أصحاب النقد، فهل لي أن أتبين هذا؟.

قلت: إن هذا لدى صاحبي كما هو الأمر، مما ينبغي أن يكون لدى كل دارس في الثقافة العربية، فقد كان ناقداً لأن الدرس في المواد القديمة يفرض هذا المنهج، ومن هنا استدرجه الأمر في أصول البحث أن يعرف الأدب الجديد في فنونه المختلفة.

قال صاحبي: ولقد كان لك مثل هذا وأنت ممعن في تاريخ العربية، الذي دفعك إلى الوقوف على الجديد من هذه العربية المعاصرة، وكأنك أيقنت أن هذه عربية جديدة لها مادتها ولها أساليبها، وأن كثيرًا مما يوجه إليها لا يجدي فتيلاً ماخلا مما يقدح بالثوابت من نحوها، وقد كان مثل هذا النظر لدى أخي الراحل، فهو واقف بالمرصاد لما ينشر المعاصرون، منبهًا على مايتجاوزون فيه المشهور المعروف من نحو العربية.

ولي أن أقول هنا: إن الدارس لا بد له أن يكون على صلة بعصره، فلا يقتصر على ترصد السقطات، ثم إن ما لدينا من معاصرة غير مقطوع عما كان لنا من تراث، وذلك أن مَسِيرة العلم منفصلة، بعضها آخذٌ برقاب بعض، والقديم لا بد أن يبقى الكثير من آثاره في الجديد، لقد أدركت هذا مما كَتبت، وفيما صنفت من كتبه، كما أدركت هذا لدى الأستاذ الراحل، ولا سيما فيما ينشره في مجلة «العرب» في مادة «كتب وفوائد» إنه يعرض للكتب في كثير من النقد ولنقد ما هو إيجابي وما هو سلبي.

قلت: أحسنت صاحبي فأنت رجل وُهِبَ المعرفة والفطنة. لقد عرفت الأستاذ الراحل ناقدًا، وعرفته مؤرخًا وأديبًا، وأضيف: أن في الاقتصار على وصفه بالناقد

ظلمٌ لهُ وابتعاد عن الحق، فهو رجل طُلَعَةٌ، يقرأ الجديد والقديم، ويفيد من هذا وذاك.

قال صاحبي: وكأنك وأنت صاحبه والحفيُ به، فقد عرفته قريباً منك كلاكما هو مدرك لسعة المعرفة ولا سيما في عصرنا هذا؟!

قلت: نعم لك أن تقول هذا، فهل أتاك من أنبائه أنه صنع «معجم المطبوعات السعودية» حين قضى أربع سنوات في الرياض في الجامعة، وقد يكون لك أن تعرف أن هذه الصنعة لا يدركها إلاّ سعودي يعرف الديار وأهلها.

قال صاحبي: لقد اتسع بنا مجال القول، ونحن في أول الرحلة، فكيف نصنع والمدى بعيد؟.

قلت: لعل هذا قد كان منك فما أن ذهبنا في أمر حتى استهوتك بُنَيّاتُ الطريق، فانصرفنا عن أمرنا إلى ماكان منك، وها أنا ذا قد أدركتُ طول الرحلة، وأن صفحات معدودة لا يمكن أن تفي بهذا المطلب، فلا بد أن أُنْهي مرحلة الدرس في دار المعلمين العالية وأجاوِزها إلى مرحلة أخرى في فرنسا.

قال صاحبي: لعل وقفاتنا هنا وهناك كانت مفيدةً، وإني لأدرك أنك أعددت للرحلة عُدّتَهَا، وأنت ممن يقول: قَبْلَ الرِمَاءِ تُمْلأُ الكَنَائِنُ.

قلت: نعم، أنا في حرم الذكريات، وحرام عليّ أن أفرط في أمر، وأدعني نهب يسير من الأمر يأخذني، فلا أصل منه إلى العسير وإلى الجدّ، وإني ممن يقول: من سار على الْجَدَدِ أمِنَ العثَار، ولقد كان لصاحبي ـ رحمه الله ـ ولي أن نكون من أعضاء البعثة العلمية إلى فرنسا، وكنت قد أتيت على هذا الأمر في سيرتي، وليس لي أن أبسط من أمرها وما لقيت بسببها في هذا المقام من الذكرى والرثاء.

قال صاحبي: لعل هذا قد كان قبل نصف قرن، وقد بلغني من خطبك ما كان مما عرضت له في أبيات بل قصائد.

قلت: نعم، لقد كان ذلك، وذهبت إلى بيروت، وبقيت في الجبل قرابة أسبوع، ثم كان لي أنْ أُفَارِقَ لبنان، ولي فيها شواغل أَقَضّتْ مضجعي، لقد جئت إلى ميناء

بيروت، ودخلت الباخرة اليونانية فوجدت صحبي الذين قصدوا مثلي فرنسا للدرس، وهم صاحبي الذي أتحدث عنه علي جواد الطاهر، وصالح خالص، رحمهما الله، وأخي المتعب المكدود علي الزبيدي.

قال صاحبي: وأراك تذكر أول مرة علي الزبيدي الذي أشرت إلى أنه متعب مكدود.

قلت: أجل إنه متعب مكدود طوال سني الدرس، فقد كانت له متاعب تتصل بصاحب كل أسرة فيها طفلة صغيرة حبيبة، ما أظنها أحسّت مما ينبغي أن تحس به من صفاء.. وإني لأدع هذا لأقول لك ما تفتأ صاحبي تصرفني عما أنا فيه؟.

لقد كان لي أن أجد في صاحبي علي الجواد وصلاح خالص ملاذاً، فقد تركت بيروت وفي النفس أسى عميق، لأني تركت فيها وفي إحدى مصحاتها شقيقتي المريضة مع خالتها وليس لهما من يرعاهما..

لقد وصلنا ميناء مرسيليا بعد تسعة أيام، تمخر بنا الباخرة اليونانية لُجّ البحر، فمنا من أطاق الرحلة، ومنا من لم يطق في دواره وصداعه.. لقد كان صاحبي - رحمه الله - يتأبط كتابًا ودفترًا، ويقرأ كتابه الفرنسي ويكتب في دفتره، وهو يفيد من اللبنانيين المغتربين معنا في الباخرة.

قال صاحبي: إني لأذكر حديث هذه الرحلة في ما سطرته في كتابك «من حديث الأيام» وأشرت إلى الاغتراب ومحنته، وذكرت بعض ما قيل فيه.

قلت: أقْصِرْ ودَعْ عنك هذا فما إليه سبيل، لقد جئنا إلى باريس بعد ليلة في القطار الذي انطلق بنا من مرسيليا.. وإني لأذكر أن موظفاً من سفارة العراق قد جاء إلينا، واستأجر لكل منا غرفة في أحد فنادق الحي اللاتيني، وكان من سوء حظي أن أسكن في غرفة أطل منها على شارع واسع كثير الصخب ليل نهار، وهو شارع القديس ميشيل، القريب من جامعة السوربون، وكان أخي - رحمه الله - في شارع فرعي غير بعيد عن الجامعة.

قال صاحبي: وهل كان لكما أن تنعما براحة لتدرسا وتُخْلِدَا إلى ماتبتغيان من الجد؟.

قلت: لقد ذهب صاحبي فاتخذ من غرفته محراباً لا يبرحها إلا إذا أراد أن يذهب إلى مطعم للجامعة، وأما أنا فقد وطنت نفسي على الضجيج.. لقد انتسبنا إلى مدرسة (الأليانس) التي تعلم الفرنسية لغير الفرنسيين، فكنا نجد في تلك المدرسة ناساً من أعمار مختلفة، وفيهم جماعات من الإيرانيين والأتراك وسواهم.

قال صاحبي: لعل هذه كانت سنة تحضيرية قبل البدء بالدرس الجامعي.

قلت: نعم: إنها سنة تحضيرية أفدنا فيها من هذه المدرسة، ومما كان من أمرنا في الجد الذي انبرينا فيه للوصول في تعلم الفرنسية إلى درجة تستطيع فيها أن نتابع المحاضرات في السوربون، لقد كان لنا ذلك حتى إذا انتهت هذه السنة ذهبنا نحن الأربعة إلى رئيس المعهد للدراسات الإسلامية، والأستاذ في السوربون، لنبدأ أول هذه المرحلة الجديدة، كان هذا الأستاذ هو ليفي بروفنسال المختص بالدراسات الأندلسية والأسبانية.

قال صاحبي: لعلي أذكر أنك كنت مبتئساً من هذا اللقاءِ لأنه لم يحسن وفادتكم؟!

قلت: نعم لقد كان شيءٌ من هذا، فقد قابلنا، ونحن أول بعثة علمية بعد الحرب الثانية إلى فرنسا، بفتور، لقد تناول جهاز الهاتف، وخاطب الأستاذ بلاشير قائلاً: هؤلاء أمامي أربعة عراقيين، لا يعرفون شيئًا حتى العربية ـ كذا ـ .

أقول: كان أصحابي قد أُسقِط في أيديهم، ولكني بادرتهم فقلت: لا نَيْأَسْ مما كان، فلنواصل المسيرة وليكن منا الجد كل الجد، لقد مضينا في الدرس، نحضر محاضرات قسم الليسانس في الأدب الفرنسي، ونحضر محاضرات الأدب العربي والتاريخ الإسلامي، في المدرسة العليا للدراسات التطبيقية في السوربون.

وفي هذه المدرسة أو هذا المعهد كان الأستاذ بلاشير يغطي محاضرة أسبوعية طوال ساعتين.. نستمع فيها للأستاذ فنفيد من نظراته في أصول البحث، كما نستمع لموضوعات يلقيها الطالب والأستاذ والطلبة يستمعون.. لقد أفدنا مما كان في تلك المحاضرات من ملاحظات الأستاذ.

قال صاحبي: وهل كان لكم مشاركة في هذه الموضوعات، وهل كلفتم بإعداد شيء تلقونه؟.

قلت: نعم، لقد كان لنا ذلك، وكان لنا بسببه أنْ أصبحنا قريبين من الأستاذ بلاشير، فكان لنا أيضاً أن اتفق كل منا على درس وموضوع للرسالة التي كانت للحصول على درجة دكتوراه الدولة.

كان صاحبي - رحمه الله - قد بدا له أن يبدأ الدرس الأدبي التاريخي في عصر السلاجقة في العراق، وقد أحسن اختياره، فانكب على درسه بجدٍ مرير، مع الأستاذ بلاشير.

وكان لأخي صلاح خالص - رحمه الله - أن ذهب إلى الأدب الأندلسي فذهب إلى الأستاذ بروفنسال، وانصرف أخي الزبيدي إلى الزهد وأدب الزهاد، فخلص لأبي العتاهية، وكان في هذا الزهد لأخي الزبيدي بعض السلوى المفيدة.

وأما أنا فقد طُلِبَ إليّ أن أذهبَ إلى درس اللغات السامية، ثم أَنْقَلِبُ منها إلى مادة في تاريخ العربية، فشقيت في هذا الدرس الذي لم يكن لي منه في العراق إلا القليل.. أقول انتهت بنا هذه الرحلة، وعدنا إلى بغداد في الجامعة في كلية الآداب وفي غيرها.

قال صاحبي: ولا بد أن تكونوا كما كنتم طلابًا في الدرس إخوةً متحابِيْنَ في حياتكم الجديدة.

قلت: نعم، لقد كنت أشد إخوتي أولئك صلة بأخي علي الجواد الطاهر - رحمه الله - أراه كل يوم في الكلية، ثم أراه مع زوجته في بيتي.. لقد انعقدت بيننا مودة ما أحسب أنها ستنفصل عراها.

ولكني حُمِلتُ أن أنهي العمل في الكلية، وأطْلب إحالتي على المعاشْ وأنا مضطر إلى ما عزمت عليه وتركت الديار، ولا أدري ما صنع قالة السوء، وأنا أعرف منهم فلاناً وفلاناً بيننا، فإذا صاحبي منحرف عني، أنا الذي لم أتنكر لمودته وإخائه، حتى هذه الساعة، وليس بمانعي عن ذكر ما كان بيننا من وفاء.

رحمك الله أخي الأستاذ علي الجواد الطاهر الذي سبقتني في الرحلة

أنت حيٌّ

راضي مهدي السعيد

لَسْتُ أرثيكَ وإنْ حَقَّ الرثاءُ ... أنت حي الفكر والفكر بقاءُ
أنتَ حي بالذي أبْدَعْتَهُ ... وبما أعطيت إذ جل العطاء
لست أرثيك وهل يرثى فَمٌ ... وضمير فيهما شع النقاء
وجَرَتْ ضافية أحْرفُها ... كلمات هي روح وانتماء
لست أرثيك بياناً طالما ... شهد الناس له والبلغاء
فعلى كل فم أنت فمٌ ... وعلى كل سري أنت نداء
هكذا كنت وكانت لغةٌ ... فيك تحيا وبها يسمو الحداء
لست أرثيك أنا الصوت الذي ... منه ماندٌ على فانٍ بكاء
ياأبا رائد ماكان الأسى ... ثوبك الأبهى وللثوب بهاء
لاولا كنت ترى الدمع الذي ... يشعل اليأس صدى فيه إرتواء
ياأبا رائد دنياك خطًى ... مالها بالزبد الفاني التقاء
فلقد عانقهاأشرعة ... لابتسامات الضحى فيها اجتلاء
ياأبا رائد قد غادرتها ... وهي دنيا كل مافيها ازدهاء
ومنَّى تنتهي أشواطها ... عند من فيه لمصراها إنحناء
أنت من عشت بها مؤتزرا ... بالذي يعلوه بالطهر احتماء
أنت من طالعتها مُتَّقِدَ الروح ... والفكر ومسراك العلاء
أنت من روّضتَهَا كيلا ترى ... فيك إلا مابه يزكو النماء
وبه يلتمع الطيب يدًا ... وجبينا وبه يعلو البناء
هي دنيا يجرف الطين ولا ... تعتلي الصخر وقاع الطين ماء
كل مافي موقد الجمر لظًى ... وبكف الرمل رمل وهواء
هكذا أنت تسلّقتَ الذرى ... ياأبا رائد فكرًا يستضاء
وضميرًا ماالتوى في عاصفٍ ... أبدًا يومًا ولا اهتزَّ الإباء

يـاأبـا رائـد فـي أعـمـاقـنـا أنـت سـفرٌ مالمعناه انتهاء
قـد قـرأناك حيـاة كـلـهـا مُثلٌ عـلـيـا وأفـكـار وضـاء
وسـنـبـقـى أبدًا نـحـمـلـهـا كـلـمـات لـيس يـطويها الفناء
مـاتـرانـا ولـنـا فـيك اقتداء سنرى الأيـام (...) أم نـشـاء
سـترى الأيام فـي قـبـضـتـهـا تحتوينا وهـي جُبٌ وغـطـاء
يـاأبـا رائـد قـد عـلـمـتـنـا أن نـصـون الحرف والحرف ذماء
وصـدًى لاتـنـطـفـي شـعلَته فـي دروب يـتـغـشـاهـا الـعـنـاء
والنفوس المشرئبات عـمًى فـي زمـان كـلـه لـلـقـهـر داء
فـي زمـان كـل يـوم يـلـتـقـي عـنـده ألـف فـم فـيـه الـتـواء
يـاأبـا رائـد كـم غـالـبـتـهـا محنًا لـلـفـكـر ما فـيـهـا انجلاء
فـإذا الأيـام فـي سـاحـاتـهـا أبـحـرٌ كـل شـواطـيـهـا شتـاء
وإذا كـل الأمـانـي والـرؤى الخـضـر أطـيـافٌ يُذريّهَا الـهـواء
يـاأبـا رائـد لـو أن الخـطـى تـلـد الـصـحـو لمـا ساد الـعـمـاء
ولمـا بـاتـت تـغـنـي ألمـا واحـتـراقًا أعـين خـضـر ظِمَاء
ليتنا لم نـعرف الصحو ولم نـلـمـس الجـمـر لـيـد ميـنـا الحـفـاء
ليتنا عشنا عـلـى أوهـامـنـا وتـركـنـا الـعـلـمُ إهتِداء
لـنـعـمـنـا بـالـذي نـزرعـه ولـزرع الـوهـم شـبـع وخـواء
ليت من أطعمنا حُبَّ الـعـلى مـانـتـمـانـا لـيـروينـا الـشـقـاء
لَبقينا مثل مـن نـشـهـدهـم يـلجون العيش حيث الانطفاء
يـاأبـا رائـد عُذرًا إن جـرى شـجـن بـي فـالمـسـراةُ انطـواء
أتُرى بـعـدك تحيـا أحـرف مـلـهـمـات وشـذاة لـن يـراءوا
يـاأبـا رائـد مـاغـادرتـنـا أنت بـل بَاعَدنا عـنـك الـلـقـاء
أنـت فـيـنـا مـاثِلٌ بـل حـاضـر وهـو ذا حـقًا وجـود لاانمـحـاء
كذب الموت فـلـن يقوى عـلى محـو صوت هو في الأرض ارتقاء

معجم المطبوعات العربية

عبد العزيز السنيد [(١)]

(في ١٣٨٣/٥/٢١هـ ٦٣م وصلت الرياض متعاقدًا للتدريس بكلية الآداب من جامعتها، وكان لا بد لي من أن ألم بشؤون الأدب في هذه البلاد. وبدأت أسأل، واشتري وأقرأ.. فرأيت شيئاً ذا بال، وحركة جديرة بالاهتمام)

هذا ما جاء في المقدمة الأولى من المعجم الذي ألفه الدكتور علي جواد الطاهر أستاذ الأدب العربي ـ قسم اللغة العربية ـ في الجامعات العراقية وله عدة مؤلفات في هذا المجال ومجموعة من الدراسات القيمة في المذاهب الأدبية والمدارس الفكرية والفلسفية والروائية العربية والأوربية ولا يزال يثري المكتبة العربية بمؤلفاته العلمية.. وقد عهد إليه تدريس الأدب الحديث في كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود.. ومن هنا بدأ مسيرته الأدبية في القراءة والمتابعة عن طريق زيارة المكتبات العامة والخاصة.. والاحتكاك بالوسط الثقافي والأدبي وكانت خطوة البداية.. والبداية كما يقول (تقتضي عملاً مكتبيًا منهجيًا) أي حصر الآثار الصادرة من دواوين وغيرها. وبدأت ولكن أين؟ ليس هناك من مكان يجمعها أو يجمع أكثرها، وما عليك إلا الجد والصبر، وهكذا كانت حصيلة السنوات الخمس التي قضاها في بلادنا حصر ٩٠٪ ويزيد من المؤلفات ويقول: (أما كيف حصلت على هذه الكمية فبالجهد والتعب والعرق والتراب) وهو يعني هنا غبار الكتب ـ في المكتبات العامة ـ ويصف لنا عمله بينها قائلاً: (كنت أحمل معي دائمًا دفترًا صغيرًا أخصص فيه لكل مؤلف صفحة أضمنها اسم الكتاب، ومحتوياته، وتاريخ طبعه، مكانه، وعدد الأجزاء والصفحات.. وما إلى ذلك مما يتصل بالكتاب أو بحياة المؤلف ويحدثنا في المقدمة الثانية لمعجمه عن تلك المرحلة فيقول: (كان الدافع الأول ـ إذن هو الإلمام بالأدب في المملكة العربية السعودية، نشأته وتطوره، واتجاهه واعلامه، والعوامل المؤثرة فيه، ومنزلته بين أدب الأقطار العربية الأخرى.. ثم درسه وتدريسه، فليس من المنهجي أو

(١) جريدة «اليوم» عدد ٦٢٥٨ في ١٤١١/١/١٢هـ

المعقول أن ندرس في جامعة الرياض (جامعة الملك سعود) أدب مصر وأدب العراق ولا ندرس أدب البلد نفسه!).

لقد أضاف الدكتور إلى الدفتر الصغير، والذي سماه (الدفتر الكفِي) بحجم الكف والذي لم يفارقه في تجواله باحثًا ومنقبًا وناقلاً.. أضاف دفترًا أخضر اللون، خصصه للجانب الأدبي، فيما يجد له صاحبه من معلومات ومصادر، وما ينقل إليه من مختارات ونصوص، وما يسجل لنفسه من خطوات ويضع من خطط، لقد تمخض وجود الدكتور الطاهر في بلادنا عن هذا السفر العام «معجم المطبوعات السعودية» وانطلاقاً من فلسفته في هذا المجال والتي عبر عنها قائلاً: (لقد أشعر بأهمية معجم للمطبوعات خاص بكل بلد عربي.. فلقد مضى العهد الذي يمكن أن يعمل فيه شخص واحد معجمًا لكل البلدان، وأشعر كذلك ـ بأهمية المعجم مبكرًا كي يمكن الاستدراك عليه، ولكي يحصر ما يمكن حصره من مؤلفات الحاضر قبل أن تصير ماضيًا).

إنها في الواقع قصة جهد كبير، وشعور بعظم المسؤولية العلمية، وأهميتها الفكرية، وآفاقها الأدبية وأثرها الكبير في مجال التطور الفني والتأليفي، لدعم الحاضر الثقافي، وحصر التراث الحضاري، عبر العصور قديمها وحديثها.. وهذه القصة العلمية لا يمكن تلخيصها في مثال، ولا يمكن صياغتها بأسلوب أدبي كأسلوب الطاهر المتميز فقراءته في المعجم، أو في غيره من الدراسات تنقلك في عالم ساحر أخّاذ من التعابير الجميلة الأنيقة، والأقوال الحكيمة الصادقة، والجمل الأدبية المفرحة المعبرة، ومشروعه ـ المعجم ـ مثل كما يقول: (رسالة. وواجبًا) إن المعجم يتكون من جزئين ساعدت جامعة بغداد على نشره. وقد حدد أبعاد موضوعه في الأمور التالية:

• ـ إنه يضم في ـ الأساس ـ ماصدر في العهد السعودي مبتدئاً بـ ١٣٤٤هـ في مجالات التأليف والنشر والترجمة في داخل وخارجها.

• ـ ويضم ما صدر لمؤلفين عاشوا في نجد والأحساء قبل أيام الدولة السعودية الثالثة ويذكر المؤلف على سبيل المثال: مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

• ـ ويضم ما استطاع تسجيله من مؤلفات حجازية طبعت قبل توحيد المملكة وغالب هذه الكتب دينية أو لغوية، ومنها ما كان معاصرًا للدعوة الوهابية ومتصلاً بها.

• ـ ويضم أيضًا ما أصدرته الدولة وفي مختلف وزاراتها ودوائرها، من كتب وإحصاءات لأهمية هذه المطبوعات في بابها.

وقد عاد الدكتور إلى بلاده ١٣٨٨/٣/٢٦هـ، ولم يعد كما أشار في مقدمته الأولى بإمكانه متابعة الكتب التي تصدر في السعودية على وجه الدقة.. وقد رتب معجمه على حروف الهجاء لأسماء المؤلفين..

وقد ترك الدكتور الطاهر في الأوساط الجامعية الصحفية والفكرية في بلادنا أثرًا طيبًا واسمًا محمودًا وعملاً مشكورًا وقد فتحت مجلة «العرب» التي يصدرها علامة الجزيرة العربية شيخنا الكبير الشيخ حمد الجاسر.. فتحت صدرها لنشر حلقات «المعجم» ومقدماته تباعًا ـ وكان هدف المؤلف كما جاء في مجلة «العرب» (رأيت أن أعرض هذه المادة التي انتظمت لديَّ على المثقفين وأهل العلم من أبناء البلاد التي يهمها الموضوع قبل غيرها قاصدًا من ذلك أمرين:

الأول: الاطمئنان إلى الصحيح منها.

الثاني: تصحيح الخطأ وإكمال النقص بالتنبيه على من لم يذكر من الأعلام، وما لم ينص عليه من الأجزاء والصفحات والموضوعات، وتواريخ الطبع، وأسماء المطابع وأماكنها... وطالب قراءة «العرب» أن يرسلوا بملاحظاتهم، وبذلك كما قال أيضًا (ألقي بجزء كبير من المسؤولية عن عاتقي كما أهيىء للمعجم مناسبة جديدة من الخدمة).

هكذا خرج معجم المطبوعات العربية ـ الخاص بـ (المملكة العربية السعودية) إلى عالم الحياة الفكرية والثقافية والأدبية والمكتبية والتأليفية، بعد تجوال صباح مساء في مكتبات الرياض، الخاصة والعامة، ومتابعة الأدبيات السعودية أينما صدرت، في داخل البلاد وخارجها.. والدكتور يعد العدة لإصدار الطبعة الثانية لمعجمه القيم،

وهو يكرر الدعوة من جديد للأدباء والمؤلفين والمفكرين من أبناء البلاد بتزويده بملاحظاتهم، مما يصحح خطأ، أو يسد نقصًا، أو يزيد علمًا.. ليفيد من ذلك في طبعته الثانية المرتقبة.

أيُّها السعيد الميت!!

طه حامد الشبيب(1)

ايها العظيم الموت (مبروك لك) الطاهر
ولتسعد بلقيتك ماشاء الله أن يقيك قدرًا
إلا أننا لنغبطك عليه حقًا
كان في مآقينا بين الجفن والجفن
كان تحت شغاف القلب.. بين النبضة والنبضة
كان هناك يكتب.. كان هناك يقرأ
خلّناه محروسًا هناك
كيف زينت له الرحيل؟
حين راحت النبضة تَخزِ القلب، والجفن يطرف، كان علينا أن نعلم
آنئذٍ بأنه كان ينسلُّ ملبيًا
إنما الأجفان مطبقة كانت، والقلب مفتون بمن فيه
والطاهر يكتب وهناك يكتب
ينضّد الورقة على الورقة، ويرصف المخطوط إلى المخطوط
وعنق الزمن ملويٌّ بين كفّيه
فأنّى لنا أن نعلم بأن الرجل ينسل مُلبيًا لك أيها العظيم السعيد بلقيته!

---

(1) «الجمهورية» في ٢٢/١٠/١٩٩٦م.

كيف زينت له الرحيل؟
أما علمت أنك غير تاركٍ لمآقينا سوى فراغ لَنْ يملأ
وهذيان مقيتٍ يسميه البعض دمعًا وأسميه أنا..؟
وللقلب لو تعلم تركت نبضًا لاملامح له.. يَبَابٌ ربما.. وربما سكونٌ بليدٌ.
إنما عزاؤنا أنك أبقيت لنا روحه منضودة على مئات الرفوف.. وبعد..
(مبروك لك) .. مبروك أيها السعيد الموت!!

رحيل شيخ النقاد في العراق
علي جواد الطاهر

صحيفة «الشرق الأوسط»[1]

غَيّبَ الموت ببغداد شيخ نقاد الأدب في العراق، الدكتور علي جواد الطاهر عن عمر ٧٥ عامًا، وذلك قبل يومين، والطاهر مولود في مدينة الحلّة عام ١٩١٩م، وحصل على شهادة ليسانس لغة عربية من دار المعلمين العالية ببغداد عام ١٩٤٥، كما حصل على ليسانس آداب من كلية الآداب جامعة القاهرة ـ جامعة فؤاد الأول ـ عام ١٩٤٨م، ونال شهادة الدكتوراه عام ١٩٥٤م من جامعة السوربون في باريس. ويعتبر علي جواد الطاهر صاحب مدرسة في النقد الأدبي، حيث يقوم منهجه النقدي على الذائقة الأدبية اعتمادًا على النص الأدبي، وهو القائل: نقدنا يقوم أولاً وقبل كل شيء على النَّصّ، بعيدًا عن أي منهج آخر، أو مؤثر خارجي، وبعيدًا جدًا عن ذلك من أهوائنا ورغباتنا، لأن السيادة للنص نفسه، ولما يعرب به عن نفسه من جمال ومزايا. لم يكن الطاهر متحمسًا للمدارس النقدية الحديثة، التي تقوم على دراسة الشكل فقط، بل هو أكثر اهتمامًا بالجوهر، دون أن يتعصب ضدّ المناهج النقدية الجديدة، رغم أنه عُرِفَ باعتباره كلاسيكي المنحى في نقد النصوص الأدبية،

---

(١) العدد رقم ٦٥٣١ في ١٥/١٠/١٩٩٦م.

وخاصة القصة والرواية، كان الطاهر يقرأ غالبية النتائج الأدبية، سواء كانت لشباب تظهر أسماؤهم للمرة الأولى، أو لأسماء معروفة وكبيرة، باحثًا عن القيمة الحقيقية للإنجاز الإبداعي، ومشيراً بأسماء صارت لها شهرة واسعة من خلال ما أنجزت من أعمال قيمة.

ويّعَدُّ الطاهر أستاذاً لأجيال عديدة من الأدباء والنقاد في العراق، من خلال عمله كأستاذ في كلية الآداب بجامعة بغداد، وكان أسلوب تدريسه يقوم على مبدإ ترك الحرية المطلقة لطلبته، باختيار المنهج النقدي المناسب، والتطبيق العملي على نصوص يختارها طلبته، دون أن يعترض على أحد في منهجه النقدي، وللطاهر عشرات الكتب والبحوث الأدبية، وكان قد أشرف على العشرات من رسائل الماجستير والدكتوراه، وحتى يوم وفاته كان الطاهر ينشر مقالاته الأدبية في الصحف العراقية.

استذكار وفاء:

علي جواد الطاهر: لماذا في الخريف سقطت أوراق شجرتك؟

حاتم الصكر [1]

تعود معرفتي الشخصية - إذا استثنينا سنة دراسية واحدة سابقة بالدكتور الطاهر - إلى مطلع الثمانينات، استقبلني في مدخل حديقة بيته في الجادرية ببغداد مبتسماً متأنقًا، بشكل غير متوقع من شيخ في عمره، وعلمت فيما بعد أثر تكرر زيارتي له وزياراته لي في «الأقلام» والجامعة والبيت أن ذالك طَبْعٌ فيه كنت أنظر إلى قامته المنتصبة وحرارة لقائه وأوازن ذالك بشموخ نخلة عراقية سامقة في حديقته قال لي فيما بعد: إنها صارت تستعصي على فلاح الحديقة حين يحين موسم تلقيحها، وقد ظهرت ذات لقاء صحفي بموازاته تمامًا.. ظل وجود الطاهر في نفسي مقترنا بهذا الشموخ، وكلما اقتربت منه ازددتٌ قناعة بهذا الانطباع الأول.

---

(١) «الجمهورية» في ٩/١١/١٩٩٦م.

وجلب الشموخ انتباهي في ذالك اللقاء تواضع الطاهر، فقد سلمني مقالاً للمجلة ولم يضع حرف (الدال) قبل اسمه، وحسبت الأمر سهواً، لكنني علمت أن الطاهر يمقت هذه الصفة، ولايحب أن يقرنها باسمه حيثما كتب، ووسط كتبه التي تضيق بها غرف المكتبة، وهي عمادة حجرة استقبال أصدقائه وطلابه، أحسست أنه يعرف كل كتاب فيها ماإن نتحدث عن كتاب إلا وذهب ليستله حيث وضعه بنظام ودقة.

ولايضاهي ذالك إلا حرصه على اقتناء الكتب والدوريات وقرائتها، حتى وهو في أيامه الأخيرة، وكانت المطبوعات ترد عليه من كل مكان، وهو فرح بها كالطفل، بل كثيراً ماهاتفني لمجرد سماعه بصدور كتاب جديد، سائلاً إن كان يمكنني إحضاره، وقد كنت لسنوات عديدة أتسلم حصته المقررة من منشورات دائرة الشؤون الثقافية، وسواها من المؤسسات الإعلامية، وكذالك الدوريات الشهرية والفصلية.

كنا لأعوام طويلة بعد ذالك اللقاء الأول نلتقي لساعات، وأحيانا كثيرة نتهاتف يوميا، بل أكثر من مرة في اليوم، أسأله ويجيبني عن مصدر أو مرجع أو فكرة، ولا أبالغ إذا ماقلت: إنه كان يمدني بشحنات من العزم كلما ونى عزمي، لسبب من الأسباب، ويطلب مني أن يكون لي دائمًا هدف محدد أشتغل لوصوله قريباً أو بعيداً.

تواضع الطاهر، وعلمه الغزير، وموسوعته ودقة ملاحظته، وأسلوبه الخاص في الكتابة، لا يكملها إلا خلق ذالك الإنسان الرائع، أقول أحيانا ـ لشدة نقائه وحسن ظنه بالأخرين ـ : إنك لم تخلق لهذا العالم، بل كأنك جئت من كوكب آخر، وكان يضحك بهدوئه المعروف، ويكرر مقولاته المأثورة من قبيل: سالم تَسْلم أو أرح نفسك بما يريح الأخرين، أو دعهم ينعمون بجهلهم، لكنه في العلم فقط لايرضى بمجاملة أو رياء.

كانت نيته الحسنة سببًا في رهانات خاسرة كثيرة، اعترف لي منها برهانه على عدد من القصاصين، فرح بإصدارهم الأول، وكتب عنهم متحمساً، لكنهم خذلوه بعد ذالك، حين راحوا في أماكنهم أو تخلفوا.

وتلك إحدي مزايا الطاهر الذي ماكان يحركه في الكتابة إلا انطباعه الأول، لكن

الفرق بينه وبين سواه من الانطباعيين الأكاديميين أنه يجد في دراساته تعليلاً لانطباعاته، ويزجي للقارئ أدلة نصيَّة على ذالك، وهو الذي كتب مبكرًا، وقبل هوسنا وحماستنا للنصوصية وموت المؤلف، مقالته الشهيرة (النص أولاً).

يمكنك أن تزور الطاهر متى شئت، نهارًا أو مساءً فهو يستيقظ مبكرًا، يرتدي ثيابه الأنيقة، ويَقْتَعِد كرسيًا مريحًا في ظل نخلته السامقة، صيفًا، أو في مكتبته الصغيرة، شتاء، ثم ينام باكرًا كعادته، ليستعين على القراءة والكتابة، كان لايتردد في إنجاز أي تكليف ببحث أو ندوة أو محاضرة، ويعد مساهمته سلفًا، فهو يكتب كل شيء حتى مناقشاته، وفي السنوات الأخيرة صار طلابه يزورونه في منزله، ليأخذوا الدرس وهم طلاب دراسات عليا، لكنهم يقضون معظم الوقت في أبهاء مكتبته، وهو لايرد لهم طلباً، وخلال نقاشاتنا المستمرة وخلافاتنا، لم اكن أملك إلا الاحترام والمودة لهذا الرجل، الذي تعلمت منه الدقة والأناة، والتحقق، ولم يكن رغم كبر سنه ودراسته الأكاديمية محافظاً أو خائفاً من التجديد، لكنه يكره الانبهار الساذج بالغرب، وهو الذي تعلم بباريس، وزامل كثيراً من المستشرقين، ولا يضاهي علمه وغزارة تآليفه إلا حسُّه الوطني، فما كان طوال حياته إلا مع وطنه في الأدب والحياة والسياسة، محبًا لإبداع العرب وتراثهم، واعيًا مايحيق بهم ومايُراد لهم.

وقد تجلَّت وطنيته في احتفائه بأدباء العراق، والوطن العربي، واهتمامه بنتاجاتهم، وحركة الثقافة عمومًا.

ربطته بشعراء بلده وأدبائه ومثقفيه صلات قوية، فهو لم يكن أسير الدرس أو الرتبة الجامعية، بل كان يتطلع إلى خارج الأسوار دائمًا. ولأنه مفطور على الوفاء والصدق، فقد كان يحرجه أن نحتفي به وقد شهدت أكثر من مناسبة كان الطاهر محورها، لكنه كان أكثرنا ترددًا وضيقًا يمشي إلى مناسبات الاحتفاء به مرغمًا، وتفيض عيناه بدموع العرفان والشكر والامتنان، حصل هذا في حلقة دراسية عنه في مدينته (الحلة) وفي (نادي الأدباء) ببغداد وفي المحور الدراسي الخاص الذي اعددناه عنه في المجلة.

كنت أسأله دائمًا عن كتابة ذكرياته، وألححت عليه حين استحدثنا باب الذكريات

في «الأقلام» ليكتب جزء من ذكرياته فما كان إلا أن جاءني بفصول عن أساتذته وكأنه يقدم لجيلنا أمثولة في الوفاء وإقصاء الذات وأوراقها.

لقد عاش الطاهر حياة واسعة تفوق عمره، حفلت بالعطاء المستمر مترجمًا وكاتبًا مقاليًا، له زوايا أسبوعية في الصحف، ودراسات مطولة في المجلات، وكتبه في النقد الأدبي، مدارسه ومناهجه وتطبيقه في النقد والأدب ودراسات التراث الأدبي، وذالك كله معزز بحيوية شابة، وديناميكية فذة، جعلته في قلب عصره، لاعلى حاشيته دائمًا.

فلماذا أيها الجواد الطاهر تركتنا، واخترت فصل الأحزان (الخريف) لتنزع عنك أوراق شجرتك السامقة الوراقة.

لماذا غادرتنا وأنت تكتب لنا، حتى في أيامك الأخيرة عن الأمل والمستقبل، وأين نخبئ فرحتنا بوجودك معنا، رمزًا لعالم جليل وقلب كبير، إذن ليس لنا عزاء إلا في دوحة قوية أرسيتها في الأرض لن تذهب جفاء.

ومات الطاهر!

حاتم صالح الضامن [1]

[(مات): ماأثقلها من كلمة، وما أبلغ وجعها للنفوس، وما أعمق أثرها في الاحساس والشعور، إنها تشعر بالفراغ الهائل الذي يفصل بين الإنسان وبين هذه الحياة، التي هي وسيلة ارتباط واتصال بالعالم، وتحدث من الوحشة والفراغ بين من كانت تربط بعضهم ببعض أواصر الإخوة والمحبة والتآلف والتقارب، ولكن تلك سنة الله في خلقه، حياة ثم موت، ثم مايعقب ذلك، ولن تَجدَ لسُنَّة الله تَبْديلاً. حقًا لقد مات الطاهر، فهوى بموته علمٌ شامخٌ من أعلام الفكر والعلَم والأدب، بعلمه وخلقه وما اتصف من كريم الصفات، فاكتوى بحرقة اللوعة وألم الحزن ووطأة وقع الفجيعة به ذووه وتلاميذه وعارفو فضله، وما أكثرهم، ولعل مما يخفف ألم المصيبة أن الطاهر ـ وإن أحدث فراغًا

(١) «العرب» س٣٢ ص١٤٥

بانتقاله إلى عالم الخلود ـ فقد أبقى آثارًا نافعة تخلد ذكره، وفي الأثر: «إذا ما ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» ومنها (علم ينتفع به) والإنسان أي إنسان قد كتب عليه في هذه الحياة الفناء، ولكن ذكره الطيب هو عمره الباقي كما قال المتنبي:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ... ماقاته، وفضول العيش إشغال]

انتقل إلى ـ رحمة الله ـ تعالى أستاذنا الدكتور علي جواد الطاهر في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٧ جمادي الأولى١٤١٧هـ الموافق ١٩٩٦/١٠/٩م، بعد مرض عضال، لم يمهله طويلاً، وبفقده فقدنا عالماً كبيرًا، ومربيًا فاضلاً أجهد نفسه وأضناها لتكون نبراسًا يهتدي به الدارسون، وأخص مجلة «العرب» الغراء وهي حبيبة فقيدنا، بترجمة موجزة لمسيرته العلمية: ولد عام ١٩٢٢م في مدينة الحلة، أنهى الدراسة الابتدائية والثانوية في الحلة، حصل على ـ ليسانس ـ دار المعلمين ببغداد عام ١٩٤٥م، حصل على ـ ليسانس ـ كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة عام ١٩٤٨م، حصل على ـ دكتوراه دولة ـ من جامعة باريس ـ السوربون ـ كلية الآداب عام ١٩٥٤م، عين أول مرة في التعليم عام ١٩٥٤م، وبقي ثمانية وعشرين سنة في التدريس في دار المعلمين العالية ببغداد، وكلية الآداب ببغداد، وكلية الآداب بالرياض، ثم كلية الآداب ببغداد، أحيل إلى التقاعد عام ١٩٨١م، ثم أعيد إلى جامعة الكوفة عام ١٩٩٢م، ومنها إلى الجامعة المستنصرية كلية التربية عام ١٩٩٤م.

الدرجات العلمية : مدرس: ١٩٥٤م، أستاذ مساعد: ١٩٥٩م، أستاذ مشارك: ١٩٦٩، أستاذ: ١٩٧٠م.

المقالات والبحوث : كتب مئات البحوث والمقالات في مجلات عراقية وسورية وسعودية ولبنانية وكويتية، منها:

«المعلم الجديد» و«المجمع العلمي العراقي» و«الأستاذ» و«كلية الآداب» و«المورد» و«الأقلام» و«مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» و«الأديب» و«الآداب» و«عالم الكتب» و«العرب» و«الفيصل» و«المنهل» و«البيان».. فضلا عن الصحف.

مؤلفاته : [ثم سرد الدكتور الضامن اسماءها ـ كما وردت عن الدكتور الطاهر في نهاية الكتاب].

وأعلمني ـ رحمه الله تعالى ـ أن له كتابين يطبعان الآن بِعَمّان، بسعي الشيخ حمد الجاسر ـ حفظه الله تعالى ـ.

رحم الله تعالى فقيدنا الغالي وأسكنه فسيح جناته و(إنّا لله وإنّا إليه راجعون).

رحل الطاهر.. طاهراً !!

غازي العبادي (1)

انكفأتْ عربه النقد الأدبي في العراق، وفي الوطن العربي برحيل الرجل الذى أمسك بزمامها مدة نصف قرن، وسار بها على الطريق السوي ـ الدكتور علي جواد الطاهر – والذي زهد بالدنيا واكتفى بمجد الكلمة الصادقة، التي تبقى في ذاكرة الأجيال تؤشر للجيد والاستثنائي في حياتنا الثقافية والتربوية بشكل عام.

فقد كرس الرجل جهوده النقدية لتنوير فن النقد الأدبي، ووضع لمسات معاصرة في مفاهيمه، دون اقتلاعه من تربته العراقية، وبدون شك أن تجربة الدكتور الطاهر بحاجة إلى ندوات فكرية ودراسية، لبحث مناهجه الثقافية وجهوده العلمية، لتضاف إلى ذخيرة الأدب النقدي العربي في القرن العشرين.

رحل الطاهر طاهّرا خالصًا من العيوب، التي قد تسجل على هذا الناقد أو ذاك إذ لامصلحة له بالعداوات، فقد كان رحمه الله صديقا للجميع.

وداعًا الطاهر

طالب عبد الرحمن(2)

مَثَلُ الكتاب الأستاذُ بالنسبة للطالب في الجامعة، فكلٌّ له عقله، ومنهجه، وآراؤه، وما يقدمه لطلابه، على أن هذا لا يمنع الطالب من أن ينظر إلى دور أستاذ مّا أنه

(1) «الجمهورية» في ١٩٩٦/١٠/٢٢.
(2) جريدة «العراق» السبت ١٢ رجب ١٤١٧هـ (٢٣تشرين الثاني ١٩٩٦م).

هامشي، في حين ينظر إلى بصمات ذلك يجدها عميقة في ثنايا عقله، لاتَمّحي بغبار الزمن، ولست بذاهب بعيدًا حينما أقول: إن الدكتور الطاهر ـ رحمه الله ـ يشبه ذلك الكتاب الذي نعتقد أنه دائمًا سابق لك متقدم عليك، وأنه في قراءته الثانية يعطيك أكثر مما أعطته القراءة الأولى، ولا تتوانى عن قراءته مرّاتٍ ومرات، فالدكتور الطاهر كان مدرسة بكاملها في انضباطه، وفي علميته، وفي فرصه واستفزازه لفكر طلبته، ومحاولته انتزاع اجتهادٍ لهم، وإسهام منهم، فيما يعرفون ونقد لما يتعلمون.

لم يكن الطاهر يستخدم مشاجِبَ، لإضاعة وقت المحاضرة في حديث عن رأيه في المرأة، أو الحب، أو مشاكل من هذه السفاسف، ولم يكن للنرجسية في حياته مكان، ولذا كنا نَرَىَ المتسلحين بالمداهنة والتزلف والمصانعة كَاسدي البضاعة، فكيف لهم التعامل مع من يُعْلِي شأن الطالب الذي يناقشه ويرفض رأيه، والطاهر لم يتكبر قط على الاعتراف بخطإ علمي، أو هفوة، ولو كان من ينبهه إليها شخص بلغ عدد سنواته عدد كتب الطاهر. وإذا كنا نرى من يفهم ويؤلف ويكتب، ولكنه لا يعطي الطالب، على اعتبار أن الطالب لا يستحق إضاعة الوقت معه، يكفي تدريسه دقائق معدودة، وقضاء بقية الوقت في الدردشة، فإن الطاهر من القلة الذين أعطوا كل ما عندهم لطلابهم بقدر ما أعطوا لتأليفهم.

وإذا كان المنهج السائد في الدراسات الإنسانية هو الدرس والحفظ (عدد واشرح واحدة منها) فإن الطاهر يطلب من تلامذته تحريك ذهنهم، لأن الطالب كما قال في أخريات أيامه (مُعَرّضٌ لأن يفكر في ما لم يكتب عنه أحد من قبل، ومن ثم لا بد أن يهيىء نفسه بأعمال الفكر والمدارسة)، ولذا يتذكر طلابه تلك الأسئلة التي لا ذكر لها في كتاب، حيث كان الطاهر يعطيهم الأسئلة، ويتركهم من غير أن يراقبهم في الامتحان.

عن القلم العفيف

قاسم عجام[1]

لست عاجزًا عن أن أقول فيه كلمة وفاء، فقد علمني ـ بَيْنَ من عَلّمَ ـ الكثير

(١) جريدة «العراق» ١٢ رجب ١٤١٧هـ (٢٣/١١/١٩٩٦م).

والجيد أيضًا، ولكن الكلمات تكاد تهرب مني، وما ذلك إلاّ لأنني أهابه، ولقد استمع لي ذات يوم في مدينته هذه وأنا أتحدث في فنه المقالي فما جَرُؤْتُ على أن أرفع عيني إليه هيبةً له، فما كان - وكما سيبقى - إلاّ مسيرة جهاد، صبور في الدعوة إلى قيم مُثْلَى في الثقافة بعامة، وفي الأدب والبحث الأدبي بخاصة، فأيّةُ هيبة لمجاهد صابر، أخذ نفسه قبل غيره بما سعى إليه! وأيّةُ هيبة له وقد رسخ للأمانة العلمية وأخلاقيات المثقف مثلاً باهرًا اسمه علي جواد الطاهر!!.

أفأرثيه؟! يالِجُرأتي ... يالِجُرأتي !

يالِجُرأتي وهو مقيم فينا كتابًا مفتوحًا غنيّ الصفحات، ويالِجرأة من ينعاه وهو باق في تاريخ الثقافة الرصينة مثلاً ورفعةً، ويالـلحزن كيف يتطفل إذ يريد أن يلفنا مع أن مجد إنجازه بستان مفاخر دانية القطوف.

حسنًا.. لكنها إرادة الله، لكنه الموت يا سيدي، فبالحزن كله ننعاه.. لكننا بالفخر كله نؤكد ذكره ولا أقول ذكراه.. وبالفخر كله يعلن الآن كثيرون أنهم تلاميذ مدرسته الرحبة، وبالفخر كله أهرع ويهرعون إلى أعماله الباقيات.. رائعات رائدات هاديات.

ولقد قالها يومًا.. إنه سيبقى فينا، وما كان بهذا إلاّ واثقًا بحقه، عارفًا بنفسه، وأنه سيبقى فينا من خلال مقالته أكثر ما يبقى.

ولكن أين نذهب بإنجازك في البحث والتحقيق. أستاذي الكريم! ومن يَجْرُؤ على أن يجعل أو يتجاهل نحتك في الأجيال مربيًا معلمًا أستاذًا؟! وهؤلاء التلاميذ النجباء الذين صاروا أساتذة أفاضل.. أفليسوا هم غرسك الأوْفَى وصنيعك المتجدد؟!.

أيها البهيُّ علي جواد الطاهر.. أنت باقٍ في عراق الخيرْ أكثر ماشاء تواضعك، فالإنسان موقفٌ وكنت موقفًا في كل ما فكرتَ وصنعت.. منحازًا للخير والخيّرين.. محبًا للجمال، متحمسًا لكل جميل في القول والعمل.. كنت للموهوبين سندًا وصوتًا قبل أن تعلو أصواتهم.. وكنت بِغَدٍ أبْهَى تحلم به لأهلك ووطنك مبشرًا.. أمينًا على ما يقودنا إليه، حريصًا على إنصافِ من يمهدون لبلوغه.. فكنت للقلم

العفيف أخًا ونصيرًا، وكنت للكلمة المسؤولة وفيًا ولأهلها، وداعيًا وبمسؤوليتها قائمًا. وبذاك، بذاك.. وبما تكتشفه عقول الباحثين في إنجاز الغزير تتجدد، وأكاد أسمع دعواتهم أنْ جزاك الله ياأبا رائد عن القلم وأهله خيرًا، فلقد صنت للقلم العفيف شرفه، وأعلنت رايته.. وأن جزاك الله ياأبا رائد عن الكلمة الطيبة خيرَ الجزاء، فقد وفيتَ لها مسؤوليتها، وأنزلتها في الناس والحياة أفضل منزل.

فياسيدي النبيل علي جواد الطاهر: طِبْ نفسًا فما كان حُلُمُكَ الجميل إلاّ مشروعًا شريفًا لخيرنا، ولك علينا حقّ إنجازه، وما كان صنيعك المتقن الجليل إلا نجوم هُدًى في الطريق إليه.

وإن كان المرء إذْ يودِعُ دنياه لا ينقطع عن ثلاث فما أكثر عملك الذي سينتفع به.. وهنيئاً لك أجره، وما أكثر أبناءك الصالحين، الذين يدعون لك.. فبورك لك في دعائهم.. وما أغزر صدقاتك الجاريات ما دامت الكلمة الطيبة صدقة.. فهنيئاً لك ثوابها!

فعلام.. علام حزنك يا هذا!؟

اطوه.. وليبق لك فخرك الأكيد به.. وليبق لكم.. فخركم.. فالحياة للعمل الصالح وحده، وما أصلح عمله، أما الزبد فيذهب جفاء، ويذهب لا حزنًا عليه ولا أسف، فطب نفسًا مرة أخرى.. ودائمًا.

دمعة وفاء على أستاذنا الطاهر

نعمة رحيم العزاوي [1]

زرته أخر مرة، فكانت تحيته لي قطراتٍ من الدمع تحدرت على خديه، ولم يكن جوابي بأقل من تحيته، فقد انهمرت الدموع، وكانَ ذالك كل ماجرى بيني وبينه من حديث.

لقد شعرت أنه يعاني وطأة المرض. وأحسست أنه يتعجل الموت. لأنه سيكون لمثل حالته نظير البُرْءِ، وصِنْو العافية.

---

(١) «الجمهورية» في ٢٢/١٠/١٩٩٦م.

ووصلت إلى أُذني همهمة تنبئُ، بأنه يردد أبياتا من الشعر، فاقتربت من سريره، فسمعته يقرأ بلسان أثقلته الأدوية المخدرة شيئا من أبيات مالك بن الريب، التي رثى بها نفسه:

اقيـما علـيَّ اليـوم أو بعـض ليـلةٍ　　　ولا تُعجـلاني قـد تبين مابيـا

وقومـا إذا مااستل روحـي فهيـئا　　　لي الّسْدَر والاكفان عنـد فنائيا

خذانـي فجرانـي بثوبـي إليكـما　　　فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

خرجـت من عـنده وأنـا موقـن أني لن أراه بـعد ذالـك، مرت عـلى تـلك الـزيارة القصيرة أيام قبل أن يحل مساء الأربعاء الموافق ٩/١٠/١٩٩٦م الذي بلغني فيه نعيه، وعلمت أن ذالك السراج الذي توهج نحواً من نصف قرن قد انطفأ، وأن تلك الروح النقية الطاهرة قد رَجَعت إلى بارئها راضية مرضية.

هرعت إلى منزله، فوجدت عددا من تلامذته وأصـدقائه قد اجتمعوا ليشاركوا في تشييعه، ويلقوا على جثمانه نظرة الوداع.

جلسـت قبالـة الباب الذي ينفذ الـى مكتبـته، فطـافت بذهنـي ذكريات كثيرة، وتزاحمت علي صور، تمثل لي فيها أستـاذي الراحل محاورًا ومناقشًا، سائلاً ومجيبًا، مثريا جلساءَه بكل نافع، وناقلاً لهم كل طريق.

لقد ظلـت مكتبته هذه أحـب مكان إليه في داره، وظل يستقبل فيها ضـيوفه، لم يمنعه من ذالك مرضه العضال الذي لم يخفه عنه الأطباء.

لم نشـعر يوما ـ طـوال أيام مرضه التـي زادت على العـام ـ أنا إزاء إنسان يـعلم أنَّ أيامه مـعدودة، وأن الموت يحـوم حوله، بل كـان يبدو لنـا على ماعـهدناه به فـي أيام صحته، من إقبال علينا ومشاركة لنا في كل مانخوض فيه من حديث.

لم ينـقطع عن عـادته هذه إلا أسابيـع كان فيهـا على الحالة الـتي صورتهـا لك في صدر هـذا الحديـث، علـى أن بكـاءه في وجوه بـعض عـواده في الأيـام الأخيـرة من مرضـه، لم يكـن وجلاً من المـوت، أو إشفاقـا من مفـارقة الحيـاة، وإنما كان لأمـرين: الأول ماكان يجد من شدة المرض عليه. والآخر: مـاكان يستشعر من أسى لأن كثيراً

من مشاريعه العلمية قد حيل بينه وبين إنجازها، فقد كان الرجل لايزال مكتنز الذهن بالأفكار قادرًا على أن يرفد المعرفة بمزيد من العطاء.

دار ذالك في ذهني، ولم يخرجني منه إلا رؤيتي تلك الصفوة القليلة من تلاميذه وأصدقائه التي اجتمعت لتشييعه، قد هبت من مقاعدها استعداد لحمل جثمانه.

لقد ثقل علي المنظر، وبرح بي هول المشهد، فاستعذت بالصبر، واعتصمت بحبل الإيمان، وتعزيت بأن هذا الراحل مقيم، وأن هذا الميت حي، مقيم بأعماله التي ملأت سمع الزمن وبصره، وحّي بمأثره التي لن تبيد.

علي جواد الطاهر في حواره الأخير

حوار : جليل العطية[1]

اليوم التاسع من أكتوبر الماضي فقدت الثقافة العربية المعاصرة اسمًا بارزًا، وعَلَمًا من الذين أخلصوا للمنهج العلمي وللمعرفة، ذلك هو الدكتور علي جواد الطاهر، الذي كان بمثابة مدرسة متكاملة، لها منهج، وتلامذه في العراق والمملكة والوطن العربي بعامّة خلال أربعين عامًا، رفد الطاهر المكتبة العربية بنحو ثلاثين كتابًا أعيد طبع طائفة منها سبع مرات، كان الراحل أستاذًا جامعيًا له منهج يُدَرّس، وناقدًا كبيرًا، وكاتب مقالة من طراز رفيع، ومحققًا تراثيًا، ومترجمًا و(بيليوغرافيًا) يجمع بين التراث والمعاصرة، هاجسه الكتاب، وهمه نشر الثقافة الحقيقية، يتابع الطغرائي والخريمي وابن الحجاج، من القدامى، وفي الوقت نفسه تؤهله إجادته الفرنسية متابعة أحدث النظريات الفنية في أوروبا.

رحل الطاهر عن السابعة والسبعين من عمره بعد أن أعطى نتاجًا وفيرًا، أثرى به المكتبة العربية، وقبل رحيله بأشهر قليلة أُجْرِيَ معه هذا الحوار الذي تنفرد مجلة «الحرس الوطني» بنشره لأول مرة - رجب ١٤١٧هـ نوفمبر - ديسمبر ١٩٩٦م.

● يبدو لمن يتابع أعمالك أن الكتاب شغل حيزًا كبيرًا في ذهنك.. هل تذكر

(١) مجلة «الحرس الوطني» عدد رجب ١٤١٧هـ.

كيف تعرفت أول مرة على الكتاب.. متى وأين.. ولماذا؟.

- إن المسار واضح، وجدت في البيت بعضَ الكتب، وفي المدرسة المتوسطة أسّسَ بعضُ المدرسين مكتبة لم ألبث أن وجدت نفسي عُضوًا عاملاً فيها، ثم كانت المكتبة العامة في (الحلّة)، ثم مكتبة دار المعلمين العالية في بغداد، والمكتبة العامة، بعدها جاءت مرحلة الاقتناء وإن كانت في البداية بحدود.. هذا الاهتمام لا أحمّلهُ بُعْدًا علميًا، إنما هو هواية فقط. أحياناً أحِسُ الضيق في نفسي، فأفرِجُ الهَمّ عنها بزيارة مكتبة أو العودة إلى كتاب.

●- لا بد أنك تتذكر شيئًا عن أول كتاب قرأته، كم كان عمرك؟ وهل يمكنك أن تحدثنا عن أهم كتاب طالعته في رصد حياتك العلمية وكان له الأثر العميق في نفسك؟.

- لا أذكر ذلك على وجه التحديد، لكني أذكر أول كتاب قرأت فيه في سنٍ مبكرة، قد تكون العاشرة أو الحادية عشرة من دون أن أفهم منه شيئاً، وإنما قرأت فيه لأنه كان موجودًا في البيت، كان فيما أذكر عنه الآن كتاباً مصريًا عنوانه «السعادة» وهو مجموعة مقالات في موضوع واحد هو السعادة، لكتّابٍ مختلفين، منهم المنفلوطي، يدون آراءهم في السعادة، وكيف تحصل، وتعلق منه في ذهني مقولتان، الأولى: ترى أن السعادة تأتي من الخارج، والثانية: ترى أن السعادة تأتي من الداخل، ولم أدرك القصد من ذلك إلاّ خلال اختبارٍ صامت، في النفس على مدى نصف قرن، ويرى صاحب المقولة الثانية أن مصدر السعادة داخل الإنسان في نفسه، وربما في ضميره، ويرى صاحب المقولة الأولى العكس.

أما أول كتاب استوعبته قراءة فهو كتاب عمر أبو النصر عن «خالد بن الوليد» وكنت في السنة الأولى من الدراسة المتوسطة، وفي خلال هذه المرحلة غرِقْتُ في روايات جرجي زيدان، وهناك كتب قرأتها خلال الثانوية، فاستهوتني أذكر منها «في حديث الشرق والغرب» لمحمد عوض محمد و«هرمن ودروينه» لجوته وترجمة محمد عوض محمد.

أما الكتاب الذي أثّرَ بي فكان «تاريخ النقد الأدبي» كان ذلك حوالي العام ١٩٤٢م، وربما في نَفَس من حولي، قرأته بنهم وشوق، وكأني - يوم كنت أقرأ زيدان - كأن المؤلف يطالعني خلال السطور، وأطالعه في روحه العالية، ونسقه الجميل، فآلفهُ وكأنه صديق كبير، إنه المرحوم الأستاذ طه أحمد إبراهيم، الذي كان مدرسًا بكلية الآداب.. القاهرة ١٩٣٧م.

فما كدت أتخرج عام ١٩٤٥م حتى ظفرت بنسختين يتيمتين في مكتبة (الحلة) فاقتنيتهما من دون نقاش، واحدة لي، وأخرى لزميل يبدي اهتمامًا بالنقد الأدبي.. وما زلت أحتفظ بنسختي تلك.. أثرًا عزيزًا لدي.. ثم وقعت على نسخة أخرى في القاهرة هذه المرة، فاقتنيتها، حرصًا على الأولى، أو على الاثنتين من أن تفقد إحداهما، وهذا ما حدث فعلاً، وإني لحزين على الثانية المفقودة، وكأني لا أملك غيرها، الكتاب جميل، هذا الذي أتحدث عنه - مضيت في حُبي له مذاهبَ شتى، أولها سخط خاص على الأستاذ أحمد الشايب، الذي قدم للكتاب، ولم يف الفقيدَ حقّهُ، وثانيها عتاب مع الدكتور محمد مندور، إذ لم يعترف للفقيد بالفضل الذي هو أهله، لدى تأليفه كتابه الذي حصل به على الدكتوراه سنة ١٩٤٨م بعنوان «النقد المنهجي عند العرب» ومن أواخرها عتاب مع الدكتور إحسان عباس، إذْ حاول التهوين من شأن طه أحمد إبراهيم، وهو يؤلف كتابه القيم حقًا «تاريخ النقد الأدبي عند العرب»، وقد صدر في طبعته الأولى سنة ١٩٧١، الكتاب جليل، جميل، مفيد للأستاذ والطالب، للمحترف واللغوي، وكم اقترحت على ناشره إعادة طبعه فلم يفعل.. حتى تنبه إليه أحد الناشرين في لبنان.. وها هو يصدره كما هو في طبعة جديدة.. وإني لأقتني نسخة أو أكثر في كل طبعة جديدة مع علمي أن المحتوى هو هو.. ولو غيرت الدار الناشرة في ألوان الأغلفة لاقتنيت النسخ كلها!!.

●- الشعر ديوان العرب.. اهتممت بالقديم، فحققت الطُغْرَائِي والخُرَيمي، ومن المعاصرين شاركت بتحقيق الجواهري، وفي الوقت نفسه مارست نقد الشعر القديم والحديث.. كيف تنظر إلى الشعر العربي اليوم؟ وهل أنت راض عن مستقبل هذا

الفن الذي التصق بالعرب منذ القديم؟.

- الشعر.. شعر.. ولـيُسَمَّ القالبُ الذي يُطِلُّ به على الناس مـا يسمّى.. وقد قرأته وسمعتـه على متوالي العقود منذ العشـرينات.. وآسف أن أقول: منـذ سنوات لا أقرأ ولا أسمـع شعراً.. إن الـذي يلقى كـثير، والـذي ينشـر كثير، والـذي يشغـل الأقلام والألسن والمـوائد كثير كـذلك، وربما وقع ذَمٌّ لـسبب خارج طبيعة العمـلية النـقدية، وربما وقـع غيـره.. وإني لـفي خشـية عـلى مـن يَزُجُّون أنفـسهم فـي النـقد، مـا كان المفـروض أن يقع من خـشية عـلى الباخـرزي والعمـاد الأصبهـاني والصفـدي، حين يرتفعون بشعرائهم وكأنهم الشعراء، ويلابسون عصرهم، وكأنه عصر الإبداع، ولهم من أدواتهم للحكم كما لنقادنا من أدوات وكأن النقد أدوات.

وأعود إلى الأسف ـ مرة أخرى ـ وأقول: إني منذ سنوات لا أقرأ، ولا أسمع شعراً، ولا عبـرة بما لا ترضى بـه من الأوساط، ومـا تحتج بـه من الومضـات. إن جملـة هذا الذي يطلـع علينا في الصـحف ويأخذ عليـه أصحابه أجراً جيداً ويـصدر عن الإذاعة والتلفزيـون.. وزارة الإعلام: يقال له شعر من حيث ما يذهب إليه أصحـابه على أنه كذلك ومن حيث لا بد من أن يكون في العراق، وقد قيل إنه بلد الشعر ـ شعر.

ومن هـذا الحديث أولاً: جـاءت هذه الكـثرة في الـكميـة، وكأنّ الشـاعر هنـا هو الذي يقول: أنـا شاعر! وأن الشعر هـو الذي يقول صاحبـه إنه شعر.. ويكتـب كلمة شعر على غلاف كتبه.

أما رأي الآخرين من أصحاب الذوق والدراية، ومن يـفترض أن الشاعر يفكر بهم ويتوجه إليهم، فلا مكان له.. وليكن ما يكون، ولا يَقْبل من الآراء إلاّ ما جاء نفاقاً أو مجاملة. إني لأسـمع أحياناً وأحياناً كثيرة ما يـسمى قصيدة يلقيها من يـسمى نفسه، فأخجل في نفسي لـذلك الشاعر الذي لا يخجل من نفسه، ويمضي يـطلب التصفيق وغير ذلك، وقد يحصل على بغيته بوسيلته الخاصة.

الحال مؤسفة!، وقـد بالغنا حتى خرجنا بـه عما هو له فجاء الكلام مـبسطًا لدرجة

السخف، وبالغنا في مفهوم العقل حتى استحال عَقْلَنَةً.

وتبع التبسيط الكلام اليومي، فإذا الشعر كلام يومي، والكلام اليومي نثر رديء، وتأتي الأسطورة لتضع نفسها مرة ثقلاً على العقل، ومرة ضغثاً على اليومي تلقى إلقاء أو تحشر حشراً، وتطرح طرحاً، فتفقد ما هو لها من فطريّة الدلالة على العمق الإنساني، وظاهرة تلك الفطرة في تفاوتها وعفويتها.. لأنها إخراج البسيط واليومي والفكري والأسطوري.. الشعر في عصر كعصرنا يحتاج إلى طاقة لا نملكها.. تلك الطاقة التي تُخْرِج المعقّدَ مخرجَ البسيط، وتقدم الصعب سهلاً.

دعنا من بحور الخليل.

وهات تفصيلات ما دعوناه بالشعر الحرّ، وهات ما ترجمناه بقصيدة النثر، ولا ضير فقد اتفقنا منذ البدء على أن الشعر شعرٌ وليُسَمِ القائلُ الذي يطل على الناس ما يسمي.

لسنا طارئين على الشعر، فقد قرأناه في تراثنا.. لدى الجواهري.. ولدى السياب.. وقرأناه في لغة أخرى، وقرأناه مترجماً، وقرأنا شعراً سومريًا مترجمًا إلى العربية، وليس له وزن من أوزان وقافية من قواف، وقلنا إنه الشعر، فأين هذا الذي ننشره وننتفع به ماديًا بالأجر المالي، ومعنويًا بأن يقال: إنا شعراء؟

وتسأل: شعرنا الحديث إلى أين؟

وأجيب إلى طريقين الأول: هو الطريق المسدود الذي سيصطدم بجداره هذا الذي تسميه شعراً.. والثاني: هو الطريق الذي لا بدّ من أن يأتي لأن الحياة لا يمكن أن تخلو من الشعر، وهو آتٍ على أية حال ـ طال أمْ قَصُرَ المَدَى ـ وقد يسهم الطريق الأول في الإفضاء على قاعدة من رد الفعل، التي تنبثق عن موهبة كبيرة، وعن مفهوم صحيح، وعن اتساع مجد، فنكون لنا نهضة كما كانت لنا في أعقاب الفترة المظلمة، ولا يصلح آخِرُ الشعر إلاّ بما صلح به أوله، بأن تكون أولاً شاعراً، كامرئ القيس أو المتنبي ـ ثم تقول ما تقول، ولتأخذ الموهبة طريقها الطبيعي من عالم العاطفة والخيال، والموسيقى والعقل خلال القلب، والقلب خلال العقل.

●- أنت كاتب مقالة، مارست كتابة المقالة، وتحقيق النصوص، والترجمة، ونقد القصة، ونقد الشعر. أين تجد نفسك في كل هذه الفنون الأدبية؟ ألا تعتقد معي أن هذا التوزع في معالجة هذه الهموم الإبداعية يمكن أن يضعف فنًا، وبالتالي لا بد أن تجد نفسك بعد كل هذه التجربة إلى جانب لون إبداعي واحد، مثلاً؟!.

- أترك نفسي على سجيتها لتقول فيها كلها، ولك أن تنظر في قائمة المؤلفات، وأن تنظر في المؤلفات نفسها لتضم صوتك إلى صوت النفس الذي التقى مع أصوات خيرة مخلصة.. ولئن تقاصر نقد الشعر.. فالعيب في الشعر نفسه.. ولئن قَلّتِ الدراسات من نوع الطغرائي ومحمود أحمد السيد فقد فسحت مجالاً لنقد التأليف، كما في «ملاحظات على الموسوعة» وملاحظات على «وفيات الأعيان» ،«تحقيقات وتعليقات».

والقافلة تُغذُّ السير في مجلات عديدة منها «عالم الكتب» و«العرب» و«المنهل» وغيرها، ويأتي نقد التأليف مساندة لمنهج البحث الأدبي، ولقد كدتُ أطمح يومًا طموحًا جادًا للترجمة، ولكن ذلك الطموح وقف عند «الأين»، وقف فعلاً ولم يقف فيه.. وحل محل التحقيق نقد التحقيق، وكأنه بلغ بذلك أقصاه، وإذا كان المقصود بالنقد الكتابة في النظرية الأدبية والنظرية النقدية إن شئت، فقد صدر لي «مقدمة في النقد الأدبي».. لقد قلت إنني أجد نفسي في المقالة ورأيت النقد فيها مقالة.. ولعلك تمنيت معي لو اتسعت للحياة كلها!.

هذا التوزع والتنوع بين الهموم الثقافية يضعف رافدًا أم يضيف إن أردت، ويضيف إن أردت.. أضعف النقد حين حال دون التوجه التام إليه، أضاف إلى النقد حين أراد له أن يكون مقالة مبدعة أو قريبة من الإبداع.

●- كيف تنظر إلى حالة النقد في العالم العربي اليوم؟ المبدعون يشكون ويشككون في قدرات الناقد العربي.. والأخير يشكو من قلة النصوص الإبداعية.. هل يمكن أن نسمع رأيك في مثل هذا الاضطراب النقدي؟.

ـ عمليًا لا يوجد لدينا نُقّادٌ يُذكرون، فالفوضى في النقد العربي جاءت من ضعف في الشخصية، أعني الذي يريد أن يكون ناقدًا عربيًا في هذه المرحلة إزاء ما يرد إليه من الغرب، من نظريات ومناهج ومصطلحات ليضيع فيها، بمعنى أنه لا يقف منها موقف الإنسان الممتلئ بنفسه فيفهمها كما يجب، ويأخذ ما يمكن أن يسهم في إغناء شخصيته، ويطرح ما يمكن أن يكون سيئاً مضرًا، وما يفكك شخصيته، إذا كان هذا الذي يريد أن يكون ناقدًا على هذه الشاكلة فكيف تنتظر منه النقد المطلوب عمليًا ونظريًا؟.

لا توجد نظرية نقدية فرنسية أو إنجليزية ولكن يوجد في فرنسا نقاد، وفي إنجلترا نقاد. والمفروض أن يكون للعرب نقاد، كما كان لنا في التراث.. بل كما بدأ يتكون في النهضة الحديثة، ولا سيما في النصف الأول من القرن العشرين، حيث كان ما أسميتهم الرموز مثل طه حسين والعقاد والسحرتي والمازني ومندور، هؤلاء بدأوا بداية سليمة، بداية مؤسسين، أخذوا تجربة الغرب صحيحة كما هي، دون أن يضيعوا فيها، ومزجوها بالتراث العربي، ولكنهم كانوا وطيدي الصلة بالتراث، وكان المفروض أن يأتي الجيل الذي يليهم على هذا المستوى من المزج والمزاولة، ولكن هذا المفترض لم يقع لسوء الحظ.

●- إسمح لي أن أقول: إن كلامك عام، ألا تعتقد أننا نستطيع الخروج بنظرية نقدية عربية خالصة.. تعتمد تراثنا ومعاييرنا فقط؟ ألا ترى أنك تتهم جيلاً كاملاً بالكسل، بعدم مواكبة جيل الرواد.. ـ طه حسين والعقاد ـ مثلاً؟.

ـ إننا لا نستطيع أن نخرج بالراكضين وراء الغرب بنظرية، ولا نخرج بالغارقين في القديم، لأنه قديم، بنظرية عربية لأننا ـ كما هو بديهي ـ لسنا غربيين ولسنا قديمين، والنظرية العربية المطلوبة يجب أن تكون بنت العصر. ونُشيد بهذه المناسبة بروّادنا في أواخر القرن التاسع عشر، وروّادنا خصوصًا في مطلع القرن العشرين، فهم درس لنا في خطوة التأصيل، ودرس في الأخذ من الجديد والاستخلاص من القديم.

ولو سرنا متممين في الطريق الذي سار عليه طه حسين والعقاد والمازني ومندور

لكنّا خيراً مما نحن عليه.

أقول: ـ لو ـ وهي ـ لو ـ فقط لأن عوامل التخريب أقوى منا، وأحرص على واجبها منا كذلك، ولا أريد أن أطلق سوء الظن بالذين لبسوا مسوخَ غيرهم، وجاروا على ما يمكن أن يكون لهم من شخصية، ولكني أرى في حقي أو واجبي أن أعاتبهم على ما أضاعوا عليهم وعلينا من فرص، وقد عاتبتهم فعلاً حين رأيت فيهم مجالًا للعتاب، إنّ العالم الأدبي عالم واسع جداً سعةَ العالم الطبيعي، ولهذا استحال ويستحيل أن تحصره في زاوية، أية زاوية كانت، وما كان الذين حصروا أنفسهم في زاوية مختارين أو مجبرين أو مفتعلين نقاداً كباراً، أو نقاداً بالمعنى الصحيح، وغاية ما بلغ أعمقهم أنْ عُدّ مقلداً لنقد ضيق، تحصره كلمة واحدة هي التاريخية أو النفسانية أو الشكلانية أو.. أو.. ومعلوم بديهي أن النص المبدع هو هذه الكلمات التي تدعى أحياناً مناهج كلها، وكلمات أخرى عرفها الإنسان مناهج، أو سيعرفها أو سيظل جاهلاً بها.. وإذا نسبت ناقداً إلى منهج غير الذي انبثق من نفسه وتجربته وصدقه وذوقه وسعةِ أفقه فقد قتلته أو حجّمته في أقل ما يقال..

وإذا افترضنا القبول بمبتكر المنهج التاريخي ناقداً تاريخياً فماذا نفترض بالتابع الذي ينضوي تحت لوائه، وقل مثل ذلك فيما تفترضه بمبتكر المنهج البِنْيوي.. وما تتعامل به مع التابع المتشبث بأذياله. كل هذا ونحن في باب الافتراض فقط، فكيف لو خرجنا إلى باب النقد.. النقد؟.

● ـ يلاحظ أنك تكثر إبداء رأيك بمتابعتك ما يصدر من نتاج أدبي، أراؤك هذه التي تقدمها في مقالات أحياناً تكون سريعة تثير جدلاً، فالبعض يعتبرها مقالات نقدية، بينما يعتبرها آخرون أدبية ـ عابرة.. رأيك؟.

ـ أولاً أنا من عشاق المقالة الأدبية، تأثراً ومتابعة لجيل مجلة «الرسالة» وأحاول أن أجد مجالات لهذه الرغبة، ولكن يبدو أن كثيراً من المنافذ الطبيعية لهذا الفن مسدودة، وأشعر بذلك، لذلك أجد لها منافذ غير مقصودة كالصحف أو المجلات (السيارة) كأن أقرأ كتابًا أو قصة أو قصيدة، فأعجب في عموم الأثر الأدبي، وكأني

أعجب بمنظر جميل في الطبيعة، يستحيل هذا الإعجاب سبباً لمقالة أدبية، وأنا أقصد إلى هذا، وربما أعتزُ به، ليست هذه مقالة نقدية بالمعنى الموضوعي للنقد. وإنما هي انطباع أو نقد انطباعي إن شئت، ولكني على أي حال لا أقصد بها غير الإعراب عما أحسه من جهة، وعن ثقة بصحة هذا الذي أقوله، بمعنى أنني لا أشغل هذه الطريقة للدعاية والإعلان إلى فلان أو إلى آخر.. وإذْ تكون المقالة على هذا النوع فمن الطبيعي أن تأخذ لها حجماً أكبر من المقرر لها، والذي حدث أنني لم أكتب قصيدة، قصة بهذا الأسلوب.

يبدو لي أن هذا النوع من النقد يؤدي إلى خدمة الكتاب، ولم يحدث أن خاب ظن قارئ بما توجهت إليه من حماس لكتاب من الكتب، إنني أكتب هذا ولا أعتقد بأنني أزاول عملية نقدية لأني أعرف أصول النقد وقواعده وموضوعيته، وجفافه، أحيانًا.. وأخيراً لعلي أحسم الأمر فأقول بأني كاتب مقالة أدبية أكثر مني ناقداً.

●- للناقد منها عملية اختيار النص الذي يريد أن يدرسه ويحلله.. ألديك مواصفات معينة لعملية قرار الاختيار؟.

- أنا لا أجيء إلى النص بمسائل مقررة.. قد تكون هذه المقررات المسبقة متوفرة في النص، لكنها لا تجعل منه نصاً عالياً. النصُ هو الذي يفرض نفسه عليّ.. والنص الذي أمامي هو الذي يوجد لنفسه القانون الذي أتعامل به معه.. وهكذا ترى أنني أُعجب بقصيدة مّا لفلان، ليس كالقصيدة الأخرى لفلان الآخر التي أعجب بها، وكذلك في القصة، ففي الوقت الذي أعجب فيه بقصة لمحمد خضير لا تعجبني قصة أخرى له، وإن كانت الثانية قد بدت على نفس المقاييس الفنية الظاهرة للقصة الأولى، وكثيراً ما يحدث أني أعجب بقصة لعبد الملك نوري، أو فؤاد التكرلي وأخرى لبرهان الخطيب، أو سواهم دون خضوع هذه القصص لمقاييس واحدة.. وإنما لما هو وراء هذه الآثار من عنصر شخصي وفني في استعمال ما هو معروف، وإضافة ما هو جديد..

الشرط الأخير عندي أن العنصر الأساسي في الموهبة الفنية، هو الشاعرية، أريد أن

أحسها في الآثار التي يطلق عليها أحياناً (موضوعية) كالقصة.. وأعتقد أن كل أثر عالمي ثبت خلوده فيه قدر من الشاعرية.. تكثر أو تقل.. لكن تحس نسبته لدى التركيب.. وإلاّ فإن ذلك الأثر يخرج عن فن القول.. ويبلغ بي البحث عن هذه الشاعرية أن أطلبها كما يطلبها الآخرون في المقالة.. بل استحسها حتى في المقالات النقدية والتعليمية.. ولو بقدر ضئيل.

إلى أستاذي الدكتور علي جواد الطاهر

عناد غزوان (١)

أمس.. أمس.. حملت تابوتك وفي القلب أسى، وفي الوجدان جوى، حملت تابوتك إلى مثواك الأخير أيها الغائب الحاضر.. أيها الطاهر الجواد، أيها العلي العصامي، حملت تابوتك وكأنني أحمل ذكريات اثنين واربعين عامًا حين التقيناك وزملائي في (دار المعلمين العالية) أول مرة أستاذًا جليلاً ومربيًا فاضلاً وأديبًا فذًا.. وناقدًا أصيلاً، وإنسانًا نبيلاً.. وصديقًا حميمًا، وأخًا كريمًا، علمتنا كيف نقرأ نصًا أدبيًا، وكيف نحلله، وكيف نتذوقه، وكيف ندرسه؟ علمتنا أن الدرس الأدبي لايقوم على الاستظهار والاستذكار حسب، بل يعتمد على الذوق والمنهج والتأمل والمنطق والاستبطان.. كنت واحدًا منا، نخشاك ونحترمك، على الرغم من تواضعك وقربك منا، نحبك ونحترمك، لعلمك وفضلك وخلقك وسجاياك الطيبة.. ماأروع ياسيدي أن يلتقي الحب بالاحترام فيتعانقان ودًا ومحبة وإخاء.. كان ذالك حين بدأت جماعة الإنشاء الأدبي، في الدار ترصد من خلالك المواهب والقابليات الأدبية من شعر ونثر وخطابة وإلقاء، لتقدمها إلى جمهور الدار وعشاق ندواتها ولقاآتها، وكان لابد لابن الأيك أن يترنم. شعارها وصدى

نشاطها، وكنت أنت ياسيدي أجل أنت وحدك من مهد السبيل لابن الأيك أن يترنم بأعذب الشعر وأصدقة وأصفاه.. وكنت.. وكنت.. وهاهو درس الإنشاء الأدبي يتذكرك وقد افتقدك وفقدك.. وهاهي المقالة الأدبية تتذكرك بحروفها

(١) «الجمهورية» في ٢٢/١٠/١٩٩٦م.

وكلماتها ومقاطعها وقد افتقدتك وفقدتك.

علمتنا أن النقد انطباع صاف نقيٌّ حين تكون الانطباعية منهجًا، وأن النقد تحليل وتأمل واستنطاق للنص، وكشف عن قيمة الجمالية حين يكون التحليل منهجًا، وعلمتنا.. وعلمتنا الكثير الكثير في قاعات الدرس وفي رحاب الكلية.. وفي المؤتمرات والندوات والحلقات الدراسية.. وفي بيتك العامر بك إنسانًا كريمًا عشق المعرفة عشقا صوفيًا وأحب العلم حبًا نقيًا.

رحمك الله ياسيدي ياأستاذ الأجيال.. وسلام عليك يوم ولدت ويوم رحلت ويوم تبعث حيًا.

أستاذي الدكتور ـ علي جواد الطاهر..

ولد يوم رحل !!

عناد غزوان

(يولد العظيم يوم يموت) حكمة رائعة كنت ترددها وتعي دلالاتها، كيف لا وأنت ابن الحقيقة، وربيب المعرفة، ورديف الصدق، وصنوُ الوفاء وصديق الصداقة والإباء، ومثال للأخوة والإخاء.. ولدتً ـ ياسيدي قبل أَسبوعين حين ـ رحلت عنا جسدًا، وهاأنت بيننا هنا في هذا البيت العامر بأصحابه، وأصدقائه ومُحبّيه روحًا نراك وترابًا نتحدث إليك، فتصغي إلينا، وها هي كلماتك وتعليقاتك وأنفاسك الطاهرة تملأ رحاب هذا المكان الكريم، كما ملأت رحاب جامعاتنا درسًا وتقويمًا وتعليقًا ومناقشة.. ستبقي واحدًا من الخالدين الأحياء بما تركته لنا وللأجيال التي ستأتي بعدنا من آثارك العلمية، ومؤلفاتك الأدبية، ومقالاتك اليومية في الأدب والنقد والتحقيق وحبّ العربية التي تفخر بك كما كنت تعتز وتفتخر بها، وتحرص الحرص كله على سلامتها لغة حضارية رائعه ذات تاريخ عريق وفكر عميق، إن دموعنا ودموع من عرفك وأحبك واحترمك لاشيء أمام هذا الرزء فقد عظم الخطب ـ ياسيدي ـ شأن البكاء فأنت ميسم للوفاء والإخاء والحياء.. أمين في علمك صادق مع نفسك جريء في موقفك وكأن لسان من أحبك واحترمك واصطفاك يقول:

عجبت لصبري بعده وهو ميت   وكنت امرءًا أبكي دمًا وهو غائب
على أنها الأيام قد صِرْنَ كلها   عجائب حتى كنت فيها عجائبه

الطاهر، دوحة غلم طموح.. مشى الجوى بين قلوب طلابه وأصدقائه وأهله ومحبيه حين رحل.. وورد الثرى في ليلة أضحت نورًا وضياءً لجلال شأنه فقد تشبث رمسك بالنسيم ترابه لأنك النسيم الطافح بالود والعلم والحنان والتواضع.. فقبرك متهلل الجنبات تضحك أرضه.. لاتعرف البكاء والاسى فقد كنت كذالك في حياتك العصامية وفي سيرتك العلمية وسلوكك الإنساني .. لقد رزئت الأقلام والضمائر الحية النقية برحيلك حتى غدا فجرهُا الضاحك مُغْتًا كليمًا

رحلت عنا –سيدي– بعد عمر عامر بالعفة والزهادة والاستقامة ونزاهة الضمير والملمح.. كنت في هذه الدنيا مطلع قصيدة يتوهج بحب المعرفة وحب العربية فصار المطلع قصيدة العمر بكل همومه وآهاته ونزيف وجدانه وسنتذكر هذا المطلع الخالد أيها الأب الرائد (الذي لاتكذب أهله) في الأدب والنقد والتحقيق سنبقى أوفياء لروح ريادتك أوفياء لمنهجك العلمي السليم أوفياء لقيمك وسجاياك التي غرستها فينا معلمًا رائعًا وأستاذًا جليلاً وصديقًا عز نظيره فالشجا ياسيدي في هذا المقام يبعث الشج' وعشيات حماك لن تعود ويبقى الجفن مترعًا بدموعه عليك بدموع لاتراها عين، بل يعيها قلب ملتاع، ويتحسس بها وجدان مكلوم، ويستأنس بدفئها وحنانها في جَنان يَقظ مفتون بحبك واحترامك قريبًا أو بعيدًا منه (فكل من تحب التراب بعيدا) بيد أنك قريبٌ منًا بروحك العلية الجوادية الطاهرية وبآثارك ومؤلفاتك وسطورك المتألقة البهية سنىً وسناءً فكنت سهل الفناء طلق اليدين يتساوى عندك الشقيق والصديق حتى كأنّهما من رحم واحدة بفضل تواضعك عالمًا وإنسانيتك صادقاً وعلمك شامخًا فكم آسيتنا إخوة بنفسك وشجعتنا طماحا لذاتك ومهدت سبيل العلم والمعرفة أمامنا إيمانًا برسالتك التربوية الشريفة وعنوانا لسموك بيننا واحدًا منا، لوشئنا أن نبكي بكاء لبكيناك بَيْد أن ساحة الصبر أوسع فقد كنت مواسيًا لنا في السراء والضراء يانَديٌ الكفين يابردًا

وظلاً لنا في أفراحنا وأتراحنا (فحسبك منا ماتجن الجوارنح)

فسلام عليك سيدي أستاذ الأجيال يوم ولدت ويوم رحلت ويوم تبعث حيا.

لماذا ظلمنا هذا العراقي الفذ؟!

محمد رضا نصر الله(١)

حين علمت بوفاة الدكتور علي جواد الطاهر ـ رحمه الله ـ لم أجد شخصاً أعزيه، سوى أستاذنا الشيخ حمد الجاسر ـ أطال الله عمره ـ .

لم أفعل ذلك مجاملة عاطفية لشيخ الأدباء السعوديين بحسبه صديقًا وفيًا لشيخ الأدباء العراقيين، وإنما لأن الجاسر هو أول العارفين بفضل الطاهر على الثقافة السعودية المعاصرة، منذ حلّ أستاذًا في كلية الآداب جامعة الملك سعود سنة ١٩٦٣م، متعاقدًا للتدريس، وكان لا بُدّ له، كما يعبر في مقدماته الثلاث الثرية لكتابه الرائد «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» من أن يُلِمّ بشؤون الأدب السعودي. فمنذ قرأ كتاب إبراهيم عبد القادر المازني «رحلة الحجاز» وهو على مقاعد الدراسة المتوسطة بالعراق، ومنذ اقتنائه لكتاب «أدب الحجاز» وهو على مقاعد الدراسة الثانوية.. وهو مشدود إلى دراسة الأدب السعودي، فإذا وصل الرياض، وتولى تدريس مادة الأدب العربي الحديث، وجد من الحيف لهذه البلاد وأدبها وثقافتها، أن تظل في مهاوي النسيان، بينما درس طالب الأدب الجامعي أدب مصر والشام والعراق.

هل كان علي جواد الطاهر هو أول المنبهين إلى ضرورة الالتفات نحو النصوص الأدبية السعودية؟! إنه بتواضعه الجمّ لا يفصح عن ذلك، ولكنه في مقدمات الكتاب

(١) «الرياض» عدد ١٠٣٤٢ في ١٤١٧/٧/٥

الثلاث، يشعرك بأنه قام بنفض غبار الإهمال، وعناكب عدم الثقةعن المطبوعات السعودية.. فهو يقرر منذ اتصاله المبكر سنة ١٩٤٠م ببواكير النهضة الأدبية - في الحجاز، ثم في نجد والأحساء والقطيف وجازان وعسير - أن هناك أدبًا جديرًا بالقراءة. لذلك فمنذ حلّ في الرياض وهو مشغول الذهن بالتوفر على المطبوعات السعودية، وما إن جمع مادة من هنا، ومادة من هناك عبر بعض تلامذته أمثال الأستاذين عبد الله الغُلَيقة وعبد الله العَمِيل، ثم الدكتور يحيى ساعاتي، والدكتور محمد حسن باكلا، والدكتور يعقوب إسحاق، والأستاذ عبد العزيز الشُرَيف.. حتى وجد نفسه أسيرَ مشروعٍ ينُوء بحمله نفر من الباحثين، ولكنه يصمم وحده على القيام به.

هكذا فإذا به يزور المكتبات العامة والخاصة، في الرياض والحجاز والمنطقة الشرقية.. متحملاً في سبيل ذلك عَنَتًا ما بعده عنت.. يسأل ويقرأ ويدونُ، مارًا بذلك في طرق عسيرة، ومواقف طريفة.. بعضها مضحك.. وبعضها مؤلم.. وبأخلاق العالم الصادق، ومنهج الأكاديمي الرصين، يتوفر على المادة المطلوبة لبحثه.. فإذا هو أمام سيل عرم من المعلومات والقصاصات والمدونات.. كلها انصهرت في مشروع، يتوخى دراسة حركة الأدب والثقافة المعاصرة في المملكة.

كان قد سبق بمشروعه هذا كلّ من وضع قلمه في ميدان الدراسة (الببلوغرافية).. أو دراسة حركة الثقافة السعودية.. وعلى أنه تأخر عن نشر أولى حلقات كتابه في مجلة «العرب» سنة ١٣٩١، ١٣٩٢، ١٣٩٣، ١٣٩٤هـ، فإن الشيخ حمد الجاسر كان كثير التنبيه إلى ريادة الدكتور الطاهر في هذا المضمار.

ولم تفت هذه الحقيقة التاريخية على معظم المشتغلين بالتاريخ الثقافي السعودي، فما يزال الدكاترة الحازمي والضبيب والساعاتي وآخرون ممن اشتغلوا بهذا الموضوع أو على هامشه، يشيرون بالفضل لهذا الأستاذ الجليل، الذي خدم الثقافة السعودية خدمة مخلصة، لم يتوخَّ من خلالها أي هدف غير علمي، كما فعل بعض

الأكاديميين العرب الذين وقعوا بين اثنتين..

إما المجاملة والنفاق، بإسباغ ما ليس في أدبنا من صفات!!.. وإما الصمت المُطبق على ماكان يجري في المجتمع السعودي من علائم الصحة الأدبية، والنهضة الثقافية، وكأنّ النظرة إلينا بَدْوًا في صحراء بلا أبعاد تاريخية واجتماعية وثقافية، تعزز هذه النظرة الظالمة!.. في حين قام علي جواد الطاهر يتصل بمظاهر هذه الحركة، مقتربًا من أدق خصائصها.. ولم يقف عند هذا الحد، بل إنه شجع الأكاديميين والباحثين السعوديين على الثقة بأدبهم.. وراح يعرض مشروعه للنقد منهم.. عَلّهُمْ يساعدونه في إيصال مشروعه إلى مستوى النضج الأكاديمي.

والعجيب.. بعد هذا كله.. بعد هذه المعاناة.. وهذا الجهد، ألاّ يَلْقَى الدكتور علي جواد الطاهر من أوساطنا السعودية ما يستحقه من تقدير وتكريم.. ففي الوقت الذي كانت مؤسساتنا تفتح ذراعيها لمن هبّ ودبّ من الزاعمين بالكتابة عنها، الكتابة التي تتحول بعد انتهاء الدفع والإكرام إلى شتائم في الصحف أو في الكتب!! فإن هذه المؤسسات لم تُلْقِ بَالاً إلى ما قام به هذا الأديب العراقي الفذ الذي أحبّ ثقافتنا، وكتب ودافع عنها أكثر من بعض السعوديين!!.

ولعل رحيلَه الحزينَ يدفع ببعض تلامذته وأصدقائه، وعارفي فضله إلى الوفاء ببعض ماله من دين في أعناقنا.. وذلك بتثمين جهوده الأكاديمية المتنوعة، بين دراسة الأدب العربي القديم والحديث.. إضافة إلى اهتمامه الخاص بدراسة معجمه المتميز عن المطبوعات السعودية.

وفي الأخير أكشف عن سبب قيامي بتعزية شيخنا الجليل حمد الجاسر في الدكتور الطاهر، فهو أول وآخر من اهتم به كاتبًا من كتاب مجلة «العرب».. وصديقاً وفيًا، وقف معه في شدائده التي تعرض لها حتى آخر لحظة من حياته ـ رحمه الله وتغمده بواسع المغفرة والرضوان ـ.

مرثية الأستاذ الطاهر

للشاعر الرائد محمد حسن الوادي [١]

١- إنْ كانَ قاضاكَ الزَّمانُ مَنيَّةً   هُوَ هكذا..أشْرَافُهُ يعتامُ
٢- فَلَهُ على الحُرِّ الشَّريف.. عَرامَةٌ   وكَذَا الشَّريفُ لَهُ عَلَيه عُرامُ
٣- وكما حَيِيتَ فللمحافِلِ هَيْبَةٌ   وكأنَّما ذاك السُّكوتُ كَلَامُ
٤- سَفَحَ المِدادُ سَوادَهُ وتَوشحتْ   صَفَحاتُهُ..وتَشقَّقَتْ أقلام
٥- تلْك البُحوثُ على رُفوفكَ كَثْرَةً   مَقْرُورَةٌ..فكَأنَّها أيتَامُ
٦- واهًا عليكَ.. وللمدامع جَمْرَةٌ   فوقَ الخُدود..وفي الضُّلوعِ ضِرامُ
٧- حُزْني عَلَيْكَ يَفُوقُ حُزْنَ أقارب   إنَّ المعارِفَ والنُّهى أرْحَامُ
٨- تلْكَ العيونُ لطالما عَوَّدْتَها   كيفَ المنابرُ..للبليغ..تُقامُ
٩- كَيف التواضعُ يزدهيك تَرَفُّعًا   فالعالمونَ..هُمُ هُمُ الأعلامُ
١٠- قالَ الطبيبُ: بأنَّ داءَكَ مُعْضِلٌ   عامَيْنِ..أوْ لا؟!لَن يَتِمَّ العامُ
١١- لابُدَّ من أقْصَى العلاج وراحة   فَلَعَلَّ عَيْناً أسْهَدتْكَ..تنامُ
١٢- فاستضحكَتْكَ عبارةٌ مَكْذُوبَةٌ   أوَما دَرَى أنَّ (الجَواد) يُضَامُ
١٣- السابقاتُ حياتُها..حَلَبَاتُهَا   وهلاكُها..لو يَسْتَطِيلُ جَمامُ
١٤- لا فَرْقَ في الأحياءِ عن أمواتهم   إلاّ بأنَّ الميتين..نيَامُ
١٥- دَعْها إذَنْ نَحْوَ المقاصد تَرْتَمي   في السَّبْق..خيرُ فعالِها الإقدامُ
١٦- هي حكْمَةُ الآباءِ في أبنائها   تقْفُو على آثارها الأقدامُ
١٧- إنَّا بَنُوكَ.. وبعضُ ما عَلَّمْتَنا   الخالدان..الصَّبْرُ والآلامُ
١٨- جرَّدْتَ نفسَكَ غِمْدَها من بَدْنِها   سيَّان..بدْءٌ للعُلا..وختامُ
١٩- إيه (عَلِيُّ) وما اصْطَبَتْكَ غَرارَةٌ   كَلَّا، ولا دارتْ عليكَ مُدامُ
٢٠- بَلْ هِمْتَ بالحرف المنير تَخُطُّهُ   كي لا تُضِلَّ عقولَنا الأوْهامُ

(١) ألقيت في الحفل التأبيني الذي أقامته (كلية التربية ـ بنات) جامعة بغداد.

٢١- وَمَضَيْتَ في الدَّرْب العصيب وَلَم تَهَبْ كَأَداءَهُ..أَوْ مَا يَدُسْ طَغامُ
٢٢- هذا الفراتُ أكادُ أسمَعُ شَجْوَهُ فَدُمُوعُهُ في ضَفّتيهِ سِجامُ
٢٣- و(الحلَّةُ الفيحاءُ) تَنْدُبُ شيخَها لا، بل فتاها (الطاهرُ) المقدامُ
٢٤- أعليُّها..هذا المُسجّى في الثرى؟! ياليتها ضمّتهُ..وَهْيَ رَغامُ
٢٥- في نقده..ماهابَ لومةَ لائمٍ والأدعياءُ..جميعُهم..لُوّامُ
٢٦- و(الحلَّةُ الفيحاءُ) حُلّتهُ التي يزهو بها وعبيرَها يَستامُ
٢٧- و(الحلَّةُ الفيحاءُ) أجملُ لَوحةٍ هيهاتَ يُبْدعُ مثلَها رَسّامُ
٢٨- لولا ظروفُ أجبَرتْهُ فراقَها ما كان للشيخ الوليد فِطامُ
٢٩- ولظَلَّ يَحبُو في مَدارج عِزّها وكأنَّما..أعوامُه..أيامُ
٣٠- قد عَلَّمَتْهُ السَّحر (بَابلُ) إنه سحرُ حلالُ ليس فيه حرام
٣١- سحرُ البيان من الصَّفيِّ صفاؤهُ والسِّحْرُ ما يُوحي به الإلهامُ
٣٢- أسْدَيْتَ ما أسْدَيتَ طِبْ نَفساً بما أسْدَيْتَ حتّى تَفْخَرَ الأرقامُ
٣٣- وكفى بمجدكَ أنْ تَظَلَّ على المدى تَبْهى العروبةُ فيك والإسلامُ

تكريم الطاهر

عبد رب الأمير الورد (١)

[قال الطاهر الشيخ (الأستاذ).. المجتهد د. علي جواد الطاهر في ١٩٨٦/١١/١٣ في مقابلة صحفية في صحيفة «الثورة» مجيبا عن سؤال: ولم لا اقرأ الشعر العمودي الحديث والمعاصر اذا كان لأبي ريشة والجواهري... وشاعر عراقي آخر لايعرفه الناس جيدا، لانه يُؤثر ألاّ يعرفه الناس لسبب أو لآخر ولثقته بنفسه، هو عبد رب الامير الورد الذى لايَعْدِله في شعراء العمود اليوم شاعر]. فكانت بعد ذالك هذه القصيدة:

(١) نفس قصيدة التكريم هذه القيت في رثائه في حفل تأبيني اقيم بمناسبة وفاته.

تَمُرُّ حواليك الليالي وتعجب ... لأنك ما يعتامنا الجدب صيب
حميت معين الفكر حرا من القذى ... ولم تك غير الحق في الحق ترهب
تلألأ في عينيك للصدق آية ... وللصبر آفاق وللذوق موكب
ويشرق إن أشرقت للعلم مشرق.... ... ويقبل إن أقبلت للفن موكب
لئن كان من يرجو الطغام رضاءه ... فإنك من ترضى العلى حين تغضب
وإنك في عين البغاة مبغض ... وإنك في عين الأباة محبَّبٌ
عرفتك أيام الحياة توثب ... وجئتك أيام الحياة ترقب
أيام يزهي الفجر أنك نسمة ... وأيام يعيي الليل أنك كوكب
أيام ترجو الناس انك منهم ... وأيام تخشى الناس أنك تقرب
وأنت على الحالين ليث غضنفر ... يراوده عن طهر مسعاه ثعلب
لقد عشت درب العمر بالصدق مشرقًا ... ولف سواك الدهر بالكذب غيهب
وكنت وفيا حين لايصدق الفتى ... وكنت قوياً إذ يلين المرهب
إذا لم يكن للفعل في الصدق آية ... فللمرء مهما يشرق القول أكهب
ويمتلك العليا فتى غير أنه ... يخر إلى داني الثرى حين يكذب
أنبيك، لا جهلاً بمثلك حالتي ... ولكن بما ينبي الطبيب المطب
بما تشكي الضلعاء والضلع داءها ... وما يتلقى من هموم ابنه أب
لأنك عندى ماترى النفس نفسها ... وما كان من (قيس الرقيات)(مصعب)
وإنك من نزر يسير ربوعهم ... تظل خضالاً حين ينتاب مجدب
تنخلت أهل الفن حتى عرفتهم ... صنوف من الفن الرفيع وأضرب
فألبستني من بينهم تاج عزة ... تظل تناغيني رواءً فأطرب
وإنك مشكور على ماذكرته ... كما شكرت (عمرًا) على الفخر (تغلب)
ولو تستطيع الأرض بث شعورها ... لتُنبئ من ممن (؟) عليها المحبب
لصاغت جريد النخل حولك أضلعا ... يلفعه طين من الشط معشب
ولست بدارٍ أينا قبل خدنه ... سيدركه الركب المغذ فيركب

ويارب مشف عاش تسعين حجة ورب فتى أصماه للنحس كوكب
وإنك إذ حزت الثمانين حزتها وأنت لأهل العلم للعلم مضرب
ولم تك إلاّ كوكب النسر صاعداً كما حلقت في الجو عنقاء مغرب
لقد تعبت منك الليالي واتعبت فيا عجباً من متعب وهو متعبُ
فزدها شجًا في طول محياك عامداً ومزق دجاها غالبا لايغلب
تقلب فيك الدهر حتى لو أنه أراد مزيداً لم يسعه التقلب
وحالت به الأحوال فالعدل مغرم يَنُوءُ به اهلوه والجور مكسب
وذو العهر موفور، وذو الطهر معدم تناهشه الذؤبان والشرق مغرب
أعاجيب هذا الدهر فيما يجيؤه وللصمت عن تلك الأعاجيب أعجب
أقام لأهل الكفر صرحا ممرداً ليعمر بألاطهار قبر وسبسب
وأطغى شياطين الضلال على الورى لهم من وراء البحر أمر موجب
إذا رغبوا أعطوا وإن غضبوا أبوا وأنأوْا كما شاء وا الذيول وقربوا
هم الأهل..والآهلون ليسوا سوي صدى وضرع لدى إبساسه ليس يحلب
لقد جن هذا الدهر في ظلم أهله فما يحدس الواعون أني سيضرب
ولو كان يرمي بالجمار بظلمه... لأحوج في الرمي الحجيج المحصب

إلى الطاهر...

محمد حسين آل ياسين (١)

أسعفِ القلب منكَ بالخفقان وأعر نشوة القصيد المعاني
كيفَ يقوى الطير المهيضُ بياناً وهو يشدو زهواً لرب البيان
إنْ أكنْ قد قضيتُ عمريَ في دُنـ ـياك درسا فحان يوم امتحاني
فأعِني على افتتاني بما ألـ ـهمت فيها أزدك منها امتناني
إذ تفردت أن صمتك إبدا عٌ فأصغي إلى حديث الجنان

(١) أنشدت في الحفلة التكريمية التي أقامها مجلس الخاقاني الأدبي في الكاظمية للأستاذ الكبير العلامة الدكتور علي جواد الطاهر مساء الأثنين ١٩٩٦/٩/٢.

أي أمـــنـيـــة تـــرادوك الآ   ن فداهـا من عاشـيقك الأمـاني
حـدثـت عـنـك رابـط الجأش كـفٌ   وحكـت عنـك صابـراً مقـلتـان
(ياحبيبي) ـ وإن أسـأت بهـا التعـ   ـبير ـ أغلى مافـاض فيه لساني
فـرط ذوبـي بـكـل نـبـض فـإنـي   لأعـانـي مـن عـلـة مـاتـعـانـي
رمقت عينـك الـزمان فكـلَّت   وهـي مـرمـوقـةٌ بعين الـزمـان
يـاأبـا رائـديـن نجـلـك والـفـكـ   ـر وتكـنـى بـثـالـث من حنـان
أنا غرس من بعض روضتك الغنـّ   ـاء فاضت بها القطوف الدواني
كـل غصن منهـا إليك مشيـرٌ   قـائلٌ: ذاك مـن سـقـى فرعـاني
بك أدركت كيف يمكن أن يخـ   ـلق حي خـلـقًا مـن الوجـدان
وبمـا قـلـت بـت أعـرف سـر ...   ...أن الـورى لـهـم أذنـان
كـل حـرف نـطـقـت أفـرع آيـا   ت وحسبي أن كنت منهـا (...)
فتمامي من سيب فضلك في العمـ   ـر والإ فمن يدي نقصاني
ياعلي الحرف الشريف جواد الـ   ـكـف والروح طـاهـر الأردان
هل وعى الجيل من شباب كسولٍ   كيف تجلى السبعون من عنفوان
كيف أن اليراع أخرس إن لم   ينغمس قبل في أسى الإنسان
وبأني لو غبت عن أعين الرا   ئين يوماً فلا يغيب مكاني
وبأني إن أبعدتني الليالي   وأنا أصدق الليالي ـ فداني
وبأني إذا خسرت رهانًا   حاضرًا فالغد البعيد رهاني
إن تفتني عينان أخطأتاني   لم تفتني سواهما تقرآني
أنت علمت ما الحياة ومجدٌ   أن درسًا يَجِدُّ في كل آن
عشت تبني ماالدهر يهدم فانظر   حاشداً لايطيق هدماً وباني
ألفُ نوح يفنى وألف سفينٍ   غير فكر الطوفان ليس بفاني
كان نصراً للسيف قطع بنانٍ   ومضى السيف في خلود البنان

محتوى الكتاب (1)

(١) كما وضعه المؤلف جمع فيه بين اسماء الاعلام ودور النشر والدوائر الرسمية، رأينا اثباته لشموله وسنلحق بعده بعض الفهارس المفصلة.

محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن قاسم ١١٩١
محمد العبدالرحمن اليحيى ١١٩١
محمد بن عبدالرحيم الصديقي ١١٩٢
محمد عبدالرزاق حمزة ١١٩٢
محمد عبدالعزيز الربيع ١١٩٩
محمد بن عبدالعزيز بن مانع ١٢٠٠
محمد بن عبدالكريم المغيلي ١٢٠٩
محمد بن عبداللطيف آل الشيخ ١٢٠٩
محمد بن عبدالله آل عبدالقادر ١٢١١
محمد بن عبدالله آل عيثان ١٢١٤
محمد بن عبدالله آل مبارك ١٢١٥
محمد بن عبدالله بن بليهد ١٢١٧
محمد بن عبدالله الجناحي ١٢٢٣
محمد بن عبدالله بن حسن آل الشيخ ١٢٢٣
محمد بن عبدالله بن حسين أبا الخيل ١٢٢٤
• محمد بن عبدالله بن حميد ١٢٢٥
محمد بن عبدالله بن سليم ١٢٢٧
محمد بن عبدالله بن عثيمين ١٢٢٨
محمد العبدالله العوني ١٢٣٠
• محمد بن عبدالله بن فيروز ١٢٣١
محمد بن عبدالله القاضي ١٢٣٢
محمد عبدالله مليباري ١٢٣٣
محمد العبدالله الميمان ١٢٣٣
محمد بن عبدالمحسن الخيال ١٢٣٤
محمد بن عبدالوهاب ١٢٣٤
• محمد عبده يماني ١٢٦٦
محمد بن عثمان القاضي ١٢٧٠
محمد بن عثيمين ١٢٧١
محمد العربي ١٢٧١
محمد بن علي بن تركي ١٢٧٤

محمد علي حسن مصلي ١٢٧٥
محمد علي بن حسن بن مكي الناصر ١٢٧٥
محمد علي بن حسين المالكي ١٢٧٥
محمد بن علي سلوم ١٢٨٠
محمد علي السنوسي ١٢٨٠
محمد علي شالواله ١٢٨٢
• محمد بن علي بن غريب ١٢٨٢
محمد علي قدس ١٢٨٤
• محمد علي قطب ١٢٨٥
محمد علي مغربي ١٢٨٦
محمد عمر توفيق ١٢٩١
• محمد بن عمر بن حسن.. الفاخري ١٢٩٤
محمد عمر رفيع ١٢٩٤
محمد عمر سعيد العامودي ١٢٩٥
محمد عمر عرب ١٢٩٥
• محمد بن عمر بن عقيل (أبو عبدالرحمن)
• محمد العمري ١٢٩٧
محمد العيد الخطراوي ١٢٩٧
• محمد فالح بن محمد المهنوي ١٣٠٠
محمد الفهد العيسى ١٣٠٠
محمد بن كاظم القطيفي السيهاتي ١٣٠٢
• محمد كامل خجا ١٣٠٢
محمد ماجد الكردي ١٣٠٢
• محمد المجذوب ١٣٠٣
• محمد محفوظ بن عبدالله الترمسي ١٣٠٤
• محمد محمود الشنقيطي ١٣٠٥
محمد محمود الصواف ١٣٠٦
محمد مسفر بن حسين الزهراني ١٣٠٧
محمد بن مشعي آل صالح الدوسري ١٣٠٨
محمد المكي آل عبدالقادر الكردي ١٣٠٨

الفهارس الشاملة

١ - الأعلام

---

(١) الرقم الذي بين قوسين هو موضع الترجمة.

٢- الكتب والصحف والمجلات

٣- الشعر (الدواوين)(١)

---

(١) يحسن الرجوع لتراجم الشعراء عن أشعار ودواوين لم تُسَمَّ في هذا الفهرس.

٤ – دور النشر والمطابع والمكتبات

٥- المواضع (الأماكن)

٦ - الأسر والجماعات والقبائل

١٩٩١

للمؤلف

- «الشعر العربي في بلاد العراق وبلاد العجم في العصر السلجوقي» ج١، بغداد مطبعة المعارف ١٩٥٨. ج٢، مطبعة العاني ١٩٦١ - ط٢ في مجلد واحد، بيروت، دار الرائد العربي ١٩٨٤.
- «الابن وسبع قصص أخرى» (مختارة ومترجمة عن الفرنسية)، بغداد، مطبعة اتحاد الأدباء العراقيين ١٩٦٠ - ط٢، بغداد دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٨٦.
- «لامية الطغرائي» (تحقيق، تحليل، مناقشة) بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٢.
- «مقالات في النقد الأدبي... والتربية» بغداد، مطبعة اتحاد الأدباء العراقيين ١٩٦٢.
- «الطغرائي حياته، شعره، لاميته» بغداد، منشورات مكتبة النهضة، مطبعة التضامن ١٩٦٣.
- «في القصص العراقي المعاصر» (نقد ومختارات) بيروت، المكتبة العصرية ١٩٦٧ - معد لطبعة ثانية مزيدة.
- «تدريس اللغة العربية في المدارس المتوسطة والثانوية» النجف مطبعة النعمان ١٩٦٩، ط٢ بعنوان أصول تدريس اللغة العربية»، بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٤.
- «محمود أحمد السيد - رائد القصة الحديثة في العراق» بيروت، دار الآداب، ١٩٦٩.
- «ملاحظات على الموسوعة العربية الميسرة» بغداد، مطبعة الإرشاد ١٩٧٠ - ط٢، بيروت، دار الرائد العربي ١٩٨٤.
- «منهج البحث الأدبي» ط١، بغداد، مطبعة العاني ١٩٧٠، ط٢ بغداد، مطبعة أسعد ١٩٧٣، ط٣ بغداد مطبعة أسعد ١٩٧٦، ط٤ بيروت المؤسسة العربية (كتب عليه خطأ ط٣)، ط٥، بغداد، المكتبة العالمية ١٩٨٤، ط٦، بغداد، المكتبة العالمية ١٩٨٦، ط٧، بيروت، المؤسسة ١٩٨٨ (كتب عليها خطأ: ط٤)، ط٨، منقحة، عمّان، الدار المتحدة للنشر.
- «ديوان الخريمي» (جمع وتحقيق بالاشتراك مع محمد جبار المعيبد) بيروت، دار الكتاب الجديد ١٩٧١.
- «ديوان الجواهري» (جمع وتحقيق بالاشتراك مع د. إبراهيم السامرائي، د. مهدي المخزومي، رشيد بكتاش) ج١-٧، وزارة الاعلام والثقافة، بغداد ١٩٧٣-١٩٨٠.
- «ديوان الطغرائي» (تحقيق بالاشتراك مع الدكتور يحيى الجبوري) بغداد، وزارة الإعلام ١٩٧٦، ط٢، الكويت، دار القلم ١٩٨٣.
- «ملاحظات على وفيات الأعيان» (ط. بيروت)، بيروت مؤسسة الرسالة ١٩٧٧، (ط٢، ضمن «فوات المحققين» أدناه).
- «ملاحظات على طبقات فحول الشعراء» - ط: مصر- .
- «وراء الأفق الأدبي» (مقالات)، بغداد، وزارة الإعلام ١٩٧٧.

١٩٩٢

- «الأعمال القصصية الكاملة لمحمود أحمد السيد» (إعداد وتقديم بالاشتراك مع الدكتور عبدالاله أحمد) بغداد، وزارة الثقافة والفنون١٩٧٨.
- «أصول تدريس اللغة العربية» بيروت، دار الرائد العربي ١٩٨٤ (ينظر أعلاه تدريس اللغة العربية).
- «مقدمة في النقد الأدبي» ط١، بيروت، المؤسسة العربية ١٩٧٩، ط٢ بغداد، المكتبة العالمية ١٩٨٣، ط٣، بيروت١٩٨٨ (كتب عليها خطأ، ط٢).
- «منهج البحث في المثل السائر»، الموصل، جامعة الموصل ١٩٨٢، ط٢ (تصويراً)، بغداد ١٩٨٩.
- «الخلاصة في مذاهب الأدب الغربي» بغداد، وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨٣، سلسلة الموسوعة الصغيرة١٢١، ط٢ بيروت، دار الرائد العربي، ١٩٨٤.
- «تحقيقات.. وتعليقات» بيروت، دار الرائد العربي ١٩٨٥.
- «ديوان الجعفري» (صالح بن عبدالكريم - آل كاشف الغطاء - بالاشتراك مع ثائر حسن جاسم)، بغداد، وزارة الثقافة والاعلام ١٩٨٦.
- «معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية» جزءان، ط١ بغداد، المكتبة العالمية ١٩٨٥، ط٢ الرياض ١٤١٨ (١٩٩٧م).
- «التراث والشعر الحر في الريادة العراقية» من بحوث مهرجان المربد السادس، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة سلسلة الشعر ومتغيرات المرحلة (٢) ١٩٨٦.
- «أبو يعقوب الخريمي حياته وشعره»، سلسلة الموسوعة الصغيرة (٢٦٦) بغداد ١٩٨٦.
- «اساتذتي ... ومقالات أخرى» دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٨٧.
- «من حديث القصة والمسرحية» بغداد ١٩٨٩.
- «من يفرك الصدأ أو حسين مردان» (في مقالات له وشعر حر ونثر مركز)، جمع وتقديم، بغداد١٩٨٩.
- «عن الكتاب الخليجي» بغداد، الموسوعة الصغيرة ١٩٨٩.
- «فوات المؤلفين» بيروت، دار الغرب الاسلامي ١٩٩٠.
- «فوات المحققين» بغداد ١٩٩٠.
- «الباب الضيق» (مقالات)، بغداد، شركة المعرفة ١٩٩٠.
- «في الريادة الفنية للقصص العراقي» (نقد)، الجزء الأول - «أشياء تافهة» لنزار سليم، بغداد، الموسوعة ١٩٩٠، الجزء الثاني - «نشيد الأرض» لعبدالملك نوري، بغداد ١٩٩١.
- «مسرحيات وروايات عراقية» بغداد ١٩٩٣.
- «الحُبكة المنغمة» (مقالات في النقد الأدبي لعبدالجبار عباس) جُمعت (بالاشتراك مع عائد خصباك) بغداد ١٩٩٤م.
- «سليمان بن سليمان النبهاني شاعر من عصر النباهنة في عُمان»، اللاذقية، دار الحوار ١٩٩٥.

- «المرزوقي، شارح الحماسة، ناقدًا»، عمّان، الدار المتحدة للنشر ١٩٩٥.
- «محمد بن سلاّم وكتابه «طبقات الشعراء»، عمّان، دار الفكر ١٩٩٥/ ١٤١٦.
- «مصادر صناعة الكتابة مصادر للنقد الأدبي» بغداد، الموسوعة الصغيرة، ١٩٩٥ - ١٩٩٦م.
- «ج.س؟، أجوبة عن أسئلة في الأدب والنقد وجهتها الصحافة العراقية والعربية» بغداد، دار الشؤون الثقافية ١٩٩٦.

تحت الطبع :

- «وأنت تقرأ في ٩٣ كتابًا» عمّان، الدار المتحدة للنشر.
- «السوط وثماني قصص أخرى» (مترجمة عن الفرنسية) عمّان، دار النسر.
- «كتب وفوائد».
- «كتب محققة وفوائد».

المخطوط :

- «دُرة التاج من شعر ابن الحجاج» - اختيار الاصطرلابي، تحقيق.
- «أمشاج» (مقالات).
- «أوشاج» (مقالات).
- «أشتات مقرونة» (مقالات).
- «كلمات» (مقالات).
- «بحوث أدبية».
- «مجاميع من القصص العراقي المعاصر» (نقد ومختارات).
- «نحو الشعر الحر»
- «عن الكتاب الخليجي».
- «تحقيقات .. وتحقيقات عرضية».
- «فصول غير ذاتية من سيرة ذاتية».
- «تاريخ الأدب الفرنسي في العصر الوسيط» (ترجمة).
- «شموع في الأدب العراقي».
- «ج.س؟ أيضًا».
- «الباب الواسع» (مقالات).
- «فوات المترجمين».

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
تلفون : ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣